عبد الرحمن الكواكبي

السيرة الذاتية

بقلم الحفيد القاضي سعد زغلول الكواكبي



بيسان

عبد الرحمن الكواكبي

السيرة الذاتية

عبد الرحمن الكواكبي
السيرة الذاتية

بقلم الحفيد

القاضي سعد زغلول الكواكبي

بيسان

* عبد الرحمن الكواكبي (السيرة الذاتية)

* تأليف: سعد زغلول الكواكبي

* الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

* الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع**

□ ص.ب ٥٢٦١ ـ ١٣ بيروت ـ لبنان

□ هاتف: ٣٥١٢٩١ ـ ٠١ * فاكس ٧٤٧٠٨٩ ـ ١ ـ ٩٦١



عبد الرحمن الكواكبي

٢٣ شوال ١٢٧١ هـ ٩ تموز/ يوليه ١٨٥٥م/ / ٦ ربيع الأول ١٣٢٠هـ ١٣ حزيران/ يونيه ١٩٠٢م

الإهداء

إلى ثوّار الحريّة في العالم أجمع

إلى أحبّائي أفراد الأسرة الكواكبيّة وأخصّ زوجتي «مليحة»

التي شجّعتني على كتابة هذه السيرة

وإلى أرواح «عبد الرحمن الكواكبي» وشهداء العروبة

مع أملي بتحرر العرب.

مقدمة

رغبوا إليّ أن أكتب سيرة جدي «عبد الرحمن الكواكبي» مفصّلة لإطلاع الناشئة على حقائقها. ولهذه المناسبة أذكر ما جرى لي مع المرحوم «الشاعر القروي» في آخر زيارة له إلى حلب، إذ استضفته في منزلي يوماً فشاهد صورة جدي «عبد الرحمن الكواكبي» على الجدار، فطلب مني أن أصوره تحتها. وبالفعل كانت صورة رائعة. ثم خرجنا من البيت في نزهة حول المدينة، وترجلنا من السيارة نمشي في الجادة المحيطة بـ «هضبة الكواكبي» وثانوية «عبد الرحمن الكواكبي» والمطلة على مدينة حلب. ودار الحديث مطوّلاً عن «الكواكبي». فسألني أديب كان معنا: لماذا لا تنقلون رفات جدكم من القاهرة إلى مسقط رأسه «حلب» أُسوة بما تفعله الأمم الراقية بعظمائها إذ تنقل رفاتهم من الأماكن التي هاجروا إليها إلى مساقط رؤوسهم؟

فقلت:

إنها الأمم أو الحكومات يا صاحبي، وليست أسر العظماء، لأن هؤلاء غالباً ما تكون أسرهم لا تقوى على ذلك. فضلاً عن أنه لم يبقَ في قوس الصبر منزع. فالذين يتغاضون عن تصحيح خطأ ارتكبوه في تاريخيّ ولادته ووفاته في الطابع البريدي الرسمي للدولة، وعن إندثار بيته ومدرسته «الكواكبية» التي امتلكتها مديرية الأوقاف، وعن تداعي قبره، وعن استبدال شارع يليق باسمه بالشارع الذي أضحى أبشع شارع في حلب، بعد أن كان الشارع الحكومي الرئيسي فيها بسبب هدم دور الحكومة والبلدية والدوائر الرسمية القديمة التي كانت فيه، والذين لم يخطر ببالهم أن يقيموا له تمثالاً في أحد شوارع حلب الرئيسية أسوة بأناس آخرين لم يبلغوا منزلته أقاموا لهم تماثيل رمزية، وأحجموا عن إعادة طبع كتبه ونشرها أسوة بسائر المنشورات التي لم تبلغ ولن تبلغ

أهمية كتبه، والذين أشرفوا ـ في جامعة حلب ـ على طباعة كتاب «فؤاد العنتابي» (حلب في ماية عام) فرافقوه بصورة ليست لـ «عبد الرحمن الكواكبي» وإنّما لأخيه «مسعود» على أنها صورته، بينما رافقته بصورة ليست لـ «مسعود الكواكبي» وإنّما لـ «رشيد بن عبد الرحمن الكواكبي» وبصورة ليست لابنه «الطبيب أسعد» إنّما لإبنه «رشيد» (والجميع معروفون لدى المؤلف الذي لم يعلم بهذا الخلط، وصور الكواكبي تغص بها الكتب والأبحاث!). . . لا يسعهم أن يهتموا بأمر مثل هذا، وربما يكون مرجع ذلك لأسباب تخصهم وحدهم.

وما كاد ضيفي «الشاعر القروي» يسمع جوابي هذا حتى قال: إحمد ربك، فـ «عبد الرحمن الكواكبي» لا يزال حيّاً في التاريخ، وتاريخنا لا يزال حيّاً به. وإنني أنصح بإبقائه في مصر، فأرض مصر بحاجة دوماً إلى هذه البذرة الطيبة، فلعلها تنبت الثمر يوماً هناك حتى لو زال قبر «الكواكبي» من ظاهر أرضها.

علّق الأديب المرافق قائلاً:

ـ إنها كلمة واسعة يا أستاذ، فهل ننقلها عنك؟

فأجاب:

ـ خليها بيننا!

فأجبته أنا قائلاً: اعتقد أن تلك البذرة في مصر الفرعونية قد أنبتت مصر العربية وأنبتت من يَدْعون إلى القومية العربية. وها هو «جمال عبد الناصر» ثمرة من شجرة نَمَتْ من بذرة «عبد الرحمن الكواكبي». وها هي جامعة الدول العربية من مشتقات «أُم القرى». أفلا يكفي ما رضعته مصر من أفكاره حتى يؤون الأوان لحمل رفاته إلى مسقط رأسه إكراماً لبلده، وإن كان أهلها قد عقّوه حتى الآن وغمطوه حقّه من التكريم أمداً طويلاً، إلى أن جاء «جمال عبد الناصر» فكرّمه بمهرجان عمّ الإقليمين السوري والمصري، لإيمانه بدعوته العربية، أولاً، ولأسباب سياسية معروفة، ثانياً. مع أنه لم يكن لسورية ومصر فحسب، وإنما هو لسائر العالمين العربي والإسلامي.

فقال:

ـ إذن إسع إلى نقله إلى حلب لدى المسؤولين لديكم.

فقلت: أنا أنادي، ولكنني أخشى أن تكون عودته في يوم عودة «القارظان كلاهما» أو يوم يبعث هو في الأحياء!! أو يقوم على الأمر من يريده شخصياً بنفوذ وسعة.

فقال:

ـ لعلّ من ترجو أن يهتموا بالأمر لا يعرفون عن «الكواكبي» إلاّ أقواله. فهلاّ نشرتم تاريخه وسيرته الشخصية لتكون حافزاً لهم على الاهتمام؟

بقيت تلك التوصية في ذهني سنوات عديدة أعقبت وفاة الصديق «الشاعر القروي»، نائمة، حتى أُلحّ عليّ بشأنها أصدقاء من أدباء العرب، فتحمّست للطلب وجهدت في كتابة هذا البحث جامعاًالوثائق التي بقيت في أسرتنا والتي قدّمْنا بعضها إلى دائرة الوثائق بدمشق، بالإضافة إلى بعض الصور الشمسية، راجياً من بحثي إفادة الناشئة العربية والإسلامية أولاً ومن ثم سائر المهتمين بتاريخ وبآراء السياسيين وعلماء الاجتماع والفلاسفة، عرباً كانوا أم غير عرب، والذين لا يزالون تحت تأثير ضلالة بعض المؤرخين المغرضين، وأُخُصّ منهم دعاة الصهيونية ومن ضلّ الطريق بدسائسهم.

وهأنذا ـ إفادة للجميع، وتشجيعاً لمن يخطر بباله ترجمة هذه السيرة إلى لغة أجنبية لتلحق بتراجم كتب «عبد الرحمن الكواكبي»، أُقدّم لهم هذه السيرة، راجياً أن يساعدوني فيما أنا مقصّر عنه، دون تغاضٍ أو ضرب صفح، وأن يوفقنا الله لخير العرب مسلمين ونصارى، والإنسانية.

وقد تناولت في بحثي هذا الفصول التالية:

سعد زغلول الكواكبي

عبد الرحمن الكواكبي

السيرة الذاتية

(١)

السيرة الذاتية الرسمية:

في وثيقتين رسميتين، إحداهما مصدّقة من والي حلب «المشير عثمان باشا» ورؤساء حكومة حلب، والثانية مصدّق عليها من الوزير «رائف باشا» والي حلب (وهي الأخيرة)، أثبتت سيرته الرسمية. وهما الوثيقتان اللتان تحتفظ بهما أُسرتنا، واللتان اطلع عليهما «الشيخ رشيد رضا» صاحب «المنار» القاهرية وأثبتهما في ترجمته له عقب وفاته، في مجلته.

ففي وثيقة «عثمان نوري باشا» ما يلي:

[هو عبد الرحمن أفندي ووالده الشيخ أحمد أفندي من آل الكواكبي ومن المُدَرّسين في الجامع الأموي الكبير والمدرسة الكواكبية. وآخر وظيفة كان فيها عضوية مجلس إدارة ولاية حلب. وبيتهم من بيوتات المجد والشرف (خاندان) المشهورة في الآستانة العَلِيّة وحلب.

وُلِد السيد عبد الرحمن أفندي في ٢٣ شوال سنة ١٢٦٥[١] وتعلّم القراءة والكتابة في المدارس الأهلية والإبتدائية، ثم استحضر له أستاذاً مخصوصاً علّمه أصول اللسانين التركي والفارسي، وتلقّى العلوم العربية والشرعية بمدرسة «الكواكبية» المنسوبة لأسرته. وقد وقف على العلوم الرياضية والطبيعية وبعض الفنون الجديدة بالمطالعة والمراجعة. ومن تأليفه تحرير الجريدة الرسمية «فرات» بقسميها التركي والعربي من سنة ١٢٩٢ إلى سنة ١٢٩٧، ومنه جريدة «الشهباء» التي أنشأها في حلب سنة ١٢٩٣.

(١) خطأ سنشير إليه وإلى أسبابه تالياً.

خدمته ووظائفه:

دخل في وظائف الدولة رسمياً في الثامنة والعشرين من عمره. وفي سنة ١٢٩٢ عُيِّن محرراً للجريدة الرسمية بقسميها براتب قدره ثمانماية قرش. وفي ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٥ عُيِّنَ كاتباً فخرياً للجنة المعارف التي تأسست في ولاية حلب. وبعد ثلاث سنين اتسعت دائرة اللجنة وزيد فيها قسم للنافعة (الأشغال العمومية) وعُيِّن عضواً فخرياً فيها. وفي جمادى الأولى عُيِّن محرراً للمقاولات (مسجل المحكمة). وفي ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ صار مأمور الإجراء(٢) في ولاية حلب. وفي رمضان ١٢٩٨ عُيِّن عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين. وفي ربيع الأول سنة ١٢٩٨ عُيِّن مديراً فخرياً لمطبعة الولاية الرسمية. وفي رجب عُيِّن رئيساً فخرياً للجنة «قومسيون» النافعة. وفي ذي القعدة عُيِّن بأمر نظارة العدلية في الآستانة عضواً في محكمة التجارة بولاية حلب مع البقاء في

---

(٢) مأمور الإجراء في يومنا هذا هو رئيس دائرة التنفيذ العدلية التي كانت تسمى ـ حتى عهد قريب ـ «دائرة الإجراء». ولقد قرأنا في جريدة «التقدم» البيروتية بتاريخ ٥ تموز ١٨٨١ كلمة من صاحبها الأديب اللبناني «أديب اسحق»، تحت عنوان «عبد الرحمن الكواكبي» يقول فيها:

[توجه من مدة حضرة قدسي زادة نجيب أفندي مأمور الإجراء إلى دار السعادة بالرخصة، وناب عنه بهذه الخطة المهمة جناب الفتى الوطني النبيه الفاضل كواكبي زادة عبد الرحمن أفندي فنهض بأعبائها خير نهوض وأثبت ما عهدنا به من بداهة الخاطر وسعة العلم بالقوانين. وكان هذا الفتى الفاضل قد انتخب عضواً دائماً لمحكمة التجارة فزعم بعض القهقريين أنه لا يصلح لذلك من حيث أنه فتى لم يتجاوز ستاً وعشرين من السنين وفاتهم أن القوانين لا تقتضى أن يكون عضو التجارة شيخاً ضعيفاً بل تقتضي أن يكون فاضلاً نزيهاً عالماً بواجباته وحقوقه. ولله درّ من قال:

كم من كبير قليل العقل ذي بله   وكم صغير كثير العلم منتخب

ليس الكبير الذي قد شاب مفرقه   بل الكبير الذي قد شاخ بالأدب

فعسى أن يقبل أولو الأمر على رفع منازل النبهاء من الفتيان فإنهم إن لم يكن من مزيتهم غير قوة الشباب والبعد عن فساد التقليد فحسبهم ذلك فضلاً. (أديب اسحق)].

هذا النص يدلنا ـ فضلاً عن تأريخ استلامه لهاتين الوظيفتين ـ على أن تاريخ ولادة «الكواكبي» هو فعلاً ٢٣ شوال ١٢٧١، فهو لم يكد يبلغ السابعة والعشرين من عمره وقتئذٍ كما يقول «أديب اسحق». مما يثبت أن تأريخ الوثيقة الرسمية لسيرته الذاتية أيام «عثمان نوري باشا» التي يذكر فيها أن ولادته كانت سنة ١٢٦٥ كانت خطأ. والتفسير لذلك أن تكبير سنّه جاء سنة ١٣٠٤ أيام ولاية عثمان نوري باشا، أي بعد صدور عدد جريدة التقدم بأربعة أعوام!!!! في وقت كان فيه «أديب إسحق» معاصراً ليوم ولادة «الكواكبي».

وهذا التوضيح والثبت يكفيان لإزالة أي إلتباس ومنع كل خلاف حول تحديد تاريخ ولادته.

وظيفته الأولى. وفي سنة ١٣٠٣ إنفصل عن هذه الأخيرة (محرر مقاولات). وفي رجب سنة ١٣٠٤ عاد إلى وظيفة مأمور الإجراء. وفي رجب ١٣١٠ عُيِّن رئيساً للبلدية].

* * *

وفي وثيقة الوالي «رائف باشا» ما يلي:

[في ربيع الأول سنة ١٣١٢ عُيِّن رئيس كُتَّاب المحكمة الشرعية. وفي ذي الحجة منها عُيِّن ناظراً ومفتشاً لمصلحة إنحصار الدخان (الريجي) المشتركة مع نظارة المالية في ولاية حلب ومتصرفية «الزور». وفي أثناء ذلك إتفق مع إدارة المصلحة على أن يستلم منها جميع ما تقدّمه من الدخان إلى الولاية والمتصرفية بزيادة كثيرة على القدر المعتاد وجميع ما يزرع فيهما منه ويتولى بيعه. وتعهد في إزاء ذلك بمبلغ من المال يزيد عمّا كانت تبيع به المصلحة دخانها زيادة كبيرة. وفي غضون ذلك استقال من رياسة كُتَّاب المحكمة الشرعية. وفي ذي الحجة من ١٣١٤ أُعيد إليها وعُيِّن رئيساً للجنة البيع والفراغ (أي استبدال الأراضي الأميرية من أصحاب اليد بالمال). وفي ربيع الأول عُيِّن رئيساً أولاً لغرفة التجارة في حلب ورئيساً لمجلس إدارة البنك الزراعي. وفي رجب عُيِّن قاضياً شرعياً لـ «راشيّا» التابعة لولاية سورية.

رتبته ووساماته:

في رجب ١٢٩٧ وُجهت إليه باية رؤوس أدرنة العلمية. وفي ربيع الثاني وجه إليه تدريس هذه الرتبة. وفي ذي الحجة من سنة ١٣١٢ وَجُهت إليه مولوية إزمير المجردة ثم أُعطي الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة. (أ. هـ)].

* * *

تلك هي الترجمة الرسمية لشخصه، وقد نقلها المؤرخ «الشيخ راغب الطباخ» حرفياً، مع سائر ما كتبه «الشيخ رشيد رضا» من وصف له في «المنار»، وأثبته في «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء».

* * *

أما عن هيئته:

فالمعروف في أسرتنا أنه كان رَبِعُ القامة إلى الطول أقرب، دقيق الأنف، واسع

العينين، أبيض البشرة، منتصب القامة. ويصفه جدي لأمي «الشيخ عبد الحميد الجابري» بأنه مهيب الطلعة وسيم أنيق دوماً.

ومن أخلاقه حبه لأهله، كثير المزاح معهم، محبّاً للنكات راوياً لها. ويحكي لنا أهلنا أنه اختلف مع عمته حول تسمية وليده (والدي فاضل)، فاحتكما إلى القرعة وأوصته أن يكتب أسماء عدة مغفلة على مجموعة أوراق تترك له الحرية في اختيارها على أن تنتخب هي إحداها بعد خلطها. فكتب مجموعة أوراق: «فاضل ـ محمد فاضل ـ الفاضل ـ فاضل رشيد ـ فاضل أفندي ـ السيد فاضل» وطواها فاختارت إحداها، «فاضلاً» ورضخت لإرادة الله. لكنها ما لبثت أن كشفت الحقيقة بعد فوات الأوان فقرأت الفاتحة!.

أما في مجالسه العامة فهو ـ على ما نقلناه من مؤرخ حلب «الشيخ كامل الغزّي» الذي كان يعاصره ويلازمه في أكثر الأحيان ويشغل وظائفه التي كان يُعْزَلُ عنها ـ:

[يكره المزاح السمج واللعب والتلهّي ولا يميل إلى مجالس الطرب واللهو، وأنه يعتبر ذلك إضاعة للوقت فيما لا يجدي. وأنه كان يقول بالطفرة ويعتقد نجاحها إذا قرنت بالحزم والعزم والثبات. وهو يرى التدرج في نيل المطالب تضييعاً للعمر وإفساحاً لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميؤوساً منه. وأنه كان منذ حداثة سنّه تلمع في محياه مَخايل النجابة والشهامة وعُلوّ الجناب، سخي الطبع لا قيمة عنده للمال، ولوع بالتفضل على أقرانه وخلاّنه، لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ويرى التلبُّسَ بهذه الخِلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً في الطبع. وكانت نفسه العزيزة عليه تأبى الخضوع لأهل المجد الباطل ولا يرى شيئاً يطفئ نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم. وأغرب عاطفة فيه أنه كان لا يرى هدفاً جديراً بأن يصوّب إليه سهام الطعان والتنديد غير أعاظم الرجال كالولاة والمتصرفين الذين ساءت أعمالهم اعتقاداً منه بأن الواجب على المصلح أن يبدأ بإصلاح الرأس فإذا تمّ أصلاحه تبعه الجسد فصلح كله بالطبع....»].

هذا بعض الوصف له من مقال للغزّي في مجلة الحديثة الحلبية بمناسبة مرور ربع قرن على وفاته في عدد حزيران ـ تموز ١٩٢٩ وفيه ينتقل الغزّي فيقول:

[«وكانت جرأته على اقتحام الخطر والتعرض للمهالك مما يجوز خط دائرة

الاعتدال إلى ما وراءه من مهاوي التهور، حتى قال أحد أخلائه المخلصين في ولائه: إن السيد عبد الرحمن مجموعة محاسن لا عيب فيه سوى هاتين الخلتين أي سوى القول بالطفرة وسوى تلك الجرأة المفرطة، الأمر الذي كدّر عليه موارد الحياة وأسلمه إلى يد الاضطهاد وقطع عليه خط الرجعة من رجائه فأمضى حياته يتجرّع صاب المصائب، يودع مصيبة ويستقبل أخرى:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجساد

أجل، إن السيد عبد الرحمن كان طمّاحاً للمعالي ولكنه كان لا يستعمل في سبيل الوصول إليها الأناة والتؤدة بل كان يثب إلى مناطها وثباً دون تدرّج ولا تراخٍ في قطع المراحل الطويلة المؤدية إليها فلا يشعر إلاّ وقد عرضت له عقبة تسوق قصده عن تعاليه وترجع به القهقرى وتدهوره إلى هاوية اليأس والقنوط....»].

وعن مواهبه العلمية يتابع «الغزي» قائلاً:

[كان بارعاً في اللغتين العربية والتركية، أما براعته في الأولى فحسب من يريد تحققها رجوعه إلى كتابيه «أم القرى» و «طبائع الإستبداد» فإنّ من أنعَمَ النظر في عبائر هذين الكتابين يرى أن كل معنى من معانيها قد تحيّز لفظاً على قدره لا يضيق ولا يتسع لغيره وهذا هو البراعة في اللغة وما تؤلفه مفرداتها من المركبات الإسنادية. وكان لا يعبأ بزخرف الألفاظ ولا يكثر من الاستعارة. أما براعته باللغة التركية فقد كان بالغاً منها رتبة قلّ من ينالها حتى من أبناء أهلها. وقد سمعت مرّات عديدة من المرحوم زهدي أفندي قاضي حلب يقول إن السيد عبد الرحمن قاموس باللغة التركية. وكثيراً ما كان يسأله عن بعض كلمات وتراكيب تركية شذّت عن فهمه مع أنه كان من أكبر علماء الأتراك والسيد عبد الرحمن عربيّ المنشأ لم يشتغل بهذه اللغة غير برهة يسيرة....

وكان بارعاً بفنون السياسة عالماً بما بين كل دولة وأخرى من العلاقات الجغرافية والاقتصادية وبما بين الأسر المالكة من كل دولة وبين باقي الأسر المالكة من غيرها من أواصر القربى واتصال الرحم، واسع الإطلاع على حقوق الدول ومسالك البلدان وطبائع العمران وقوات الدول وتواريخ الأمم. أخصّها التاريخ الإسلامي وتطوره في زمن كل دولة من دوله، متضلعاً جداً بقوانين الدولة العثمانية وأنظمتها مع إلمام كافٍ بفرع الفقه ونصيب وافر من النحو والصرف وباقي العلوم العربية التي تلقاها من والده العلامة في

برهة وجيزة من الزمن. . . .

أما قدرته على الانتقاد وتمحيص الحقائق وإقامة الحجج والبراهين على ما يحاول إثباته أو نفيه فحدّث عن ذلك ولا حرج، وكان سريع الانتقال فيما يَسْمَعُه ويُسْمِعُه، ذا فكر سيال قوي التوليد والإبتكار للمعاني والمواضيع المتنوعة. نَسْمَرُ معه وعددنا يربو على العشرة فيُشْغِلُ كلَّ واحدٍ منّا بموضوع يقترحه عليه ويشاكله به ويبين له خطأه من صوابه. . .»].

ونلاحظ من حديث «الغزّي» عن «الكواكبي» أنه كان معجَبَاً به أشدّ الإعجاب، إلاّ أنه لا يخفي انتقاده له على خوضه المخاطر وقوله بالطفرة في عزائم الأمور ما أدى به إلى الوقوع في المهالك.

إلاّ أن الجدير بالذكر أن مؤرخ حلب الثاني «الشيخ راغب الطباخ» صاحب كتاب «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» قد نقده لهذه الناحية أيضاً ولخوضه طريق معاداة السلطة ما أودى به في سبل المهالك عوضاً عن أن يكون ملازماً للسكينة والانصراف إلى تعليم الناشئة علوم الدين وانتشالهم من الجهل.!!

وفي قولهما أقول ـ مستنتجاً ـ: إن هذين الشيخين، رغم حبهما للكواكبي، لم يشاطراه رأيه في معاداته للسلطة ومحاربتها والثورة الفكرية التي كان رائدها. ولعلهما كانا يعتبران أن الشيخ لا يجب أن يسلك تلك السبل التي سلكها الكواكبي وإنما عليه أن يكون رجل دين فحسب ومعلّم أولاد. في الوقت الذي كان فيه الكواكبي ينفي عن الإسلام وجود ما يسمى «رجل دين» أصلاً، وهو الذي لم يصف نفسه إلاّ بـ «رجل العلم» حينما احتجّ برقياً على ظلم الوالي واعتدائه على حريته. وهذا ـ فعلاً ـ ما يميزه عن سواه ـ. !

ويقول «الشيخ رشيد رضا» صاحب «المنار» الذي لزم صحبته طيلة إقامته في مصر، واصفاً إياه:

[كان من أخلاقه الراسخة الحلم والأناة والرفق والنزاهة والعزة والشجاعة والتواضع والشفقة وحب الضعفاء. وقد كنت ـ ككل من عرفه ـ معجباً بأناته حتى كنت أقول إني أراه يتروّى في ردّ السلام ويتمكّث في جواب ما يجيب به عدة ثوان. ولا أكاد أعرف أخلاقاً أعصى على الانتقاد من أخلاقه. . . . ورث عن سلفه السادة الأمراء علوّ الهمة

وقوة العزيمة وعدم المبالاة بالأخطار، فهو من سلالة «السيد إبراهيم الصفوي الأردبيلي» المهاجر إلى حلب، وما حديث الصفوية في الأمارة بمجهول.] (مجلة المنار، الجزءان ٦ و٧ من المجلد الخامس أيار ـ حزيران ١٩٠٢).

ووصفه إبنه، عمّي الطبيب «أسعد الكواكبي» بأنه [قوي البنية صحيح الجسم عصبي المزاج بتأن، أشهل العينين، أزج الحاجبين، أبيض البشرة، جسور غير هيّاب فيما يعزم عليه، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام، ويحسن الفروسية].

ويصف «إبراهيم سليم النجار» هيئته بقوله: [رَبِعُ القامة يميل إلى الطول قليلاً، أبيض الوجه بياضاً مشرّباً بشيء من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة، معتمّ الرأس، أحاط خدّيه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه مدّ فيها الشيب خيوطه. وكان في نحو الخمسين من سِنِيه غير أنه كان كبير النشاط سريع الحركة شديد العزم، يتكلم بشيء من الشدّة والحزم. ولو لم يكن شيخاً دينياً لكان قائد جيش فاتح. فلقد كان في الحقيقة ثورياً بروحه وميوله. وكثيراً ما كان يقول لي: «لو كنت ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة»] (إبراهيم سليم النجار: في مقالٍ له في مجلة الضاد الحلبية العددان ٧ و٨ تموز وآب ١٩٥٣).

أما صديقه الآخر العلاّمة «محمد كرد علي» فيقول:

[هو رجل سيماءُ الفضل في وجهه ودلائلُ سعة العلم في حديثه. كان كبيراً في عقله كبيراً في علمه. وكان خلاّباً للألباب، إذا ضمّك وإيّاه نادٍ لا تريدُ مفارقته من بعد. كانت عليه سيماء الكآبة مما مني به. ومع تمسكه بالإسلام لم يكن متعصباً. يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء.] (محمد كرد علي: مجلة الهلال سنة ١٩٠٢).

أما شاعر النيل «حافظ إبراهيم» فقد أتى على وصفه ببيتي الرثاء اللذين ألقاهما على قبره يوم دفنه، ونُقِشا على شاهده:

هنا رجلُ الدنيا، هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم، هنا خير كاتبِ
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلّموا ... عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي

وبهذين البيتين دلّل على علوّ شأنه وتُقاه ومُقاساته للظلم وتفوّقه على كُتّاب عصره.

وكتب المؤرخ «علي فكري» في كتابه «سبيل النجاح» بالقاهرة سنة ١٩١٣ يصفه:

[«هو سياسي محنّك مع الساسة، وعمراني إجتماعي مع علماء العمران، وعالم ديني مع علماء الدين].

تلك نُبَذٌ من أقوال معاصريه ومعارفه المرافقين لهُ، تَلَتْها أقوالٌ وصفاتٌ تكاد لا تُحصى مما كتبه عنه المؤرخون ممن تلوا عصره لا مجال لتعدادها.

ولاستكمال الحواشي المتعلقة بسيرته الذاتية، لا أرى بدّاً من الإشارة إلى المواضيع النقدية التي تناولها بعض الكتاب المؤرخين، عن حسن نيّة لدى البعض أو عن نية سيئة لدى البعض الآخر من أعداء العروبة والإسلام من أمثال الصهيونيين «إيلي خيضوري Elie Khedouri» وزوجته «سيلڤيا حاييم Silvia Haim اللذين أمسيا الآن ـ مع الأسف الشديد والأسى ـ مرجعين وممثلين منفردين للعرب والمسلمين معتمدين في أكثر المؤتمرات العالمية التي تنعقد في أوربا أو في أمريكا للبحث في شؤون العالمين العربي والإسلامي، وفيها وفي كتبهما يحدّثان عن «عبد الرحمن الكواكبي» بالذات نافيين عنه أصالته العربية وأصالة كتاباته. حتى أن دائرة المعارف البريطانية لم تتورع عن الأخذ بأقوال «حاييم» فيما أرّخت به لـ «عبد الرحمن الكواكبي». .

عبد الرحمن الكواكبي

نسب الأسرة الكواكبية

(٢)

نسب الأسرة الكواكبية

إن شجرة النسب الأثرية، التي كان يحتفظ بها «الشيخ مسعود الكواكبي» نقيب أشراف حلب، أخو «عبد الرحمن»، المثبتة على خارطة من رق الغزال، والموثقة من سلطات رسمية ونقباء أشراف من زمن ينوف على أربعماية سنة، قدّمت من قبل الأسرة للمحكمة الناظرة في قضية حلّ الأوقاف الذرية بحلب سنة ١٩٥١ نظراً إلى كونها الأصل المصادق عليه من القرن العاشر الهجري.

وإن من مصائب الجهل والتخلف، التي ألمّت ببلادنا وبقيت رواسبها حتى الخمسينات، عدم اهتمام الناس على اختلاف مستوياتهم، باستثناء بعض المتخصصين النادرين، بالتراث التاريخي والوثائق التاريخية التي كانت تزخر بها مكتباتنا في المدارس والجوامع والدور.

ولهذا السبب بالذات أُتلفتْ هذه الوثيقة مع ملف القضية الوقفية حرقاً، إتباعاً لأصول إتلاف ملفات القضايا التي مرّ عليها التقادم من مستودعات قصر العدل. وتلك القضية هي قضية وقف «بني الزهراوي الكواكبي». وعلى المنهج نفسه المتبع في بيروت، إذ أُحرق، بسبب التقادم، في سنة ١٩٥٢ ملف قضية محاكمة «عبد الرحمن الكواكبي» أيام السلطان عبد الحميد، (والتي انتهت ببراءته وفسخ الحكم بإعدامه)، علماً بأنها كانت تحظى برعاية واهتمام المشرفين على قصر العدل قبلئذٍ!

أو لعلّها يد المتاجرة من لصوص الآثار والوثائق التاريخية قد وصلت إليها بالرشوة أو السرقة فأتلفت أوراق القضية برمتها لتغطية سرقتها، بحجة التقادم.

إلاّ أن المؤرخين لم يألوا جهداً في إثبات نسب الأسرة. وآخر تاريخ لدينا هو: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» للمرحوم «الشيخ راغب الطباخ». وقبله كان تاريخ

«درّ الحبب في تاريخ أعيان حلب» لـ «ابن الحنبلي». فقد أثبت فيه تاريخ الأسرة ونسبها مع أجدادها الصفويين، كما أشار إليه «أبو الوفا العرضي» في تاريخه «معادن الذهب في تاريخ حلب» بما يتفق مع نسب الأسرة الصفوية التي حكمت إيران والعراق وآذربيجان في العصر الصفوي، الذي أثبته كثير من المؤرخين من أمثال «ابن بزاز» في كتابه «صفوة الصفا» و «سعد الدين نزهة أرغون» التركي، في كتابه الذي تضمن نسب الأسرة الصفوية مع ديوان شعر «الشاه إسماعيل الصفوي». وكذلك «الدكتور كامل مصطفى الشيبيي» في كتابه «الطريقة الصفوية ورواسبها في العراق المعاصر». كما أن «حسن الأمين» قد أشار بمؤلفه عن «الإمام الخميني» إلى الأسرة الصفوية وأصولها العربية.

وتوضيحاً لذلك كله أقول:

طال التوسع العربي في بلاد المشرق آفاقاً واسعة جداً، فتحاً وهجرة، حتى أمست لهذه الهجرات مواطن استقرار. وكان منها الفاتحون. ثم اللائذون من آل البيت من ظلم الأمويين والعباسيين، ثم التجار والرَّحّالة. استقروا في أقاصي المشرق الإسلامي التي وطد فيها الفاتحون العرب حكمهم واستوطنوها مع أسرهم.

ومن الهجرات المتتالية كانت هجرة الأشاعرة الكوفيين الذي حوّل رئيسهم «محمد بن السائب» الديلم المجوس إلى الدين الإسلامي. ثم «الزيدية» بقيادة «ناصر الأطروشي». وكلهم قبائل عربية على ما أشار إليه «الشيبيي» في مؤلفه سالف الذكر. وكان أن استوطن «فيروز شاه بن شرف شاه» أحد أفراد أسرة أبيه الذي كان في «بخارى» (وهو ابن «محمد المهدي») مدينة «سنجان» من أعمال «مرو» عاصمة «خراسان»، وقام بثورة على رأس مواطنيه من العرب ضد الحكام المغول، إمتدت حتى شملت «آذربيجان» بكاملها. وكان أن انتقل أفراد الأسرة من أولاده وأحفاده إلى «أردبيل»، فكان لأحدهم «صدر الدين موسى» ما كان لجده من المُغُل، فقد ثار على حاكم «أردبيل» المغولي «جوبان» فنفاه هذا إلى «كيلان» (أو «چيلان» بالجيم المصرية العامية)، ولكنه عاد بعد مقتل «الأشرف جوبان» واستقرّ في «أردبيل» حتى توفي سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، ودفن إلى جوار قبر أبيه «صفي الدين إسحق» الذي إليه يُنسب لقب الأسرة «الصفوية» والذي لا يزال قبره هناك مزاراً فخماً يؤمّه الناس.

واستمر العقب في «أردبيل» وانتشر مذهب «الفتوة» الصفوي الذي ابتدعه هناك

«صدر الدين موسى» المذكور (٧٠٤ ـ ٧٩٤هـ/ ١٣٠٥ ـ ١٣٩٢م) أخذاً عن حميّه «الشيخ الزاهد إبراهيم الكيلاني»، وأنجب ابنه «علاء الدين عليا» الذي سكن القدس واشتهر بطريقته الصوفية ولقب بـ «المُسَوِّد» لأنه أمر أتباعه بالتعمّم بالعمامة السوداء، فلقّبه الأتراك بالتركية: «علي سياه بوش» أي الرأس الأسود. وهو مبتدع نظام «الفدائيين» لدى الصوفيين، وله مواقف مع «تيمورلنك» الذي أهداه أسراه فما كان منه إلاّ أن أعتقهم جميعاً. وقد توفي عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م في القدس. وذكر المؤرخون أن مقامه فيها معروف باسم «مقام خوجه علي»، أو «مقام الشيخ العجمي» نسبة إلى قدومه من بلاد العجم. وهو لم يدفن في «أردبيل» حيث قبور آبائه، كما جاء في بعض الأبحاث.

وأنجب «علي» هذا ابنه «برهان الدين إبراهيم» (٨٠٩هـ ٨٥١هـ/١٤٠٦م ـ ١٤٤٧م). وقد ورد اسمه في كتاب «سعد الدين أرغون» هكذا: «صدر الدين إبراهيم». ويختصر هذا اللقب «برهان الدين» عادة بـ «البرهان» كما نقرأ في كتب التاريخ التي ذكرت تاريخ وفاته دون ذكر مكانها.

وأنجب «البرهان» ستة أولاد أصغرهم «جنيد» الجد المباشر لـ «الشاه إسماعيل الصفوي» بن «حيدر». (والشاه إسماعيل هو الذي دافع الأتراك وسلطانهم سليم عن بلاد الشرق من «آذربيجان» حتى «خُراسان» في حروب مشهورة وحالف السلطان «قانصوه الغوري» في مناهضة الترك. وهو رأس الأسرة الصفوية المالكة في إيران والعراق).

وأقعد المرض «البرهان» عن زعامة الصفويين التي قام بها «جنيد» أصغر أبنائه. و «جنيد» هذا هو الثائر على الأتراك وصاحب معركة «جبل موسى» معهم قرب مدينة «أنطاكية» الثغر العربي الشمالي لبلاد الشام، وقد كان الأتراك يفترون عليه كذباً بأنه مخالف للجماعة (ويقصدون أنفسهم والمذهب السني الذي اختاره السلطان سليم) شأن كل مستبد يشهر سلاح الدين في وجه الثائرين.

أما هو «البرهان» فقد هاجر إلى «رحبة مالك بن طوق» على الفرات، ومنها إلى «البيرة» (التي سمّاها الأتراك بعد ضمها إلى تركية: «بيرجك») على الفرات أيضاً، فلم يطب له المقام فيها كذلك فهجرها إلى «حلب» التي كانت قبلة أنظار من سبقه من العلماء المشارقة والصوفيين من أمثال «النسيمي» و «السهروردي» و «الهروي» ومن آل البيت كـ «آل هاشم» كتبة «أبي العلاء المعري» و «بني العجمي» و «بني العديم» و «بني زهرة».

وقد توفي «إبراهيم» في حلب مخلّفاً زوجة من «بني زهرة» رؤساء حلب يومئذٍ، وابناً له منها هو «محمد». وكانت وفاته سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م. ودفن في مقابر «بني زهرة» في سفح جبل النحاس بجوار «مشهد الحسين» بحلب.

وشبّ الولد على طريقة آبائه، ممتهناً صناعة الفَلَك وعِلْم الكواكب أسوة بهم واشتهر بلقب «الكواكبي». وهناك من يزعم أن هذا اللقب قد ابتدأ به.

وينقل «الطباخ» في «إعلام النبلاء» عن «الشيخ أحمد العلواني» في ترجمته لـ «محمد أبي يحيى الكواكبي» قوله: «محمد الذي جدّه الكواكبي». وبالفعل فإن أسرة بإيران اليوم لا تزال تحمل لقب المهنة هذا. ومثلها بالعراق والأندلس. ولقد أخطأ «سامي الدهان» في كتابه «عبد الرحمن الكواكبي» في قوله: «. . . عرف بالكواكبي لاتصال أحد أسلافه بآل الكواكبي من جهة النساء المعروفين عندنا بعراقة النسب». ذلك لأن أيّاً من جدّاته لم تحمل لقب «الكواكبي». والقائل (الدكتور الدهان) لم يكن أيام أسلاف الكواكبي، ولا جميع الصفويين حملوا هذا اللقب على علم المؤرخين في بداية اشتهار «صفي الدين» الذي تنتسب إليه الأسرة أو الفرعين: «الصفوي» و «الكواكبي» وإنّما هو لقب مهنة عرفه العرب وأطلقوه على كل من تعاطى علم الكواكب (لا التوقيت) من أمثال «ابن سهل الكواكبي الأندلسي قاضي غرناطة».

اشترى «محمد أبو يحيى الكواكبي» داراً في حي «جلوم الصغرى» إلى جانب مسجد صغير يعرف باسم «مسجد ضبيان» وما لبث أن أضاف إليه مساحات واسعة وابتنى جامعاً كبيراً راح يدرّس فيه العلوم الدينية والفقهية واللغة والتفسير، فاشتهر أمره، فلما توفي دفن في جامِعِهِ الذي صار يُدْفَنُ فيه أفراد أسرته من عقبه حتى العشرينات من هذا القرن العشرين، (وآخرهم هو عمي المرحوم «أحمد نعمان»). وكانت وفاة «أبي يحيى» سنة ٨٩٧هـ ـ ١٤٩١م أما ولادته فكانت بين ٨٣٠ـ٨٥١هـ/ ١٤٢٧ـ١٤٤٧م حصراً.

أنجب «الشيخ محمد» هذا ابنه «يحيى». ومنه: «أحمد»، ومنه: «الولي بالله محمد»، ومنه: «أحمد» (٩٥٥ـ١٠٢٣هـ/ ١٥٤٨ـ١٦١٤م) مفتي حلب وأخواه «عبد الله» و «محمد». ودفن «أحمد» هذا في مقبرة الصالحين لسبب لا نعرفه. ومنه: «العارف بالله الشيخ محمد» (١٠٦٣هـ/١٦٥٣م)، ومنه: «أحمد» المتوفى سنة ١٠٥٤هـ ـ ١٦٤٤م قبل أبيه. وهو جدُّ جميع فروع آل الكواكبي في حلب واستنبول وبغداد ومن امتهن منهم صنعة التوقيت ولا يزال يُعْرَفُ بها حتى الآن. ومنه: «محمد» نقيب الأشراف قاضي

الآستانة ودفينها (١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)، ومنه: «عبد الرحمن»، ومنه: «المؤقت أحمد» الذي غلب عليه لقب «المؤقت»، ومنه: «المؤقت محمد»، ومنه: «عبد الرحمن»، ومنه «محمد مسعود»، ومنه «البهائي أحمد» (١٢٤٥-١٣٠١هـ/ ١٨٢٩-١٨٨٢م)، ومنه «الشيخ عبد الرحمن» وأخوه «الشيخ محمد مسعود». و «عبد الرحمن» هذا هو جدي لوالدي «فاضل الكواكبي».

فجميع أسرة الكواكبي في حلب وبغداد والآستانة هم من سلالة «محمد أبي يحيى الكواكبي الصفوي الأردبيلي».

على أن بعضهم كان قد امتهن مهنة التوقيت كما ذكرنا فعرف بـ «المؤقّت» وهو «أحمد». ومنه: ابنه «المؤقت محمد» الذي استمرت صنعته في أحد ولديه: «المؤقت أحمد» جدّ الأسرة التي لا تزال تحمل لقب «المؤقت».

(هذا اللقب الذي تحمله أُسَرٌ أخرى بحلب امتهن آباؤها التوقيت من غير أسرة الكواكبي).

وأمّا ابنه الثاني «عبد الرحمن» فلم يمتهن صنعة أبيه وبقيت نسبة «الكواكبي» مقتصرة عليه. وهو أبو جد «عبد الرحمن الكواكبي» صاحب السيرة هذه.

* * *

أما نسب الأسرة الصفوية من آباء «صفي الدين إسحق» كما أثبته المؤرخون سالفوا الذكر وسواهم، فقد أثبت فيه أنه ابن «أمين الدين جبريل» (زوج الأميرة «دولتي» بنت «كمال الدين عربشاه») ابن «المقتدي صالح» بن «قطب الدين أبي بكر» بن «أحمد حيدر» بن «صلاح الدين الرشيد» بن «محمد الحافظ» بن «عوض الخوّاص» بن «فيروز شاه البخاري» بن «شرف شاه» بن «محمد المهدي» بن «بدر الدين الحسن شرف شاه» بن «أبي القاسم محمد» بن «ثابت» بن «الحسين» بن «أحمد» بن «الأمير داود» بن «علي» بن «الإمام موسى الثاني» بن «الإمام إبراهيم المرتضى» بن «الإمام موسى الكاظم» بن «الإمام جعفر الصادق» بن «الإمام زين العابدين علي» بن «السبط الشهيد الحسين» بن «علي بن أبي طالب» كرّم الله وجهه.

على أن المؤرِخَين «ابن بزاز» و «سعد الدين أرغون» يثبتان أن «أبا القاسم محمداً» (والد الحسن شرفشاه) هو ابن «إبراهيم» بن «جعفر» بن «محمد» بن «إسماعيل» بن «محمد» بن «أحمد العربي» بن «محمد القاسم» بن «أبي القاسم حمزة» بن «الإمام موسى الكاظم».

إلاّ أن ما أثبته «ابن الحنبلي» وسواه من الوثائق التي لدينا يشير إلى النمط الأول في النسب بين «أبي القاسم محمد» وبين «الإمام موسى الكاظم».

* * *

ذلك هو نسب الأسرة التي منها «عبد الرحمن الكواكبي». فهي - كما هو ثابت - ليست إيرانية ولا تركية ولا كرديّة ولا سواها من مِلَلٍ غير عربية. فلو كانت تركية لما حقد «الشاه إسماعيل الصفوي» ولا «جنيد الصفوي» ولا «عبد الرحمن الكواكبي» على الترك بِدْءاً من المُغل. ولو كانت إيرانية لما انفصل «الشاه إسماعيل الصفوي» عن الإيرانيين مؤكداً عدم انتسابه إلى ملّتهم وعلى تأكيده بأنه عربي ومن آل البيت، رغم كونه ملك العجم. وهو يعلم علم اليقين أن عرشه - لو كان هو فارسياً - لتمتع هناك بمجد ليس للعرب أن يتمتعوا به، بل كان أكثر عظمةً من الناحية التاريخية.

ومن مظاهر ضعف بعض المؤرخين أنهم قرأوا أو سمعوا أن جدي «عبد الرحمن» بعثه أبوه إلى خالته في «أنطاكية» لتقوم على تنشئته بعد وفاة أمه، فاحتضنته وثقفته فاستنتجوا أنها تركية وبالتالي تكون أمه تركية، على اعتبار أن «أنطاكية» الآن في تركية، ولم يلتفتوا إلى أن «أنطاكية» و «الإسكندرونة» بَلَدان عربيان إغتصبهما الأتراك مع سائر منطقة «اللواء» بمؤامرة مع الفرنسيين سنة ١٩٣٦ تطبيقاً لاتفاقية «سايكس - بيكو» المشؤومة التي قسّم بها الفرنسيون والإنكليز وحدهم، سرّاً، بلاد العرب، كما لم يلتفتوا إلى أن خالته وأمه من «آل النقيب» بأنطاكية، وجدهم «أبو بكر النقيب» نقيب الأشراف، والنقيب لا يكون إلاّ عربياً ومن آل البيت.

وما هي إلاّ محاولات صهيونية يتدبّرها «إيلي خيضوري» وزوجته «سيلڤيا حاييم» اليهوديين ليثبتا أن انتفاضة «الكواكبي» لم تكن بداعي القومية العربية وإنما هي إسلامية فحسب.

ولئن كان بعضٌ آخر من الكتبة قد قادته معرفته الجغرافية لموقع «آذربيجان» و «إيران» و «أردبيل» بالذات، إلى الظنّ أن أصل الأسرة كردي أو عجمي أو تركي، فما ذلك إلاّ لأن هؤلاء لم يدركوا أن سيلاً ودفقاً عظيماً من العرب قد تدفق على تلك النواحي في الماضي البعيد ممن ذكرنا بعضهم آنفاً. فانتشار الإسلام في تلك الربوع قد أتاح للعرب الاختلاط بالعجم فتحاً أو هجرة واسعة، كما أتاح لأهل تلك النواحي

الهجرة إلى الوطن العربي. ولا يستبعد أن نسمع من أمثال هؤلاء يوماً ما أن «آل اليافي»، الذين هم بين ظهرانينا الآن، من أصل إسرائيلي، لمجرد أن «يافا» أصبحت في الخارطة التي يعتمدونها في «إسرائيل» الآن.

وعلى هذا فإن أفراد أسرة «محمد الكواكبي أبي يحيى» وأسرة «بني العديم» وأسرة «بني زهرة» وأسرة «العجمي» في حلب إنما هي أسر مهاجرة مباشرة من الحجاز أو عائدة من مهجر تالٍ إلى بلدة عربية. ولم يبقَ من هذه الأسر المهاجرة إلى حلب إلاّ أسرة «بني الكواكبي» التي تنتسب من جهة النساء إلى «بني زهرة».

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

أسرة أبيه

(٣)

وُلِدَ «عبد الرحمن الكواكبي»، كما هو مدوّن بخط يده في دفتر صغير جمع فيه تاريخ أفراد الأسرة ويحتفظ به ابن عمي «الدكتور مرتضى الكواكبي» وكما هو مدوّن بخط والده «البهاء أحمد» على إفريز نافذة غرفة ولادته في دار أبيه وأجداده بحي «الجلوم الصغرى» بحلب، مما قرأته وأثبتته المؤرخة الحلبية «عائشة الدباغ»، وكذلك الكاتبة الأندنوسية «نور ليلى عدنان» التي التقطت صورة شمسية لهذا التاريخ ـ وهو في ٢٣ شوال ١٢٧١هـ التاسع من تموز ١٨٥٥م ـ، من أم عربية هي «الشريفة عفيفة بنت مسعود النقيب». و «آل النقيب» في «أنطاكية» هم أحفاد النقيب «أبي بكر» (المنتقلين من «حلب» إلى «أنطاكية»)، ولا يزالون فيها يمثلون عروبة أنطاكية وسائر «لواء الإسكندرونة» المغتصب من سورية إلى تركية.

وأبوه «بهاء الدين أحمد» (١٢٤٥ـ١٣٠٠هـ/ ١٨٢٩ـ١٨٨٣م) المفتي والمدرّس في «المدرسة الكواكبية» ابن «الشيخ محمد مسعود الكواكبي»، أنجب أربعة أولاد: ذَكَرَيْن هما: «عبد الرحمن» و«مسعود»، وأُنثيين هما: «فاطمة» و«أسماء».

وقد ترجم لـ «الشيخ أحمد» صاحب «الأعلام» فقال:

[تلقى العلوم النقلية والعقلية على أشياخ عصره في الشهباء، منهم «الشيخ شريف الرزاز و «الشيخ عثمان الكردي» المدرس في المدرسة العثمانية، و «الشيخ حسين البالي» الذي قَدِمَ من «غزّة» واشتهر بـ «الغزي». وأخذ الطريقة الشاذلية عن «الشيخ بكري البلباني»[1]. وكان شديد الصحبة لـ «الشيخ أبي بكر الهلالي» يمضي معظم أوقات

(١) اعتقد أن فعل «أخذ» يعود إلى «الشيخ الغزي» لأن «أحمد الكواكبي» لم يكن يمارس الطريقة الشاذلية.

فراغه معه في الزاوية الهلالية. وأقرأ في «المدرسة الكواكبية»[2] و «المدرسة الشرفية»[3] وفي الجامع الأموي منذ وجهت إليه جهة التدريس فيه وذلك سنة ثلاث وثمانين ومايتين. واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك واشتغل بأمانة الفتوى مدة، وعُيِّن عضواً في مجلس إدارة الولاية.... وكان رقيق الحاشية ظريف المحاضرة لا يملُّ منه جليسه، حسن الخلق جداً، وربما أوقفه ذو سؤال زمناً غير يسير وهو يستمع له ولا ينصرف حتى يكون السائل هو المنصرف. وكان وقوراً مهاباً قنوعاً متصلباً في دينه وقّافاً عند الحق. يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب. وحدث مرة أن انحلت نيابة القضاء في حلب وتأخر قدوم النائب[4]، فأراد الوالي إذ ذاك أن لا تتراكم الأشغال في المحكمة الشرعية، فكلّف رئيس الكُتَّاب أن يتولى القضاء وكالة فقال له: لا يجوز توكيل الوالي ولا ينفذ قضاء من يوكِّله، فقال له: أنا وكيل الخليفة فلي أن أوكّل، فأبى عليه القبول، فتكدَّر منه وأخرجه من عنده. ثمّ إنه أراد تنفيذ مقصده فكلّف المترجم إلى الوكالة، فأجابه إلى ذلك، فسُرَّ جداً وكتب له في الحال منشوراً بتوكيله إياه في القضاء، فذهب إلى المحكمة الشرعية، فصار الناس يتطلعون إلى صنيعه كيف يوفق بين أمر الوالي والحكم الشرعي، فكان يسمع للخصمين ويضبط مقالهما ثم يشير عليهما بالصلح ويريهما أحسن وجه للاتفاق ولا يزال يعظهما بالموعظة الحسنة حتى يتصالحا فيكتب

(٢) لا تزال «المدرسة الكواكبية» قائمة حتى الآن بجوار «جامع أبي يحيى الكواكبي» خالية إلاّ من المقاعد الأثرية التي يكاد يأكلها «سوس الخشب» وقد تداعت بعض حجارتها وغرفتها الخارجية. أما كتبها فقد سُرِقَ معظمها من قبل المتولي على وقفها، من خارج الأسرة الكواكبية، بعد وفاة «البهائي أحمد» والد «عبد الرحمن» الذي كان يقاسي الاضطهاد من الولاة آنئذ وهو في مقتبل العمر. وهي من بناء أحمد بن أبي السعود الكواكبي المتوفى سنة ١١٩٧هـ ١٧٨٣م.

(٣) «المدرسة الشرقية» مدرسة أثرية في مدخل «سوق استنبول» أحد مداخل السوق القديمة، بنيت في القرن السادس الهجري، ثاني مدرسة أنشئت بحلب بعد «الزجّاجية»، هدمت منها أجزاء مهمة مديرية الأوقاف وحولتها إلى دكاكين بعد أن صارت «المكتبة الوقفية» ونقل إليها ما تبقى من مخطوطات «المدرسة الكوكبية» و «المدرسة الأحمدية» وسائر الزوايا والمكتبات المندثرة في حلب حتى غدت من أعاظم مجموعات المخطوطات النادرة، وقد صُنِّفت بفهرست كان منشوراً في سائر المراكز الثقافية بالعالم. وقد اندثرت المكتبة الوقفية أخيراً في الثمانينات من هذا القرن بعد نقل محتوياتها إلى «مكتبة الأسد» في دمشق.

(٤) نائب المحكمة الشرعية هو الذي كان يقوم بمهمة القضاء الفعلي وليس القاضي الذي قد يكون أميّاً ومن المرتزقة الذين يشترون المنصب بجعالة للسلطان. ولهذا نجد في معجم الصكوك القضائية العثمانية أنها معقودة باسم نائب المحكمة الشرعية.

بينهما صكّاً وقد حصل المطلوب من القضاء. وإذا أبى عليه خصمان عن المصالحة قال لهما: آتحكّماني بينكما؟ فيحكّمانه، فيكتب صكّاً بتحكيمهما ثمّ يحكم بينهما ويؤخر تسليم صكّ الحكم إلى حضور النائب. ثم لمّا حضر النائب أمضى كل ما تمّ من قبل المترجم وختم صكوكه. وقد اكتسب شهرة عظيمة بهذا الصنيع فكان من بعد ذلك وقفاً على الإصلاح بين الناس، وربما حضر مجلساً للإصلاح بين خصمين فوجد الخصم الذي دعاه غير محق، فكان لا يألو جهداً في نصحه وإرجاعه إلى طريق الحق، وإنما كان موفقاً في ذلك لأنه إنما كان يقصد وجه الله تعالى. وكان متولياً على جامع جده أبي يحيى وخطيباً وإماماً فيه. وكانت وفاته في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاثماية وألف، ودفن في جامع جدّه رحمه الله، وخلّف ولدين أحدهما «السيد الشيخ عبد الرحمن أفندي» المشهور... والثاني صديقنا الفاضل الأديب «السيد الشيخ مسعود أفندي» من أعضاء «مجلس المبعوثان» العثماني سابقاً والعضو في محكمة التمييز بدمشق الآن.].

توفيت زوجة «البهاء أحمد» «عفيفة آل النقيب» سنة ١٢٧٨هـ ولم تكن قد مضت على زواجهما إلاّ سبعة أعوام، تاركة له بِكْرَهما «عبد الرحمن» الذي كان في السادسة من عمره. فلم يجد الأب خيراً من خالته «الشريفة صفية آل النقيب» حاضناً ومربياً له. وهي من نيّرات عصرها علماً وثقافة. فاحتضنته وأشرفت على تنشئته في بيتها لثلاث سنوات. كانت تُلْبِسُه اللباس العربي (العباءة المطرزة والكوفية والعقال منسوجة كلها من حرير «أنطاكية»[٥]. وفي خلال سنوات الحضانة هذه كان الصبي يتنقل بين «حلب» و «أنطاكية» لزيارة أهل أبيه، لقرب المسافة (٩٠كم) التي كانوا يقطعونها بعربات تجرها الخيول ويسمونها يومئذ «تختروان». حتى إذا انقضت سنوات الحضانة عاد إلى حلب ليمكث فيها ويقرأ على الشيخ «طاهر الكلزي»، بعد أن تعلّم القراءة والكتابة، فأتمّ قراءة القرآن، ليعود بعد ذلك إلى خالته «الشريفة صفية» لتنمّي علومه الأخرى على يد الأستاذ «نجيب النقيب» (وهو الذي كان ـ بمحض الصدفة ـ أستاذاً للخديوي عباس الذي لجأ إليه الكواكبي أول أمره!).

وعلى سبيل الظن، فإنني أعتقد أن والده «البهائي أحمد»، الذي أراد الزواج بعد

(٥) وكانت المنسوجات الحريرية الأنطاكية من أشهر المنسوجات في الأمبراطورية العثمانية. ولا أزال أحتفظ بعباءته وعقاله بين مخلفات جدي أهدتنيهما المرحومة عمتي «عفيفة».

وفاة زوجته أم عبد الرحمن، لم يشأ أن يبقي ولده عبد الرحمن دون إشراف فعلي من أم منصرفة إليه، فآثر ـ وهو مزمع على الزواج ـ أن يبقيه عند خالته في «أنطاكية» ريثما يخبر ـ هو ـ أخلاق زوجته الجديدة التي أنجبت له في نهاية السنوات الثلاث ابنه الثاني «مسعوداً» (في ٣٠ شعبان ١٢٨١هـ ـ ٢٧ كانون الأول ١٨٦٥م). حتى إذا اطمأن على قصده استدعاه ليعود إلى حلب فترعاه الأم الجديدة مع طفلها في تلك الفترة. ثم أعاده إلى خالته بعد أن استدّ عوده ليشرف على تعليمه وتثقيفه «الأستاذ نجيب النقيب» سالف الذكر، محضّراً إياه للدراسة العليا في «المدرسة الكواكبية» بحلب التي كان يشرف عليها ويدرّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء. وقد استفاد من كنوز المكتبة الكواكبية التي تكدست فيها الكتب من مخطوطات قديمة وحديثة ومطبوعات أول عهد الطباعة.

أما أخوه «مسعود» الذي لم يكن قد أتمّ الثالثة من عمره حينما توفي أبوهما «أحمد» فقد تربى في رعاية أمه وأخيه «عبد الرحمن».

وهكذا نرى أن «عبد الرحمن الكواكبي» ولد من أم عربية من «آل النقيب» وهو سبط نقيب الأشراف «أبي بكر النقيب» المنتسب هو أيضاً إلى «الشريف أبي محمد إبراهيم» ممدوح «أبي العلاء المعري» المهاجر من «حرّان» إلى «حلب» سنة (٣٦٣ـ٤٥٠هـ/ ٩٧٣ـ١٠٥٨م)، ونسبه إلى آل البيت معروف. و «أبو بكر النقيب» دفين مقبرة «الصالحين» «بحلب»، ومذكور بتاريخ حلب.

أما العَجَب العُجاب في أن يكتب البعض، مثل الأخ «محمد كامل ضاهر» في كتابه عن «الإسلام وفكرة العلمنة» (من منشورات دار البيروني في بيروت سنة ١٩٩٣) أن «الكواكبي» وُلِدَ في حلب من عائلة كردية تنتسب إلى النبي «صلعم»!!! فإذا كان يقصد بـ «العائلة» الأم فقد أخطأ لأن أمه عربية قرشية من آل البيت، وإن كان يقصد بـ «العائلة» (وهو تعبير خاطئ): الأسرة فهو قد أخطأ أيضاً إذ نعلم أن الصفويين أسرة أجداده إنما هم أولاد المهاجر «إبراهيم المرتضى» حفيد «الإمام علي» كرم الله وجهه، ومن يشك في عروبتهم؟ ولا يزال ضريح أخيه «علي الرضى»، المهاجر الآخر، بمدينة «مشهد» بـ «إيران». والأغرب من ذلك أن الأستاذ «ضاهر» قد أشار إلى أن «عائلته» تنتسب إلى النبي «محمد» «صلعم». فكيف تكون أسرة النبي كردية؟ أم أن «محمداً» كان كردي الأصل كما يستنتج من كلامه؟

ولست في معرض النكران أو الاستنكار لأن يكون الرسول الكريم كردياً أو أن تكون أمه كردية أو أن يكون الأكراد من مستحقي هذا الشرف الرفيع، إذ لا فرق في الإسلام بين عربي وعجمي وكردي، وإنما هي حقيقة تاريخية، ولولا صحة الانتساب إلى العرب دون سواهم لما تمسّك الصفويون ـ وأخص منهم «الشاه إسماعيل الصفوي» ـ بعروبتهم وانتسابهم إلى آل البيت رغم ما كان يكلفهم هذا الإنتساب من تباعد الشقة فيما بينهم وبين الإيرانيين الذي حكمهم «الشاه إسماعيل» هذا ومن بعده من أسرته ردحاً من الزمن، تلك الشقّة التي لم يرضَ عنها هؤلاء إلاَّ رضوخاً لمبدأ الإسلام وانضواء تحت لواء رجل من آل البيت.

ومن مثل الكاتب «الضاهر» بعض الكتبة الشباب ممن قرأ عن مخطىء سابق أو عمن حقق عن مدينة «أنطاكية» فوجدها الآن ـ في الأطالس غير العربية ـ ضمن الحدود التركية ـ وهو لا يعرف تاريخ سورية.

عبد الرحمن الكواكبي

الفتى والشاب: نضاله ومآسيه

(٤)

الدّاء مدّ الرقاب للسلاسل، والدواء الشموخ عن الذل.

الدّاء وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء ربطهم بالقيود الثِّقال.

الدّاء التعالي على الناس باطلاً، والدواء تذليل المتكبرين.

الكواكبي

الكواكبي: الفتى والشاب: نضاله ومآسيه

بعد أن تابع «عبد الرحمن الكواكبي» دراسته في «المدرسة الكواكبية»، راح يثقّف نفسه بمطالعة الكتب من مختلف المصادر، والأخص منها ما كان مترجماً إلى التركية أو الفارسية، حتى الجرائد التي كانت تصل إليه بمختلف الوسائل. واشتهر قلمه بين الخاصّة والعامة، فكُلِّفَ من قِبَل الوالي بتحرير الجريدة الرسمية للولاية وهي «فرات» من سنة ١٢٩٢ حتى ١٣٠٠هـ، إذ استلمها بعده «الشيخ كامل الغزي» في هذه السنة (على ما جاء في تاريخه «نهر الذهب»). في حين أثبتت فيه ترجمته الرسمية أنه تركها عام ١٢٩٧هـ. وأعتقد أن تاريخ الترجمة الرسمية هو الأصح بسبب كون وضعه مع السلطة أضحى سيئاً حتى أنه اضطر إلى استبدال صحيفته الحرة «الشهباء» من صحيفة الحكومة سنة ١٢٩٤هـ. فالمعقول أن تكون خدمته في «فرات» سنتين لا ثمانية! ذلك أنه وجد ضيقاً بتحديد حريته باختيار مقالاته وسعياً من آخرين لإزالته عن مهمته لعدم انسجام قلمه مع رغبة السلطة وعدم كيل المديح لها جزافاً، وهو الذي كان يرغب في تنوير أفكار العامة بالأخبار الكاملة، فرأى أن يترك هذا العمل المرؤوس إلى عمل حرّ، فَيُنْشِىءُ صحيفة يكتب فيها ما يشاء.

وفي عام ١٢٩٤هـ يوم الخميس ٢٧ ربيع الثاني صدر أول عدد من جريدة «الشهباء» مؤرخاً بالهجري والميلادي على أنه في ٢٨ نيسان و١٠ أيار ١٨٧٧م[1]. وهي

(١) أما بالتوقيت المصري ـ كما يدلّ عليه مؤلف الدكتور عمارة في كتاب «التوفيقات الإلهية» الذي حققه، فإن الخميس هو ١١ أيار (مايو) على اعتبار أن أول ربيع الثاني هو ١٥ نيسان. وأما تاريخ ٢٨ نيسان فهو بالسنة الشرقية التي ينقص شهرها ١٣ يوماً عن الشهر الغربي. ولا أعرف سبب هذا الاختلاف!!

الصحيفة التي استعار لها ـ ضمانة لحصوله على ترخيصها ـ اسم السيّد «هاشم العطّار» كصاحب رخصة. أما محررها فقد كان هو وحده. وكان عمره يومئذٍ في الثانية والعشرين.

كان لصدور الشهباء صدى واسعاً في سائر أرجاء الوطن العربي، وراحت صحف أخرى في بلاد أخرى تعيد نشر مقالات «الكواكبي» فيها مثل جريدة «الجوائب» لـ «أحمد فارس الشدياق».

ولمّا صار الناس يجهرون بمقالاته وعباراته النقدية وتتداولها ألسنتهم، أدرك والي حلب «قبرصلي كامل باشا» مدى الخطر على السلطنة الناجم عن منشورات هذه الجريدة التي لم يكن قد صدر منها سوى ستة عشر عدداً، تعطّلت خلالها ثلاث مرّات، فأصدر أمراً بإغلاقها وسحب رخصتها! وكان هذا آخر أمر بالإغلاق النهائي.

وقد تحدّث هو نفسه إلى محرر جريدة «القاهرة» (العدد الأول ٣ نيسان/ أبريل ١٩٠٢) عن ظروف إصداره «الشهباء» بما نصه:

[علمتُ أن الحكومة تخاف من القلم خوفها من النار، ولا تعطي إمتيازاً لجريدة لمن تعتقد أنه على بيّنة من أمره ووتيرة من عمله. فاتفقت مع «الحاج هاشم الخرّاط» لبساطته وسذاجته على أن يطلب هو الإمتياز وأستلم أنا التحرير. وما مضى زمن على طلب الرجل المشار إليه إلاّ وصدرت الإرادة السنية بالسماح له بإنشاء الجريدة، ممّا لا يمكن أن أحصل عليه أنا ولو أنفقت كل ما أملك. ولكننا لم نتوفق في إصدار «الشهباء» بأكثر من ستة عشر عدداً في خلال ستة أشهر لأننا ما كنّا نصدر بضعة أعداد إلاّ وتصدر الأوامر بإيقافنا وتغريمنا شيئاً من المال. فرأيت أن الهدى بالعدول عن العمل، فتركنا «الشهباء» آسفين بعد أن تكبدنا من الخسائر الشيء الكثير].

أما صاحب الرخصة الذي جاء اسمه في «الشهباء»: «هاشم العطار» فإن كامل إسمه هو «هاشم الخرّاط العطّار الحلو» كما تعرف أسرته الآن بحلب.

لم يَفُتّ ذلك في عضد «الكواكبي» وإنما كان حافزاً له على متابعة الجهاد الذي بدأه بلسانه ثم بقلمه، فعمد إلى إصدار جريدة أخرى أسماها «إعتدال». صدر العدد الأول منها في ٥ شعبان ١٢٩٦هـ الموافق ٢٥ تموز ١٨٧٩م[٢]، وقد كتب في افتتاحيتها

---

(٢) وفي مؤلف الدكتور عمارة المذكور أيضاً: ٥ شعبان يوافق ٢٥ تموز فعلاً ولكنه يوم الجمعة، =

ما يشير إلى أنها ستسير على منوال «الشهباء»، أو كما كتب هو: «هي هي»! وكانت لها نسختان: عربية وتركية. ولم يكن حظ هذه الجريدة غير حظ سابقتها «الشهباء» من حيث رعاية السلطة لها إذ لم تلبث أن عطّلتها أيضاً. وبتعطيلها أدرك «الكواكبي» أن السلطة له بالمرصاد، وأنه لن يحظى بحرية متابعة نشاطه الصحفي بصحيفة حرة أخرى في حلب.

ولقد اكْتُشِفَتْ جريدتاه في مكتبة جامعة «هالي» بـ «ألمانيا الديموقراطية» على يد ملحقها الثقافي السيد «فيغولد» الذي أخبر أخانا «هيثم الكواكبي» عن اكتشافه.

وكان منّا أن نَقَلْنا خبر هذا الاكتشاف إلى الصحافي الأديب «جان داية» فسارع هذا وفتّش في تلك المكتبة فعثر على تسعة أعداد من جريدة «الشهباء» وعلى العدد الأول من جريدة «اعتدال» فكان لاكتشافه أثر كبير ألا وهو كتابه: «صحافة الكواكبي». بينما كانت الصحافية العراقية «نور يعقوب نجار» قد كتبت عن «الكواكبي صحافياً» رسالة ماجستر في جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ دون أن يسعفها الحظ في الإطلاع على هذه الصحف، ولكنها أضافت إلى عملها بها كون «الكواكبي» قد نشر كثيراً من مقالاته في الصحف قبل وبعد هجرته إلى مصر.

ويشير «جان داية» إلى نماذجَ شتّى من مقالات «الكواكبي» في صحف «النحلة» (بنسختيها العربية والإنكليزية) و «الجنان» و «ثمرات الفنون» و «الجوائب» و «القاهرة» و «المؤيد» و «المنار». إذ كانت مقالاته تصل إلى بيروت والقاهرة ولندن. وأغلب ظني أننا سنكتشف اتصاله بصحيفة إيرانية. فلقد بلغ من اهتمام الإيرانيين بـ «عبد الرحمن الكواكبي» أنهم ترجموا كتبه إلى الإيرانية بُعَيْدَ وفاته. وفي نهاية هذا الكتاب صورة لجلد الترجمة الإيرانية ومقدمتها.

وكان من كتّاب ومحرري جريدته «الشهباء» الذين عرفناهم حتى الآن: «قسطاكي حمصي» و «جبرائيل دلال» و «أحمد وهبي» و «الحاج مصطفى الأنطاكي» و «أنطون قندلفت» (مطران السريان ببيروت وكان خورياً من حلب)، وسواهم ممن لم نكشف عنهم حتى الآن.

نقل «جان داية» بعضاً من مقالاته في جرائد «النجاح» و «الأهرام» و «المصباح»

= في حين نجد فيه أنه جاء في قمة الجريدة أنها تصدر يوم الأربعاء. ولعل مناسبات التعطيل سببت تغير التاريخ!

و «لسان العرب». ولعله سيتمكن ـ بعد اكتشافه سائر أعداد «الشهباء» و «اعتدال» ـ من اكتشاف سائر مقالاته في الجرائد المصرية: الأهرام، القاهرة، المؤيد، المنار.... إلخ.

وفي هذه الفترة من العقدين الأخيرين من القرن البارح التاسع عشر، وبعد أن تعطّلت صحيفتاه، إنكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعُيِّن عضواً فخرياً في لجنتيّ المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين. وفي سنة ١٨٨٦م ـ ١٣٠٣هـ صار مأموراً للإجراء. ثم اتخذ مكتباً في حي «الفرافرة» قريباً من بيته وسراي الحكومة عند «المدرسة العصرونية»(٣) يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات ولسائر أنواع الظلم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بتحرير الشكاوى ودلالتهم على طرق الإحتجاج، بخدمة مجانية دون مقابل، حتى اشتهر بلقب «أبي الضعفاء». وكان يُقْدِمُ ـ إذا لزم الأمر ـ على رفع الشكاوى إلى الآستانة باسمه الصريح أو باسم صاحب الحاجة والمظلمة، باستدعاء خطي أو ببرقية. وقد تمكن «جان داية» من العثور على برقيات «الكواكبي» من هذا القبيل، باللغة الفرنسية ـ باعتبارها اللغة الرسمية بالعرف الديبلوماسي ـ من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، أخيراً. ذلك أن القنصل البريطاني في استنبول كان قد حصل على صورها فترجمها إلى الفرنسية وبعث بها إلى وزارته. وفي نهاية هذا الكتاب نصُّ بعض البرقيات بالفرنسية وترجمتها إلى العربية. وفي إحدى هذه البرقيات شكا الظلمَ الذي أحاق به على يد «جميل باشا» والي حلب في (١٩ تموز ١٨٨٦ ـ ١٧ شوال ١٣٠٣هـ) حينما صادر الوالي بيته وأعطاه إلى عميل من خصومه، فوصف الوالي بأنه «طاغية حلب». وعقبها ببرقية أخرى يشكو فيها طغيان ذلك الوالي وإقدامه على طرد حرّاس مزرعته وإتلاف مزروعاتها ونهب محتوياتها التي كان يعتاش منها وأفراد أسرته. وفي برقية أخرى قال: «إن الإذلال قد جرى بحق من يعتبره الحلبيون من علمائها وخطبائها الدينيين». (ويقصد

---

(٣) المدرسة العصرونية: من أقدم المدارس في حلب، بناها «سبط إبن العجمي» بعد بنائه المدرسة الأولى بتاريخ حلب وهي التي كانت في «حي الزجّاجين» ثم اندثرت وبقيت مدرسته الثانية تلك حتى هدمتها مديرية أوقاف حلب في السبعينات من هذا القرن العشرين وأشادت مكانها بناءً بُرْجياً عظيماً قضى على النسيج المعماري الأثري للمنطقة المطلة على القلعة، ثم ألحقت بها «المدرسة المنصورية» المجاورة أيضاً لمكتب «الكواكبي».

إذلاله من قبل والي حلب حينما أمر بسوقه في الطريق إلى دار الحكومة مكبلاً بالأصفاد مرات عدة على مشهدٍ من أهل حلب).

ذلك أن طغيان والي حلب كان قد لاحقه بشدة عقب تعطيل جريدتيه. وكانت جريدة «المصباح» قد نشرت في ٢٩ آذار ١٨٨٣م (٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ) مقالاً عن حادثة مؤلمة جرت في حلب حينما قَدِمَ إليها «الشيخ عباس النجفي القرشي» مصحّح مطبعة «الجوائب» ونزل مريضاً في أحد الفنادق فعاده وتردد على رعايته كل من السادة «عبد الرحمن الكواكبي» و «جرجي كورنلي» و «ميخائيل الصقّال» و «الحاج خورشيد» واستمروا على رعايته حتى توفاه الله. فإذا ببعض أو أحد المأجورين يرتّب وشاية للوالي يزعم فيها أن المذكورين قد استولوا على ثروة «الشيخ عباس».

وتتابع «المصباح»: إن الحسود قد أرسل رسالة إلى جريدة الأهرام ضمّنها مطاعن ومذامّ بحق هؤلاء وإنهم أساءوا إلى الشيخ القرشي، وإن هذه الرسالة قد أحسنت إليهم من حيث كان صاحبها يريد الإساءة! وأشارت الجريدة إلى أن الأفاضل المذكورين قد أحالهم الوالي إلى المحكمة الإبتدائية وأن المحاكمة انتهت إلى إعلان براءتهم وكذب المؤامرة عليهم!

ومن جملة صور البرقيات التي عثر عليها «جان داية» في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية تلك التي أرسلها «الكواكبي» للآستانة على لسان السيد «أحمد الكيخيا» يشكو فيها تعرّضه وسواه من الوجهاء إلى اعتداء الوالي.

ومن جملة ما دافع به «الكواكبي» عن المظلومين أنه احتج على عدم قبول تطوّع بعض المسيحيين في الجيش العثماني إلاّ بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية.

ومن أشهر دفوعه عن المظلومين دفاعه عن المحامي «زيرون جقماقيان» الذي كان يتدرب على المحاماة في مكتبه ويدافع عن بني ملّته الأرمن الذين يضطهدهم الأتراك. فلما أدرك الوالي «جميل باشا» أن نشاط هذا المحامي وأفعاله إنما كانت بسبب تدرّبه في مكتب «الكواكبي» أمر بإعادته إلى بلده «مرعش». ولكن أستاذه أمره بمتابعة العمل في المحاماة هناك أيضاً فكان يأتي إلى حلب لمقابلة أستاذه. وعلم الوالي بذلك وبمخالفة المحامي أوامر إبعاده والإقامة الجبرية فراح يكيد له حتى ضاق هذا ذرعاً بالوالي فلقيه

وهو راكب عربته في حي «السليمية»[٤] عائداً إلى بيته فصعد إليه في العربة محتجاً صارخاً بصوت عال. وسمعت طلقات نارية ونزل الوالي من العربة ونادى بالناس: أن اقبضوا على هذا الأرمني فلقد أطلق عليّ النار، فقُبِضَ عليه وسِيقَ مقيّداً إلى السجن.

ومن الناس من يقول: إن هذا المحامي لم يطلق النار وإنّما كان يصرخ في وجه الوالي محتجاً وقد صعد درجة العربة فتوقف الحوذي وجرّه من العربة فأطلق الوالي عليه النار وهو هارب وراح يقول للناس: «إن المحامي إطلق النار عليّ وأراد قتلي». (وفي الصفحات التالية رواية «الغزّي» عن الحادثة).

وكوسيلة رابحة بيد الوالي «جميل باشا» للإيقاع بـ «الكواكبي» أستاذ هذا المحامي فقد اتهمه بالتحريض على قتله وأمر باعتقاله. إلاّ أن المحكمة لم تجد أي دليل يتصل بـ «الكواكبي» بل إنها لم تجد ما يثبت أن المحامي هو مطلق النار، ذلك لعدم ضبط مسدس معه. ومع ذلك فقد قضت بسجنه خمس عشرة سنة. ولكن الوالي الذي ضجّ لعدم صدور حكم إعدام بحق المحامي أمر بحجر المحامي في مستشفى للأمراض العقلية بدمشق على أساس أنه فاقد العقل، فنقل إلى دمشق وغاب أثره وجهل خبره منذ ذلك الوقت حتى اليوم. وقيل إنه مات بعد ثلاث سنوات في سجنه. وقد سألت الكثيرين من أهل «مرعش» الأرمن في حلب وفي «أرمينية» عنه فلم يعرف أحد شيئاً عنه لبعد الزمن عن الحادثة، ولأن ليس لهذا المحامي أسرة في حلب، وأهل مرعش تشتّتوا في المذبحة الكبرى وقضي على أحيائهم.

وأما «الكواكبي» فقد أُطلق سراحه بعد خروج أول مظاهرة سياسية نسائية في تاريخ البلاد من دار «أحمد الكيخيا» (والد السياسي السوري الراحل المرحوم رشدي الكيخيا)، بحي «الفرافرة» ضمنت زوجته وزوجة «الكواكبي» وزوجات معتقلين سياسيين آخرين مثل «محمود الشريتجي» و «حسام الدين القدسي» (أخي عبد القادر القدسي الذي كان يستخدم أبا الهدى الصيادي سائساً لأفراسه في إدلب ثم رفيقاً له في استنبول) و «نافع أفندي الجابري» (نافع باشا شيخ مجلس المبعوثان بعدئذ) و «نصري أفندي الأنطاكي» و «عابد بك الدري» و «أحمد بك الداغستاني» وسواهم.

---

(٤) مما سيلي تفصيله.

وقد وصف «كامل الغزّي»، المؤرخ، أحوال «الكواكبي» وهو معاصره ودائم الاتصال به، مع الولاة، في تأريخه سالف الإشارة، في مجلة «الحديث» لسنة ١٩٢٩ بما يلي بعض منه:

[حالة السيد عبد الرحمن مع جميل باشا:

في سنة ١٢٩٧ وُلّي «جميل باشا» بن «نامق باشا» شيخ وزراء الدولة العثمانية. وكان صاحب امتياز جريدة «الشهباء» المعطلة أمكنه أن يعتاض عنها بامتياز جريدة أخرى سماها «اعتدال» تصدر باللغتين العربية والتركية وقد فوض وظيفة تحريرها إلى صاحب الترجمة فكان نصيبها من عالم الظهور نصيب الجريدة الأولى إذ لم تلبث سوى بضعة أسابيع حتى فاجأها الوالي بالتعطيل وكان السبب الذي دعاه إلى تعطيلها هو عين السبب الذي دعا سلفه «كامل باشا» إلى تعطيل الجريدة الأولى.

توظيف السيد عبد الرحمن بوظيفة محررية المقالات:

ولما أحدثت الحكومة العثمانية مصلحة تسجيل المقاولات المعروفة باسم «نوتير» التي تعرف الآن باسم «كتابة العدل» اختارت جمعية العدلية المعروفة باسم «أنجمن العدلية» صاحب الترجمة أن يكون متولياً عليها فتم توليته عليها بالرغم من معاكسة الوالي وعرقلة تصديق تعيينه إليها في المراجع العليا فكان السيّد عبد الرحمن أول مستخدم بهذه الوظيفة في حلب فهو الذي أسس أعمالها ورتب سجلاتها وسطّر جداولها وسهّل فيها السلوك لمن يتولاها بعده.

وقد وقف له «جميل باشا» بالمرصاد يضغط عليه ويرقب حركاته وسكناته لما بلغه من جميع ما تسطره صحف الآستانة وبيروت في حقه من مقالات الطعن والتنديد مستمداً من قلم السيد عبد الرحمن فلم يتحمل السيد هذا الضغط وأبت نفسه أن يصلح شأنه مع الوالي ولو بالسكوت عن فضائحه فاستقال من هذه الوظيفة ووظيفة ترجمة مطبعة الولاية التي خلفتهُ فيها واعتاض عن استرزاقه منهما بمكتب فتحه وتصدى فيه لإفتاء أصحاب الدعاوى وتسطير اللوائح الإعتراضية وتحرير معروضات المتظلمين من الحكام المقدمة إلى المراجع العليا ومراجعة المحامين وإرشادهم فيما يُشْكِلُ عليهم من أحكام الأنظمة والقوانين.

على أن هذا المكتب جاء على رأس الوالي كضربة معمّية لأنه أصبح كدار ندوة يأوي إليها جميع أعدائه ومظلوميه فيدلهم السيد عبد الرحمن على الطرق التي يتوصلون بواسطتها إلى قهره والتخلص من ظلمه ويشجعهم على رفع شكاواهم منه إلى المراجع العليا وهو الذي يتولى لهم تحرير نسخ تلك الشكاوى المرسلة بالبرق أو مع البريد. وبذلك اتسع الخرق على الراقع ووقع الوالي في شر أعماله وجاءه من هذا المكتب ما لم يكن له بحسبان. وفي تلك الأثناء حدث بين «جميل باشا» وبين «المستر هندرسون» قنصل دولة إنكلترة بحلب نزاع عنيف على مسائل سياسية اشتد بسببها الأخذ والرد بينهما وطفق كل واحد منهما يكتب إلى مرجعه يستعدي خصمه عليه. وفي النهاية تم الاتفاق بين الباب العالي وبين سفارة الأنكليز على أن تنتدب السفارة أحد رجالها المدعو «طوريطر» لأن يسافر إلى حلب ويبحث تلك المسائل ويبين في نتيجة أبحاثه المُحِقّ من المحقوق. فحضر المندوب إلى حلب وباشر بحث المسألة سرّاً مستعيناً على استجلاء حقيقتها بصاحبنا السيد عبد الرحمن يجتمع معه خفية ويذاكره في أسباب هذا الخلاف. وبعد أن وقف المندوب على حقيقة الحالة في تلك القضايا عاد إلى استنبول وانتهى تمثيل هذه الرواية بعزل القنصل عن حلب. والحق يقال إن السيد عبد الرحمن كان في مذاكراته مع المندوب في قضية الخلاف الناجم بين الوالي والقنصل يتوخى الصدق ويجعل الحق كله مع الوالي وإن كان الوالي من أكبر أعدائه. غير أن سماسرته وجواسيسه كانوا يبلغونه عكس ذلك أي أنهم كانوا يفهمونه أن السيد كان في هذه القضية على الوالي لا له. فاشتدّ حنقه عليه وشرع يستعمل في تدميره وإهلاكه كل ما تصل إليه يد استبداده. وقد أحسّ بأنه يقصد السفر إلى أنطاكية ومنها إلى استنبول فمنعه عن قصده ووضع على مكتبه الجواسيس يرقبون الداخل إليه والخارج منه ويتعقبونه إذا خرج منه لا ينفكّون عنه أينما حل وحيثما سار.

وكأن بعض جواسيسه أعلمه أنني كنت أجتمع مع المندوب الانكليزي صحبة السيد عبد الرحمن فاغتاظ مني أيضاً وأوعز إلي بواسطة عارف بك رئيس كتاب مجلس إدارة الولاية بأن استقيل من وظيفة ترجمة مطبعة الولاية فاستقلت من هذه الوظيفة إتقاء شرّه وعزمت على السفر إلى أنطاكية لتحصيل دين كان لي عند أحد تجارها فأعلمه جواسيسه بعزمي فأمر باحضاري إليه ولمّا مَثَلْت بين يديه قال: أما اكتفيت أنت وصاحبك بما زورتماه علي عند المندوب والآن تريدا أن تذهبا إلى استنبول وتكملا تزويركما عند

سفارة الإنكليز؟ وحلف بالله على أنني إذا خرجت من حلب ليعيدني إليه وأنا مكسور الرجل. ثم قال: أخرج من أمامي قبل أن أوجعك. فخرجت من أمامه وأنا أرتجف فرقاً من شره. على أنني لم أحضر عند المندوب قط بل لا أعرف صورته ولم أجتمع مع السيد عبد الرحمن منذ شهر أو أكثر لأن الجواسيس كانت لا تنفكّ عني قيد لحظة أيضاً.

هذا وإن السيد عبد الرحمن ما زال الوالي يضيّق عليه الخناق حتى ضجر من تلك الحالة المضنكة فأغلق مكتبه ولزم منزله وانقطع عن أصحابه وأترابه ولكنه مع هذا عدّ انحباسه في منزله فرصة سانحة تمكنه من حصر جميع أوقاته بالبحث والتنقيب عن سيئات الوالي ومخازيه ينقلها إليه خصومه وأعداؤه الذين يزورون السيد في عتمات الليل ويطلعونه على تلك الأعمال الممقوتة. فكان السيد ينظم في فظائع الوالي اللوائح الحافلة المرسلة إلى المراجع العليا ويستخلص منها الرسائل البرقية التي ترسل إلى جماعة من التجار في الإسكندرونة واللاذقية وبيروت فيرسلونها إلى مراجعها ببرق جهاتهم لأن إرسالها ببرق حلب كان متعذراً لأن إدارة البرق فيها كانت تحت سيطرة الوالي وقد أوعز إليها بأن كل رسالة تمسّه يجب أن تحضرها إليه دون أن ترسلها إلى محلها.

كان يزور السيد سرّاً في بيته جماعة من وجهاء حلب وأعيانها الذين سطا عليهم الوالي ونكبهم في جاههم وأموالهم من جهة آل كتخدا الذين كان الوالي يضايقهم ويعرقل أعمالهم ويسلّط عليهم مزارعيهم في ضياعهم. ذلك لأنهم أبوا أن يدفعوا له شيئاً من تركة كبيرهم وزعيمهم المرحوم الحاج مصطفى آغا المتوفى في تلك الأثناء فقد طلب منهم بواسطة أحد سماسرته أن يُقَدّموا له من تركة مورِثِهم خمسة آلاف ذهب عثماني زاعماً أنه يقبلها منهم باسم إعانة تحويلات الاستقراض الداخلي فامتنعوا عن دفع هذا المبلغ لأنه أكثر بكثير من المبالغ التي يتقاضاها من أمثالهم. (وهكذا كان ديدن الوالي ومعاملته مع الورثة الذين يموت مورثهم المثري في أيام ولايته فكان لا ينفك عنهم إلاّ بأخذ شيء من تركة مورثهم يقبلها منهم هدية). ولما رآهم الوالي مصرّين على الامتناع عن دفع ما طلبه منهم شرع يبذل جهده في إهانتهم وإثارة مزارعيهم عليهم. ثم أمر بحبس أحد عظمائهم مع التضييق عليه فلم يرع ذلك بقية الورثة واستمروا مصرين على عدم إجابة طلبه وطفقوا يجتمعون مع الكواكبي في منزله سراً ويشكون له بؤسهم وحزنهم من تسلط ذلك الوالي الجائر في أحكامه فرفعوا قضيتهم إلى الباب العالي ومقام

السلطنة فورد الأمر بإطلاق سراح كبيرهم فأطلق. ثم انضم إليهم طائفة كبيرة من أعداء الوالي وهم: المرحوم حسام الدين أفندي القدسي أخو قدري أفندي الذي كان في ذلك الوقت كاتباً ثانياً في المابين السلطاني وهو من أحفاد محمد أفندي القدسي الذي رافق الوزير رضا باشا إلى مصر قائداً للحملة المجهزة من حلب لاسترجاع مصر لحكم الدولة العثمانية. وقد ذكره الجبرتي في تاريخه وأثنى عليه.

ومن تلك الطائفة المنضمة إلى آل الكتخدا نافع أفندي الجابري الذي عرف فيما بعد بنافع باشا والذي أغلق السلطان عبد الحميد «مجلس المبعوثان» المفتتح أول مرة لأجل كلمة قالها نافع أفندي وهي استكثاره رزق السلطان من بيت المال والذي أعطي لقب «شيخ المبعوثان» حينما فتح المجلس للمرة الثانية لأنه كان أَسَنّ جميع أعضائه.

ومنهم نصري أفندي الأنطاكي الحلبي وكان هو ونافع أفندي يُعَدّان من دهاة رجال حلب. ومنهم عابد بك الدري المدعي العام وهو أخو حقي باشا الذي كان متصرف لواء حلب. ومنهم أحمد بك الداغستاني وكان قائد مفرزة دير الزور، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.

كان هؤلاء الجماعة يوالون شكاواهم من الوالي إلى المقامات العالية في السلطنة العثمانية وكانت جميع الكتب والرسائل التي يرسلونها في هذا الصدد تركية العبارة محررة بقلم «السيد الفراتي» بلهجة تهتز لها عظماء الدولة وأكابر رجالها وتتأثر منها نفس ذلك السلطان القاهر الذي كان لا يهاب الملوك ولا يحسب لعظمتهم حساباً. (و «السيد الفراتي» هو لقب «الكواكبي»).

كان جميل باشا من الولاة المحبوبين عند السلطان عبد الحميد والمحتلين لديه منزلة عالية لا تأخذه في محبته لومة لائم. وذلك لما كان يقدمه جميل إلى المابين والبلاط السلطاني من الهدايا الوافرة والتحف الثمينة وكان السلطان يقابله على ذلك بالرتب العالية والأوسمة السامية. زد على ذلك صدق ولاء والده نامق باشا في خدمة السلطان وحرصه المفرط على حياته وحفظ سلطنته. غير أن السلطان رغم جميع هذه الوسائط «الحقة» اضطرته براعة صاحبنا السيد الفراتي إلى سماع شكوى الحلبيين من حضرة الوالي وألزمته النزول عند طلبهم منه إرسال حَكَمٍ إليهم ينظر في أحوالهم مع الوالي ويقف على حقيقة الظالم من المظلوم.

الحكم ووصوله إلى حلب:

وفي يوم الثلاثاء ثالث وعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٣هـ وصل الحكم إلى حلب وهو رجل معمّم رفيع الجناب عظيم القدر يسمى «صاحب بك» وهو رئيس دائرة المحاكمات في شورى الدولة وقد ارتقى بعد في وظائف الحكومة حتى صار شيخ الإسلام، وكان معه معاون المدعي العام في تمييز شورى الدولة وأحد كتّاب محكمة تمييز الحقوق في دائرة العدلية وكلهم من خيار الناس وأفاضل الموظفين، وبعد أن استراحوا من وعثاء سفرهم أياماً قليلة شرعوا بسماع شكاوى المتظلمين وتحقيق مضامين اللوائح المرفوعة إليهم من خصوم الوالي محررة بقلم «السيد الفارتي»، أقاموا على ذلك نحو شهرين وزيادة لكنهم لم يظهر لأعمالهم أثر ما.

قصد زيرون إغتيال الوالي:

في اليوم السادس من صفر الخير سنة ١٣٠٤هـ بينما كان الوالي متوجهاً من دار الحكومة إلى منزله في «جنينة الناقوس» قرب «العبّارة» وذلك في نحو الساعة الحادية عشرة ونصف مساء، إذ وثب عليه ـ وهو في ظاهر باب الفرج ـ رجل أرمني يدعى «زيرون جقماقجيان المرعشي» وصاح به بلسانه التركي بما معناه: «قف، كيف تتخلص مني؟» ثم أطلق عليه عيار مسدسه أولاً وثانياً وثالثاً فأخطأه الرصاص وكان قد هجم عليه ياور الوالي وجاويشه فقبضا عليه وأرسلاه إلى السجن.

أما السبب في هجوم هذا الرجل على الوالي فهو أنه كان يُعاني مهنة المحاماة في عدلية حلب وكان مشهوراً بالصدق والأمانة والمهارة في فن المحاماة فاتفق أنّ بعض من اغتصب الوالي أراضيهم وكّل زيرون في مخاصمته لاستخلاص الأرض التي اغتصبها منه فاغتاظ الوالي من زيرون لقبوله الوكالة ضده فأوعز إلى العدلية بأن تمنعه من مهنة وكالة الدعاوي في حلب فسافر إلى وطنه مرعش فأوعز الوالي إلى عدليتها بأن تمنعه من هذه المهنة فسافر إلى أنطاكية فكاتب الوالي حكومتها فمنعته أيضاً. ولمّا رأى هذا المسكين أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت ولم يبقَ له وجه يسترزق منه خولط في عقله وزينت له الماليخوليا أن يتعرض للوالي ويهدده بالقتل لعله يكفّ عنه ففعل ذلك ولكنه أخفق سعيه لأنه بعد أن حبس مدة في حلب نقل إلى دمشق وحكم عليه بالحبس مدة خمس عشرة سنة فمات في حبسه بعد ثلاث سنين من الحكم عليه.

ذيول هذه الحادثة:

ثم إن الوالي، بعد أن مرّت عليه هذه الحادثة في ذلك اليوم، توجه إلى منزله وأقبل عليه السماسرة والمتملّقون يهنئونه بالسلامة، وأمر بالقبض على السيد عبد الرحمن وباقي الأشخاص الذين قدَّمْنا ذكر أسمائهم وهم حسام الدين أفندي وعابدين بك ونافع أفندي ونصري أفندي وأحمد بك الداغستاني. وقد زعم أن أولئك الأشخاص هم الذين أغروا «زيرون» وحملوه على ما فعل فألقي القبض عليهم ليلاً وهم في منازلهم لم يبرحوا منها لأنهم كانوا على حين غفلة لم يبلغهم خبر الحادثة وهم براء مما عزاه الوالي إليهم، فأودعوا السجن وأمر الوالي بالتضييق عليهم وأن يوضع كل واحد منهم في حجرة على حدة وأن لا يدخل عليه أحد من ظاهر السجن ولا من داخله ولا من رفقائه ولا يمكّن من أداة كتابة ولا من أخذ خبر من ظاهر السجن لا كتابةً ولا شفاهاً. وكان خَدَمَةُ السجن يشقون رغيف الخبز المرسل إليهم من منازلهم خشية من أن يكون فيه ورقة، ويفتشون جميع ما دخل إليهم من طعام ولباس. وكان الوالي هو الفريق على عسكرية حلب، فأحضر من الثكنة عساكر نظامية أمرهم بأن يقف على كل حجرة من حجر المحبوسين المذكورين جنديان متأبطان سيفيهما معتقلان بنادقهما ـ.

بعد أن مضى على هؤلاء المحابيس بضعة عشر يوماً شاع أن الوالي عازم على إبعادهم إلى جهات «آلبستان» ولكنه كان ينتظر سفر «صاحب بك» ومبارحته حلب. واتصلت هذه الشائعة بصاحب بك فأشاع أنه عازم على مبارحة حلب. وبعد يومين توجه مساء إلى التكية المولوية على أن ينام فيها ليلته وفي الصباح يتوجه إلى جهة استنبول. ولما سمع الوالي خبر سفره ظنّه صحيحاً فاغتنم الفرص وأمر بإحضار دواب المكاريين ليركب عليها المحبوسين وينفيهم ليلاً. وحينئذ تحقق «صاحب بك» سوء نواياه فأظهر أنه عدل عن السفر، فتوقف الوالي عن نفي الجماعة، ولكنه بقي مصرّاً على حبسهم والتضييق عليهم.

جرت كل هذه الأمور والسيد «صاحب بك» ورفقاه ساكتون بحيث لم يكتبوا إلى مراجعهم في حق الوالي المشار إليه ولا كلمة واحدة.

نعم، إنهم لم يكتبوا في حقّه شيئاً، لا لشكّهم في صحة ما نسب إليه ولا لغفلتهم عمّا كان يجريه من المظالم والإستبداد بل لأنهم يعلمون علم اليقين أنه حبيب السلطان

وصفيّه وأن كلمة واحدة يكتبونها في تعدّيه وسوء أحواله إنما يغيظ السلطان ويؤدي إلى غضبه منهم. والظاهر أن سكوتهم عنه كانوا يقصدون به أيضاً استدراجه وجره إلى غاية تمهّد لهم الغدر إذا كتبوا في حقه فيأمنوا عندها من غضب السلطان عليهم.

نعم، إنه لمّا وصل في عتوّه وجبروته إلى ما وصل إليه من التضييق على أولاء الجماعة وقيام الضجة في البلدة من أجلهم رأوا أن الوقت قد حان لأن يقولوا فيه كلمتهم وأن الفرصة قد سنحت لأن ينبئوا المراجع بحدوث ما لم تؤمن مغبة السكوت عنه. فأبرق «صاحب بك» إلى مرجعه يقول: «أنا عازم على الشخوص إلى الآستانة لأنني لا أستطيع البقاء في بلدة لا يُعْرَفُ فيها نظام ولا قانون». وأبرق «محمد علي باشا» قائد الجندية النظامية إلى مقام المشيرية العسكرية يقول ما معناه: «إنني غير مسؤول عما إذا حدث في حلب ما يخلّ بالسلام لأنني لم يبق لي نفوذ على القوة العسكرية».

هاتان البرقيتان لهما من الخطورة ما لهما مع أنهما مجردتان عن ذكر الوالي خاليتان من اسمه تفادياً من غضب السلطان على مرسليهما المومأ إليهما.

لما اطلع السلطان على هاتين البرقيتين رأى أن الأمر قد أخذ بالتفاقم، وتطرق لواهمته أن «جميل باشا» يفكر بالخروج على الدولة وشقّ عصا الطاعة في وجهها. وفي الحال أصدر إرادته السَنيّة بأن يُنَحّى «جميل باشا» إلى ولاية الحجاز وأن يُبْرَق إلى «شاكر باشا» أحد الفرقاء في دمشق بأن يسافر إلى حلب على جناح السرعة ويتسلّم زمام العسكرية. فركب «شاكر باشا» من دمشق في اليوم الثامن من شهر ربيع الأول. وفي مساء اليوم الحادي عشر منه وصل إلى حلب فتسلّم زمام العسكرية، ثم نزل هو و «صاحب بك» إلى دار السجن وخلّيا سبيل المحبوسين وتلطفا بهم خصوصاً بصاحبنا «السيد الفراتي» المحبوب.

حالة السيد عبد الرحمن مع الوالي الجديد «عثمان باشا»:

لما صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بتحويل «جميل باشا» إلى ولاية الحجاز صدرت أيضاً بأن يحوّل والي الحجاز الوزير «عثمان باشا» إلى ولاية حلب فوصل إليها في اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٤هـ وهو المعروف باسم «طوبال عثمان باشا» لأنه كان مقعداً يُحْمَلُ من كرسيه إلى العربة ومن العربة إلى كرسيه، وهو الذي «دبّر» مدحت باشا لأنه بطل الدستور العثماني، دبّره بالطائف بإيعاز خفي من

السلطان إليه. ولذا كان السلطان يودّه وينهال عليه بالرتب والأوسمة ولا يسمع فيه لومة لائم بالرغم عمّا كان عليه «عثمان باشا» من القناعة بالهدايا.

بعد أن استقرّ الوالي في حلب برهة من الزمن أطلعه بعض المقربين إليه على رجال حلب وذوي الشخصيات البارزة منهم، وأعلمه بأن السيد عبد الرحمن زعيمهم ودماغهم المفكّر وعَيْنُهم النقّادة التي تطلع على أفئدة ولاة الأمور ويدهم الباطشة التي ترميهم بسهام الطعن والتنديد. فأحب الوالي أن يكون السيد عبد الرحمن في جانبه وأن يراه من جملة أعوانه وأنصاره. ومن جهة أخرى أحب أن يستفيد من مواهبه وعلوّ همته، فرأى أن أول وظيفة يستخدمه بها هي رئاسة البلدية التي كانت في ذلك الزمن أشدّ الوظائف حاجة إلى مثل هذا الرجل العبقري. فقد كان المجلس البلدي غاية في الانحطاط وسوء الإدارة. فعينه لرئاسة مجلسها بعد أن استرضاه بقبولها. فجلس على كرسي الرئاسة وهو يرى في البلدة أموراً كثيرة لها ضررها العام كان يتمنى قبل أن يتولى الرئاسة أن لو كان له سبيل لإزالتها لفعل. فلما تولاها حمل على إزالتها حملة عنيفة غير مستعمل بإزالتها التدرج والأناة بحيث أنه في ثاني يوم من جلوسه على كرسيها أمر بإزالة بعضها وإصلاح البعض الآخر من ذلك السوق الكبير المعروف بسوق المدينة المشتمل على زهاء أربعة آلاف دكان وعلى بضعة عشر خاناً تجارياً، كانت تسير فيه الجِمال موقرة بالبضائع التجارية لتفرغ حمولتها في الخانات والقياصر الداخلة في السوق، فكانت الجمال تزاحم المارة الذين يغص بهم هذا السوق العظيم فتوقع بهم أضراراً خطيرة وربما داست منهم البعض فقتلته. فأصدر السيد عبد الرحمن أمره بأن يوضع على مداخل هذا السوق حواجز تمنع دخول الجمال إليه دون بقية الدواب، أي دون البغال والحمير والبرازين. فلم يشعر التجار إلاّ وقد وضعت هذه الحواجز فهاجوا وماجوا وقامت قيامتهم وساروا بجموعهم إلى الوالي يطلبون منه عزل السيد عبد الرحمن من رئاسة البلدية ورفع الحواجز المذكورة لأنها تضطرهم إلى وضع أجرة ثانية على تحميل بضائعهم إلى خاناتهم من الأماكن التي تفرغ فيها الجمال حمولتها خارج السوق ثم على تحميلها من خاناتهم إلى المحل الذي تحملها الجمال منه وتسير بها إلى الجهات التي تقصد السفر إليها، وبذلك يخسر كل تاجر منهم مبلغاً كبيراً من الأجرة التي كان في غنى عنها.

فلم يسع الوالي غير إجابة التجار لطلبهم وعزل السيد عبد الرحمن عن رئاسة البلدية قبل أن يتمّ على تعيينه أسبوع!!

والحق يُقال إن وضع هذه الحواجز مما لا يختلف في لزومه اثنان إلاّ أن التسرع به هو الذي صار مانعاً منه. والدليل على لزومه أن رؤساء هذا المجلس بعد السيد عبد الرحمن لم يهملوه فقد كان كلّ واحد منهم يضع بدوره على بعض مداخل السوق حاجزاً ويترك بقية المداخل حرة بلا حاجز ليضعها من يتولى الرئاسة بعده. فلم يمضِ على هذه المداخل سوى سنوات قليلة حتى أصبحت جميعها محجوزة يتعذر منها عبور الجمال إلى السوق الكبير وأصبح الناس في مأمن من شرّها.

حالة السيد عبد الرحمن مع «عارف باشا»:

وفي سنة ١٣٠٧هـ ولي «عارف باشا» الذي سمّاه أهل حلب «عارف صحنية» لأنه اتخذ له من أعضاء مجلس الإدارة وكبار موظفي الولاية أصحاباً يخرجون معه في بعض أيام الأسبوع إلى إحدى متنزهات البلدة قصد ترويح النفس، ويأتي كل واحد منهم بصحن فيه لون من الطعام اللذيذ يجعلون عشاءهم من مجموع ما في هذه الصحون من الأطعمة اللذيذة.

كان هذا الوالي يكثر من هذه الوليمة ويجيد فيه صحنه ولذا لقبه الحلبيون بـ «عارف صحنية»، ولا لوم عليهم في ذلك فإن من أكثر من شئ عرف به.

كان هذا الوالي سيئ الإدارة منهمكاً بالرشىٰ، ولذا تسلّط عليه صاحبنا جرياً على منهاجه الذي كان يسير عليه مع أمثاله من الولاة. فطفق يتتبع سقطاته ويفضح عوراته ويندّد به في صحف الآستانة وبيروت ويكتب بمساوئه إلى المراجع العليا حتى نكّد عيشه وسلب راحته وصار الوالي يتمنى أن لو ظفر بسقطة يتسلط بها عليه لينتقم منه فلم يفرّط له بشيء من ذلك.

واتفق في بعض الأيام أن قنصل دولة إيطاليا في حلب وهو «الموسيو أنريكو ويتو» بينما كان راكباً عربته ماراً من محلة الجلوم التي هي محلة السيد عبد الرحمن إذ وقع على ظهره حجر عابر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً بحيث اضطرته الرجوع إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه منه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية عليه حين الظفر به. هذه الحادثة فتحت للوالي باباً يلج منه إلى إلصاق هذه الجناية بصاحبنا السيد عبد الرحمن، لا سيما وقد كانت الحادثة في محلته وعلى مقربة من داره. وفي الحال أوعز الوالي إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن

الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية - وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة - وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجرة أصابت ظهره، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن وبين المسلمين بحلب. وحالما قدمت هذه الإخبارية إلى الوالي أمر رئيس الشرطة بالذهاب إلى منزل السيد عبد الرحمن والدخول إليه قسراً وتفتيش مكتبته وخزانة أوراقه(٤). فتوجه رئيس الشرطة على الفور إلى منزل الكواكبي وكان غائباً عنه فدخله قسراً ومعه طائفة من أتباعه وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها ورقة مزورة استحضروها معهم وهي تركية العبارة محررة بحروف أرمنية مضطربة التركيب يفهم منها أن أحد زعماء الأرمن يَعِدُ السيد عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم بإحداث ثورة بين المسلمين وبين الأرمن في حلب. فقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بها إلى الوالي فاستلمها منه وفي الحال أصدر أمره بإلقاء القبض على الكواكبي فألقي عليه وزجّ في السجن. وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً وأجلس على كرسي المحكمة لإصدار الحكم عليه. وكان رئيس المحكمة رجلاً متهالكاً بالتقرب إلى الولاة وكبار الموظفين قد أمات في التزلف إليهم وجدانه وخان ضميره فحكم على السيد بجزاء الإعدام على أن يكون الحكم عليه قابلاً للاستئناف ثم للتمييز. فتلقى السيد عبد الرحمن الحكم بالرضى وشرع يطلب من المراجع العليا بأن تكون محاكمته التمييزية في عدلية بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي. فأجيب طلبه ونقل مع أوراق الدعوى إلى محكمة بيروت واعتقل في سجنها. وفي ذلك الأثناء ورد عليّ من أحد خدّامه كتابٌ يطلب مني أن أكلّف «المسيو أنريكو ويتو» قنصل دولة إيطاليا في حلب أن يكتب إلى قنصل إيطاليا في بيروت كتاباً يبيّن له فيه أن السيد الكواكبي لا دخل له البتة في قضية الحجر التي صدمت ظهره وأن جميع ما عزي إليه في هذه الحادثة مزوّر عليه. فأجاب القنصل طلبي وكتب إلى قنصل بيروت بهذا المعنى، وكنت في ذلك الوقت أستاذ القنصل الموما إليه أُعَلّمه اللغة العربية وكان يودني كثيراً ولا يردّ لي طلباً. على أنه كان قد فحص حقيقة المسألة وثبت لديه أن الحجرة التي صدمته كانت مقذوفة بمقلاع أحد الأولاد الذين يقومون بعمل مناورة يسمونها «ضريبة» والحجرة قذفت عليه لا عن قصد وأن السيد عبد الرحمن رجل عالي الجناب بعيد عن هذه السفاسف جداً. وقد قدَّم قنصل بيروت كتاب قنصل حلب إلى مرجعه في بيروت فاستفاد السيد عبد الرحمن فائدة عظيمة لأنه كان من أسطع البراهين الدالة على أن الدعوى المقامة عليه مزورة لا أصل

لها. وقد برّأته محكمة بيروت مما اتهمه به والي حلب، فأطلق سراحه وعاد إلى حلب يسر الصديق ويكبت العدو مثابراً على ديدنه مع الوالي «عارف صحنية» غير منفك عن التنديد بفضائحه حتى عزل عن حلب في أوائل شهر جمادى الثانية ١٣١٠هـ وغادرها في التاسع عشر من الشهر.

عود «عثمان باشا» إلى حلب وحالة السيد عبد الرحمن معه:

في هذه السنة ١٣١٠هـ. وكان يودّ السيد عبد الرحمن ويظهر الحرص على الإستفادة من مواهبه فولاه رئاسة غرفة التجارة مع رئاسة مجلس المصرف الزراعي، فأصلح شؤون الغرفة وأظهر مزيتها وكانت قبل أن يتولاها اسماً بلا رسم. وقد وضع لها جدولاً إحصائياً يشهد له بأنه حريّ أن يعدّ من أعظم رجال عصره ثقافة وأحذقهم معرفة في فنون الاقتصاد ومسائل العمران. وقد أخذت من هذا الجدول خلاصة حررتها في فصل «تجارة حلب» في الجزء الأول من كتابي «نهر الذهب في تاريخ حلب» فليراجعها من أحب الإطلاع عليها.

سفره إلى استنبول:

وفي سنة ١٣١٢هـ إستقال من رئاسة غرفة التجارة وسافر إلى استنبول قصد السياحة. وقد انزوى في أحد خاناتها ولم يشأ أن يتعرف بأحد من عظمائها. وكأنه لم يقصد من هذه السياحة إلاّ أخذ الدروس في فن طبائع الإستبداد من مدرسته الكبرى قصر البلاط السلطاني المعروف باسم «يلديز» فهو أعظم معهد تلقى فيه دروس هذا الفن العظيم الذي جمع منه في كتابه «طبائع الإستبداد» ما لم يجمعه أحد قبله ولا ينسج على منواله أحد بعده.

إنزوى في خان من خانات استانبول كي لا يشغله شاغل عن قصده. إلاّ أن شهرته وفضله أبيا عليه إلاّ أن يعرف، لأنه بعد وصوله إلى استانبول ببضعة أيام نما خبر قدومه إليها بواسطة المتجسسة إلى حضرة أبي الهدى الصيادي فبعث إليه جماعة من حاشيته ونقلوه من الخان إلى منزل أبي الهدى فأظهر الإغتباط بقدومه وأحلّه أعلى منزلة عنده. ولعل هذا الالتفات الذي أظهره له أبو الهدى أفندي كان بإيعاز من لدن «حضرة خلافتيناه»[٥].

---

(٥) يقصد «الغزي» بهذا الإسم مقام السلطنة الذي كان يعتبر عند الدولة مركز الخلافة الإسلامية.

وبعد أن أقام في استانبول بضعة أشهر قفل منها راجعاً إلى وطنه حلب[٦].

التزامه إدارة الريجي:

في سنة ١٣١٣هـ إلتزم من إدارة «الريجي» (شركة إنحصار الدخان) جميع مداخيلها على شرط أن يكون مفوضاً من قبلها في كل ما يريد عمله وألا تتداخل بشيء يريده وألا تعارضه بما يقرره، فعقد لذلك شركة إسهام وأقبل عليه الناس بالاشتراك لفرط ثقتهم به. واستلم الإدارة من الريجي وطرد جميع من لم يوافقه استخدامهم. وتهافت الناس على شراء تبغه لجودته ورخصه. وكان الأمل وطيداً بأن يربح هذا الالتزام أرباحاً طائلة إلاّ أن الأقدار عاكسته بسبب حدوث قيام الأرمن في بلدة الزيتون فكسدت بضاعة الدخان وخسر السيد عبد الرحمن بهذا الالتزام مبلغاً يعجز عن وفاء عُشْرِهِ فضلاً عن كلّه، فلهج بذمه أصحاب الأسهام ولا سيما الأوباش منهم وتحمّل من كلامهم وتعرّضهم له بالسوء ما يضطر أعدى أعدائه إلى الإقرار بسعة صدره وعظيم شجاعته وصبره.

هذا وإن حَمْلَ شركة الريجي في مدينة حلب على إخراج الإدارة من يدها ويد عمالها وتسليمها إلى رجل مسلم معمّم جدير ذلك بأن يعد من المسائل التي قد تعجز عن إدراكها دولة، ولا يعلم أحدٌ الطرق التي استعملها السيد مع ثقافة الشركة حتى لوى عقلها وسلب منها الإدارة وتصرف بها كما شاء وأراد. وكان المرحوم «نافع باشا الجابري» أحد دهاة رجال حلب يعجب جد العجب من القوة التي اضطرت هذه الإدارة إلى تسليم إدارتها والتنازل عن إيراداتها، ويقول: ليست هذه المسألة مما يقوى عليه صناديد الرجال.

توليه رئاسة الكتاب في المحكمة الشرعية بحلب:

وفي تلك الأثناء مرّ من حلب والي بغداد «عطا الله باشا الكواكبي» فلزمه صاحبنا مدة بقائه في حلب لقرابة بينهما. فلمّا سافر الباشا إلى الآستانة سعى له بتوجيه «باية إزمير» عليه وإرسال أمر من المشيخة الإسلامية إلى قاضي حلب بأن يستخدم السيد

---

(٦) كتب «سامي الكيالي» صاحب مجلة «الحديث» تعليقاً على كلام «الغزي» في الهامش، يقول: «تثبت رواية الغزي هذه أن الكواكبي قد اكتشف أعمال الصيادي في هذه المناسبة عن كثب واطلع على جميع الحقائق التي لم يكن يعرفها قبل سفرته هذه إلى استنبول.

عبد الرحمن عنده بوظيفة رئيس كتّاب ويجعله نائب غيبته[٧] فاستخدم السيد بهذه الوظيفة مدة تزيد على سنتين. ثم قام عليه عشاق هذه الوظيفة يخلقون له الشوائب ويؤلبون عليه أعداءه وحساده وغيرهم من المزورين والغوغاء الذينهم تبع لكل ناعق جهلاً منهم بالفضيلة وعميٌ بهم عن نور المزايا الحسنة بما ينطلي عليهم من تمويه أولي اللسن المفعمة صدورهم من دنس الحقد والحسد.

وكان ولي قضاء حلب المرحوم العلامة القاضي «زهدي أفندي زعفران بويلي»، فاتفق مع والي حلب «رائف باشا» على تنحية السيد عن وظيفته وتوجيهها عليّ، وحملا مجلس إدارة الولاية على إبرام قرار بذلك، فامتنعت عن قبول الوظيفة وكرهت أن أكون للسيد خلفاً فيها حرصاً على ما بيني وبينه من الصداقة والإخاء كيلا يتطرق إليهما الفساد بسبب ما ينشأ عادة من التضاغن بين السلف والخلف في الوظائف.

لما بلغه إمتناعي عن هذه الوظيفة حضر إلى منزلي سرّاً وكلّفني بكل إلحاح قبولها وأقسم بالله العظيم على أن وجودي فيها أحب إليه من وجود أخيه. وحينئذ قبلت الوظيفة المذكورة وانتفعت بنصائحه التي أرشدني إليها في بعض المسائل التي لها علاقة بهذه الوظيفة.

ثم إن شيخ الإسلام «جمال الدين أفندي الكواكبي» وجّه عليه نيابة قضاء «راشيا» وأرسل إليه مراسلتها وهو في حلب، فاستقلّ هذه النيابة ولم ترق في عينه، وكان بقي لانقضاء سلفه فيها بضعة أشهر، فبقي في حلب مدة، ثم أظهر أنه يريد السفر إلى استانبول ليستبدل نيابة راشيا بغيرها. وقبل سفره بيوم واحد زارني في منزلي يودعني وأخبرني أنه عازم في غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته. وكنت عالماً بكتابه «جمعية أم القرى»، وقد شعرت منه العزم على طبعه، فوقع في نفسي أنه سيعرّج على مصر لطبعه ونشره إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها. فحذرته من ذلك وقلت له: إياك يا أخي والسفر إلى مصر فإنك متى دخلتها تعذّر عليك الرجوع إلى وطنك لأنك تعد في

---

(٧) «نائب القاضي» هو من يسمى «نائب المحكمة» وهو الذي يقوم مقام القاضي دائماً بوكالته الرسمية التي تصدر بها إرادة سنية. ذلك أن القاضي ـ حسب العادة المتبعة ـ لا يداوم على وظيفته. حتى أن التاريخ العثماني مرّ خلاله كثيرون من القضاة الجُهّال الذين كانوا يحصلون على المركز بالرشوة للسلطان ومن بيده أمر الشورى والسلطة، فلا يؤثر ذلك على عملهم في القضاء لأن النائب في المحكمة الشرعية هو المعوّل عليه!

الحال من الطائفة المعروفة باسم «جون تورك» لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة. فقال لم أعزم إلاّ على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك. ثم ودّعني ومضى وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده. وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦هـ(٨). وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلاّ وصدى مقالاته في صحف مصر، وأخذت جريدة «المؤيد» تنشر له تفرقةً كتاب «طبائع الإستبداد» الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً، بخلاف كتاب «جمعية أم القرى» فقد أطلعنا عليه مراراً. ثم إنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية. بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأناهما في سمرنا المرة بعد المرة.

وبلغنا أنه بعد دخوله مصر بأيام قلائل إلتفّ حوله جماعة من الأدباء الأتراك يزعمون أنهم من طائفة «جون تورك» وما هم في الحقيقة إلاّ جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى المابين.

وبلغنا أيضاً أن حضرة خديوي مصر «عباس حلمي باشا» المعظّم كان محسناً إلى السيد معاملاً إياه بالحفاوة والاحترام. وبعد أن أقام السيد في مصر مدة تجرّد للسياحة فدخل اليمن والهند وإفريقية. وحينما زار اليمن ورد عليّ كتاب من «الموسيو فرديناند بن ميخائيل صولا» الحلبي قنصل إيطاليا في «حديدة» يذكر لي في كتابه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن وأنه يهدي إليّ سلامه واحترامه. وكان «المسيو فيرديناند» هذا صديقي وقد أخذ عني شيئاً من علم النحو والصرف، وبعد أن بارح حلب كان يكاتبني بين آونة وأخرى استبقاء لما بيننا من الصحبة والصداقة.

ثم إن السيد عبد الرحمن عاد إلى مصر من سياحته. وبعد أن أقام فيها مدة لا أقدر على تقديرها أدركته الوفاة فجأة في فجر ليلة السادس من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ. وكأن وفاته كانت منتظرة ـ إشارة إلى أنها تمت نتيجة لمؤامرة دبّرها جواسيس

(٨) إن تاريخ مبارحته حلب سنة ١٣١٦هـ موضوع دراسة تالية في باب «رحلة الهجرة»، والتحقيق يتناول رحلتين اثنتين.

السلطان ـ لأنها لم يمضِ عليها يوم أو بعض اليوم إلاّ وقد اتصلت بمسامع السلطان عبد الحميد. وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد «عبد القادر القباني» صاحب جريدة «ثمرات الفنون» التي كانت تصدر في مدينة بيروت بأن يهبط مصر سريعاً ويقصد محل إقامة السيد ويحرز جميع ما يجده فيه من الأوراق ويرسلها إلى المابين. فسافر السيد عبد القادر إلى مصر على جناح السرعة ووضع يده على جميع ما وجده من الأوراق في محل السيد، وأرسلها إلى المابين، ولا يعلم أحد ما كان مودعاً فيها من الثمار التي اقتطفها من حدائق سياحته في البلاد التي أسلفنا ذكرها].

* * *

ذلك كله كان من تأريخ «كامل الغزي». وأما من تأريخنا ـ نحن أسرته ـ للحادثة التي أدت إلى حكم إعدامه، فأقول:

في ١٢ شوال ١٣٠٩هـ/ ٢ مايو ـ أيار ١٨٩٢م، طُرِقَ باب بيت الكواكبي بعنف فأجابت إبنته الكبرى «عفيفة» تسأل عن الطارق، فصاح بها «محمود الشربجي» صديق والدها يحثها على فتح الباب له، ففتحته فدخل مسرعاً يطلب منها إحضار والدتها، فجاءت هذه فطلب منها صرة واسعة بسرعة، فجاءته بها، ودخل بها إلى غرفة مكتب جدي وجمع كل ما فيها من كتب وأوراق وحمل الصرة على ظهره مسرعاً بالخروج وهو يقول لها: «لقد أوقفوا الأفندي». فسألته عمتي «عفيفة» مستوضحة فأجاب: «لقد أوقفوا أباك».

وكان في تلك الصرة مسودات كتابيه: «طبائع الإستبداد» و «أم القرى» وسواهما من الأوراق المخطوطة والمطبوعة، وكلها ضد السلطة. فلو أنها لم تذهب مع الصرة لما كانت بين أيدينا اليوم، على الأرجح. وبعد دقائق كبس البوليس «الشرطة» عليه بيته وفتشوه فلم يعثروا على ما يدينه. ومع ذلك فقد نظّم «البوليس أحمد صبري» تقريره بذلك التاريخ، باللغة التركية، ترجمتها هي التالية:

«حققت بصورة خفية عن أحوال عبد الرحمن أفندي وفهمت أنه يجمع أولاد محلته عنده، ويفصح عن أقوال بحق الحكومة... علماً بأنني لم أعرف أسماء الأولاد الذين يجمعهم، وأن عبد الرحمن أفندي يقوم بادّعاءات بحق الحكومة».

كما نظّم تقريراً آخر يقول فيه: «إن كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي الذي يختلط

غالباً بأجانب قد شوهد رأي العين يتنقل ويذهب إلى أشخاص مجهولي الأحوال والأطوار. وهذا مما يسيء ويخلّ بأمن الحكومة السّنيّة ويسبب كثيراً من الفساد. وقد تواترت هذه التحركات التي سببت خللاً كما هو مبين بتقريري بتاريخ ١٢ شوال ١٣٠٩هـ».

فكأن الوالي «عارف باشا» لم يروِ غليله التقرير السابق وإنما أراد الإمساك بخيط يثبت منه إتصال الكواكبي بالأجانب، فأوعز إلى ضابط البوليس هذا لكي يعزز تقريره السابق بتقريره اللاحق المذكور.

ورغم ذلك فإن الوالي لم يجد في هذين التقريرين ما يكفي لإثبات خيانة الكواكبي للسلطة، فأقدم على تزوير كتابة في جزازة ورق دفتر صغير زعم أن مآلها يفيد إتصال الكواكبي بالدول الأجنبية فقيّده بالأغلال وشهّر به مسحوباً بقيده في الشارع من بيته إلى دار الحكومة ليودعه السجن.

وقد كتب تلميذه وصديقه «عبد المسيح الأنطاكي الحلبي» نزيل مصر، بعد وفاته، عن هذه الحادثة، في جريدة «القاهرة» بتاريخ ٦ نيسان ـ ابريل ١٩٠٣م، بتوقيع «نديم الكواكبي»، (مما أثبتته الأديبة الأندنوسية «نور ليلى عدنان» في كتابها «الكواكبي مصلحاً وأديباً» بعد أن اكتشفته في جريدة «القاهرة») يقول:

. . .«فارسل عارف باشا، فجأة «رجال البوليس» يداهمون منزل الكواكبي إستناداً إلى تقرير سرّيّ رُفِعَ ضده، وقالوا إنهم وجدوا بين أوراقه ورقة صغيرة. . .» إلى آخر الخبر.

ودفعوا بالكواكبي إلى المحكمة الجنائية، ووجهت إليه تهمة خيانة الدولة العليّة والعمل على تسليمها لدولة أجنبية، ليستهدف عقوبة الإعدام. فاستنتج من تصرفات قضاة الحكم أنهم قد تكوّن لديهم «الإحساس بالرأي» قبيل المحاكمة ـ وهو أمر ممنوع على القضاة قانوناً ـ وعلم أنهم قد تلقوا رشوة من الوالي «عارف باشا»، فأسرع يكتب إلى وزارة العدلية معرضاً بوضع القضاة المؤتمرين بأوامر السلطة، ثم إنه ـ بعد صدور الحكم بإعدامه ـ رفع طلباً بنقل الدعوى من ولاية حلب. وقد روى «عبد المسيح الأنطاكي» قصة هذه المحاكمة التي عايشها قائلاً:

[«. . . وعرض الكواكبي على دوائر الاستنطاق ووجهت إليه التهمة، ورفض أن

يدافع عن نفسه، وإنما طلب المحاكمة في ولاية أخرى. وفي المحكمة الابتدائية التركية قُدِّمَ للمحاكمة في هيئة المجرمين (ويقصد أنه كان مقيد اليدين) ورفض الدفاع عن نفسه أيضاً، مكرراً طلبه المحاكمة في ولاية أخرى، فرفض طلبه، وأصدرت المحكمة الإبتدائية حكم الإعدام.].

وبناء على طعنه على الحكم باستئنافه، وطلبه نقل الدعوى، عيِّنت له الحكومة بعض الولايات لنقل الدعوى إليها وهي الولايات التي أشار الوالي «عارف باشا» على الدولة بها، فأدرك صلة الوالي بولاتها فرفض النقل إليها. فكتب وزير العدل حينئذ الكتاب التالي (وهو محفوظ لدينا وباللغة التركية):

/المدعي العام المدني لمحكمة استئناف ولاية حلب، صاحب العزة المحترم

بناء على الاستدعاء المقدم من «السيد عبد الرحمن الكواكبي» المتهم بجناية تنظيم ونشر أوراق مضرّة، والمحال من محكمة التمييز إلى محكمة استئناف بيروت والمؤرخ في ١٣ محرم ١٣١٠ مع كافة تفرعاته المتعلقة بالاتهام الجنائي، طالباً نقل محاكمته إلى ولاية أخرى، وقد وحّد طلبه المقدم في ٤ محرم ١٣١٠هـ مع إعلام المحكمة، وأحيل إلى المدعى العام لإقرار نقل الدعوى وإجراء المقتضى اللازم ـ ١٠ صفر ١٣١٠ـ وزير العدل./

وفي ذيل الكتاب الشرح التالي:

/بعد القيد، يحفظ مع الإعلام المرافق. وبناء على طلب المدعي العام المدني في بيروت تلغرافياً لسوق المؤما إليه «عبد الرحمن أفندي» إلى بيروت مرافقاً، وقد أعلم بذلك السجن والضابطة. ـ ٥ أيلول ١٣٠٨(٩).

وبطريقة ما ـ على ما حدّثتنا به عمتنا المرحومة عفيفة ـ تمكنت زوجته من الانتقال إلى قرية «الوضيحي» (على مسافة ١٢كم جنوبي حلب) مع بعض أفراد أسرته ومنهم الطفل «فاضل» (والدي)، تنتظر مرور موكب السجين في طريقه إلى بيروت. وهي أول مرحلة بعد حلب للاستراحة.

وبطريقة ما أيضاً، سمحوا للـ «كواكبي» بأن يبيت ليلته تلك مع زوجته في غرفة

---

(٩) ٥/أيلول هو التاريخ الشرقي للدولة العثمانية.

مستقلة من إحدى قباب القرية. (وقد أوضحت لي عمتي ما أسرّت لها به أمها أنها حملت في تلك الليلة من زوجها السجين!).

وفي بيروت مَثُلَ «الكواكبي» أمام محكمة الاستئناف الجنائية ورفض تعيين محام له أمامها، وأعلن أنه سيدافع عن نفسه بنفسه. وسجلت مرافعته باللغة التركية، وخلاصة ترجمتها هي التالية:

«... وما قضيتي اليوم إلاّ مظلمة كبرى أراد بها الظالمون أن ينتقموا مني باسم القانون. فإنكم قرأتم، يا قضاة العدل، الساعة الأولى، الأوراق التي أرسلت من عدلية حلب. وبموجبها حكمت المحكمة الابتدائية فيها عليّ بالإعدام. وأنا، كمظلوم بينه وبين الموت كلمة من فم القضاة الذين أنا ماثل أمامهم، لا يسعني إلاّ أن أفصح عن كل شيء وأقول كل شيء كاعتراف أمام الله وأمامكم بما ظهر وما استتر من هذه القضية السوداء.

إن البلاء قد اكتنفني من قبل الآن، وكان مصدره السيد أبو الهدى أفندي الذي اغتصب نقابة أشراف حلب من أسرتي، ولأني أطالبه بحقوقي ولم أسكت عنها، فتظاهر أكثر من مرة في مقاومتي ومعارضة أعمالي وأشغالي إلى أن أعياه الأمر فرماني بهذه التهلكة بواسطة «عارف باشا» الذي هو من جملة صنائعه. ولمّا لم يجد عليّ علّة، لأني قضيت زهرة العمر في خدمة دولتي وأمتي وسلطاني، افترى عليّ افتراء بهذه الورقة الصغيرة التي قالوا إنهم وجدوها بين أوراق أولادي. وكلها ـ كما ترون ـ أوراق مكتبية لتعليم الأولاد الكتابة. واكتفي لفحص هذا القول وإثبات براءتي ببرهان واحد وهو أنني احتطت لنفسي من يوم تظاهر «عارف باشا» بعداوتي، ورفعت من بيتي كل ما عندي من الكتب والأوراق، لا لأنها مخالفة لروح الدولة، معاذ الله، بل ضناً عليها أن تصل إليها أيدي الاستبداد، لأنها أوراق تجارية وأدبية، بما يملأ صندوقين. وقد أحضرتهما معي لأعرضهما على المحكمة عند اللزوم. فلو سلّمنا جدلاً بوجود ورقة كهذه فإني كنت، بلا شك، أخفيها مع ما أخفيته من الأوراق غيرها، فضلاً عن أن وريقة كهذه سياسية نتيجتها الحكم بالإعدام يستحيل أن أتغافل عنها لتكون مع الأولاد مخافة أن ينقلوها إلى مكتبهم فتجر عليّ الويل والثبور من حيث أدري ولا أدري. هذا فضلاً عن صدقي وإخلاصي لدولتي فإني مسلم عثماني أنتمي إلى الرسول الكريم. ولا يعقل أن من كان

حائزاً على شرف الحسب والنسب أن ينتمي إلى دولة إفرنجية ضد سلطانه وبلاده. وفوق ذلك، من أكون أنا لأتجرأ على مخابرة الإفرنج في شؤون هامة سياسية كهذه؟ وما هي النتيجة التي أتوقعها؟.

إن الخطوط تتشابه، والذي كتب مثل هذه الورقة وألقاها بين ما وجدوه من الأوراق الصبيانية في بيتي لا يبعد أن يكون قد استكتبها إلى من يشبه خطه خطي. ومع ذلك فإني أطلب من جملة التحقيقات التي ستجريها المحكمة أن تعين خبراء لتطبيق الخط، وفي الصندوقين اللذين أشرت إليهما ألوف من الأوراق المنشورة كلها كتبتها بخطي بأوقات مختلفة يختلف فيها الخط بين الجودة وعدمها...».

وقررت المحكمة على استدعاء شهود الحق العام، ومنهم جنود البوليس، وأجلت القضية أربعة أشهر. وأسرع جواسيس الوالي «عارف باشا» إلى إعلامه بذلك، فإذا به يمنح هؤلاء إجازات طويلة يتغيبون خلالها عن مراكزهم وعن مدينة حلب فلا تصل إليهم دعوات المحكمة. فكتب جدي إلى أخيه «مسعود» يوعز إليه ـ بالحبر السرّي فوق رؤوس أكمام قمصانه المرسلة للغسيل كما كان يفعل في سجنه بحلب المرة السابقة وبماء البصل بطرف مسواك الأسنان ـ بأن يتصل بأفراد البوليس ويؤمن لهم نفقات سفرهم وتعويضهم بعد أن يؤمن وصول مذكرات الدعوة إلى مراكزهم، وفي أي مكان كانوا. وقد اقترض له أهله خمسماية ليرة عثمانية ذهباً من «جرجي خياط» لتأمين نفقات الشهود.

وفي هذه الأثناء بعثت زوجته تعلمه بحَمْلِها، فكتب إليها يطلب منها أن تسمي المولودة: «نظيرة» أو المولود «نظيراً»، متفائلاً بانتظار البراءة والعودة إليها متخلصاً من حبل المشنقة.

وبعد أربعة أشهر، وعند متابعة المحاكمة، أقرّ رجال البوليس بأنهم لم يعثروا على أية ورقة مضرّة عند تفتيشهم داره.

وعرضت جزازة الورق التي زوروها على لجنة الخبراء فجاء تقريرها ينفي كونها من خط الكواكبي. ووجدت المحكمة ـ فضلاً عن ذلك ـ أن ليس في هذه الورقة ما يشير إلى مخالفة لقوانين الدولة العثمانية.

وبعد أن سلخ ثمانية أشهر سجيناً، أعلنت محكمة بيروت براءته وأفرجت عنه في بيروت.

وفي الوقت نفسه صدر الأمر الهمايوني بعزل الوالي «عارف باشا» إذ لم تفده وساطة «أبي الهدى الصيادي» لدى المابين السلطاني لإبقائه في مركزه لأن توقيع الأمر قد حصل سرّاً بناء على التحقيقات السرية التي أجريت من قبل المفتشين وأرسلت إلى المابين في طلب عزل الوالي.

وعاد الكواكبي إلى حلب منتصراً في جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ، /كانون الأول ١٨٩٢م. أما عميل الوالي، والوالي نفسه، فقد أمسيا مخذولين على غير علم منهما!.

وقد حدّثنا عمنا المرحوم الطبيب «أسعد الكواكبي» وعمتنا المرحومة «عفيفة»، يصفان وصول أبيهما مساء إلى حلب، بأنه كان يوماً مشهوداً من أيام حلب، اتصل ليله بنهاره، وأن رجال الحي كانوا يفسحون له الطريق بصعوبة من خلال الألوف من الناس المزدحمين من «باب أنطاكية» (أقرب أبواب حلب إلى حي الجلوم) حتى داره عند ساحة جامع جده «أبي يحيى الكواكبي» و «المدرسة الكواكبية»، حيث كان كبار أهل حلب ووجهاؤها بانتظار وصوله من ظهيرة ذلك اليوم حتى المساء.

وتضيف عمتي: إن معلّمتها في مكتب «الخوجة» قد بشّرتها بقرب وصول أبيها إلى حلب وأجازتها بالانصراف إلى بيتها لتكون في استقباله مع أهلها، فأسرعت إلى البيت راكضة، فأفسح لها الرجال الطريق بعد أن عرفوها، فراحت تقفز درجات السلّم إلى الغرفة العلوية «المربع» حيث كانت أفواج النساء تملأ القاعة، فكانت المسكينة ـ لشدة فرحها وسورتها وتهيجها ـ تتعثر مرات عدة فوق درجات السلم وتعاود الصعود لتدخل على أمها وتقول لها مكررة العبارة نفسها التي سمعتها من أفواه الرجال عند الباب: «. . . وصل الأفندي. . . وصل الأفندي. . .» وتنفجر الزغاريد من أفواه «فاطمة» وسائر النساء.

وعند الباب، كان كبار أهل البلدة يعانقون «الكواكبي» ويهنئونه بالسلامة وعلى رأسهم صديقه قاضي حلب.

وكان في جملة كبار المستقبلين «أبو الهدى الصيادي» الذي عانقه مقبّلاً ومسلّماً وقائلاً: «الحمد لله على السلامة يا ابن العم»! فأجابه جدي على الفور وببديهة حاضرة: وعليك السّلام يا أبا الهدى أفندي، لكن: هادي «ابن العم» منين جبتها؟! (بالعامية حرفياً) ذلك لأن جدي قد أدرك أن «أبا الهدى» كان يرمي من وراء التصريح ببنوة العم،

على مسمع ومشهد من الألوف، إلى رضاء ضمني من «الكواكبي» بثبوت نسب «الصيادي» إلى «آل البيت» لو أنه لم يرد هذا الزعم فوراً إلى صاحبه دون إبطاء. وكان ذلك على مسمع من عمتي التي كانت قد وصلت إلى الباب بعد أن أتمّت مهمتها بتبشير أمها لكي تشهد بنفسها دخول أبيها إلى البيت. وكان ذلك في يوم الأحد ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣١٠هـ الثامن من كانون الثاني ١٨٩٣م.

وفي منتصف الليل، تمكن جدي من الانفراد بأفراد أسرته. وإليكم ما قاله هو ـ نقلاً عن جريدة «القاهرة» في العدد الخامس من يونيو ـ حزيران ١٩٠٢م:

«. . . دخلت الحرم، ولم أكد أنزع عِمتي وأتمتع برؤية أولادي وأمهم وأعزيهم بوجودي عمّا نالهم من السوء في غيابي، وقد انتصف الليل، وإذا بالباب يقرع، والخادمة دخلت علينا وهي تقول: «إن وافداً يريد مقابلة السيد» فهرولت مستغرباً إلى الباب ففتحته باندهاش، فإذا بصديق لي من موظفي التلغراف سلّم عليّ وسلّمني تلغرافاً من وكيلي في الآستانة، وكانت صورته: «حلب ـ عبد الرحمن الكواكبي» وصلت تلغرافاتكم لمراجعها وصدرت الإرادة السنية بفصل «عارف باشا» وتعيين بدله دولتلو «عثمان فوزي باشا» فنبشركم». وما كدت أقرأ التلغراف حتى طرت فرحاً وانتظرت الصباح بفارغ الصبر إلى أن أذّن مؤذن الفجر، فلبست ملابسي وركبت بغلتي وسرت توّاً إلى بيت صديقي القاضي فأطلعته على التلغراف فتناوله مني وسار لساعته إلى دار الوالي. وبدخوله قيل له إن الوالي لم يزل نائماً، فقال لهم: أيقظوه. فخرج إليه بملابس النوم، فقال له القاضي: إن السيد الكواكبي قد عاد، قال: سمعت ذلك، قال: وعاد بريئاً، قال: سمعت ذلك، قال: وتظاهر الناس بنصرته، قال: سمعت ذلك ولكنني سأنتقم منهم جميعاً. فقال القاضي حينئذ: ولكن قد فات زمن الإنتقام فاقرأ هذا التلغراف. وللقارئ أن يتصور حال الوالي المنتقم وهو يتلو تلغراف عزله من يد عدوه، فرماه وهو يرتجف وقال: هل السيد الكواكبي كان سبب عزلي؟ قال القاضي: بلا شك».

تلك كانت مأساة حكم الإعدام بشأن الوريقة التي اتهم بها. وتلك كانت فرحة الأهل يوم استقبلوه وعنقه نظيف من حبل المشنقة بعدما يقارب السنة من الانتظار. ولا أزال أذكر أنني ـ حينما سمعت الرواية من عمتي ـ ضاقت أعصاب حنجرتي وسالت

دموعي مثلما تسيل الآن حينما أذكر الرواية أو أكتبها.

وما بالك لو أن ما حمله «محمود الشوربجي» من مسودات كتاب «أم القرى» وسائر المقالات التي كانت ترسل إلى جرائد مصر وأوربا وهربه بها من بيته قبيل التفتيش وقع شيء منه بيد البوليس؟؟.

* * *

وتسلم «عثمان فوزي باشا» الولاية، وصدر أمر من الولاية بناء على تقارير المفتش «صاحب بك» بتعيين الكواكبي رئيساً لبلدية حلب في ١٠ شباط ١٨٩٣م - وهو الذي كان قد استقال من عضوية المجلس البلدي سابقاً - فقام بمشاريع عمرانية كثيرة. ومن أهم أعماله أنه قرر إقامة أعمدة حديدية في مداخل سوق المدينة الأثرية كي تحول دون دخول الجِمال إلى هذه السوق فتؤذي المارة وتلوث المكان، ومنع اللحامين من تعليق الذبائح خارج حوانيتهم وعلى الأبواب الأيوبية الأثرية لسوق المدينة (تلك الأبواب التي لا تزال مسامير الجزارين تغرس فيها بالعشرات صباح كل يوم حتى هذه الساعة مما أدى إلى تشظّيها وتفتتها على مشهد ومسمع من كل إنسان في حلب).

ومن مشاريعه إنكبابه على دراسة مشروع إنشاء سد الفرات عند قرية «يوسف باشا» لمدّ مدينة حلب بالمياه العذبة إذ وجد أن مياه ينابيع «حيلان» التي تجري في القناة الرومانية والأيوبية أضحت ملوثة فضلاً عن أنها لا تكفي المدينة التي راحت تشكو العطش. «تلك الفكرة التي أعتدّ عدّتها ولم يتسنّ له تحقيقها حتى جاء تحقيقها وتنفيذ مشروعه في أواخر هذا القرن العشرين.

ومن مشاريعه التي باشرها مشروع تجفيف مستنقعات «الروج» قرب مدينة «إدلب». وهو المشروع الذي تحقق في منتصف هذا القرن. وكذلك سعيه للحصول على إمتياز لمد سكة حديد حلب - أنطاكية حتى ميناء السويدية. (وهو المشروع الذي تابع أخوه «مسعود الكواكبي» العمل من أجله يوم كان عضواً في «مجلس المبعوثان» مع العضو الآخر «بهاء الدين بك الأميري» كما وَجَدْتُ في أوراق لديّ).

كما أن نهر «قويق» نال من اهتمامه الشيء الكثير، فلقد حضّر دراسة لجرّ مياه نهر «الساجور» (رافد نهر البليخ) إلى حلب ليرفد «القويق». وكلّف بعض المهندسين باستثمار النبع الحار المعدني «حمامات الشيخ عيسى» قرب «جسر الشغور» وتجميلها وترميمها، وقد تمّ له ذلك.

وبمساعٍ من تجار متضررين من الإصلاح بسوق المدينة عُزل «الكواكبي» عن رئاسة البلدية في ١٩ آذار ١٨٩٣م، كما سلف بيانه، ومشاريعه مبسوطة على منصات الدراسة في المجلس البلدي، وغرّم قيمة الأعمدة الحديدية التي أقامها على مداخل الأسواق، (رغم أنها لا تزال قائمة حتى اليوم!)، كما غرّم فروق ورواتب موظفي البلدية التي زادها لهم قطعاً لدابر الرشوة. وكل ذلك بمساعٍ غير حميدة من «راسبوتين البلاط السلطاني» الذي كان يرصد أعماله من الآستانة، حاقداً عليه بسبب عبارته الجوابية له يوم استقباله في عودة البراءة أمام بيته على مسمع من الجماهير. إلاّ أنه، حينما عاد «عثمان باشا» والياً مرة ثانية، عَيَّنَ «الكواكبي رئيساً لغرفة التجارة ورئاسة مجلس المصرف الزراعي، فكان ـ شأن رئاسته للبلدية ـ أول رئيس عربي لهاتين المؤسستين. فراح يدافع عن مزارعي التبغ الذين كانت الحكومة ورجالها يتسلطون عليهم بشراسة وقسوة، مؤتمرين بأوامر «شركة إنحصار التبغ والتنباك» (الريجي) المحتكرة لهذه المنتوجات. فما كان منه إلاّ أن أقنع بعض أصدقائه من المتمولين الأثرياء، بتشكيل شركة مساهمة معه على أن يكون هو مديرها. وكان له ذلك، وخفّ الضغط عن المزارعين والفلاحين. حتى أنه عمد ـ في خطة بارعة ـ إلى توظيف أفراد عصابات التهريب في الإدارة المذكورة برواتب تغنيهم عن الربح غير الحلال، وقطع بذلك دابر التهريب موفراً ما نجم عن ذلك من ربح لفائدة المزارعين والفلاحين. ولم يتضرر من أعماله إلاّ أصحاب السلطة الذين كانوا يشاركون المهربين في الأموال المحرّمة. فكاد له هؤلاء، وهُمْ له بالمرصاد، وساعدتهم الثورة المحلية التي نشبت حول مرعش، وأوعز الشرّيرون إلى زبانيتهم بإحراق مواسم مزروعات التبغ وإتلاف ما جمع منها وتخريب حقولها (كما تفعل عصابات المافيا اليوم)، مما عاد بالخسران المفاجئ على الشركة وعلى الفلاحين والمزارعين والمساهمين، فاضطروا إلى حل الشركة وراح يدفع قيمة الأسهم للمساهمين من جيبه الخاص كي يُسْكِت ألسنة المنافقين الذين كانوا يدسّون لهم إفتراءات تنال من الثقة به. وقد تسببت هذه البلية في فقدان ماله.

وفي عام ١٨٩٤م تسلّم وكالة المحكمة الشرعية بحلب، فنظّم ديوان المحكمة وضرب بيد من حديد على شهود الزور الذين كانوا يتجمعون عند بابها (المقابل لجامع المهمندار) يجلسون فوق المصاطب منتظرين من يكلفهم ـ مأجورين ـ بشهادة زور، (أولئك الذين يسميهم أهل حلب شهود المصطبة). وثارت ثائرة هؤلاء ـ وأكثرهم

متعممون وحملة مسابح متظاهرون بالتدين ـ ووصلت شكاوى هؤلاء إلى شيخهم الأكبر فرأى في هذه المناسبة فرصة سانحة لإبعاد «الكواكبي» عن المحكمة الشرعية، فاستصدر أمراً بعزله عن نيابتها، كما سلف من حديث «كامل الغزي».

واستمرت لعبة جرّ الحبل بين «الكواكبي» والسلطة ومن هو من ورائها، وعُيِّنَ «الكواكبي» رئيساً للجنة بيع حق الانتفاع من الأراضي الأميرية التي رقبتها للسلطان[١٠]، فراح يوزّعها على الفقراء ويحجبها عن المتسلطين ورجال السلطة والبكوات والباشاوات، فما عتم أن أقيل من وظيفته هذه أيضاً بمساعي هؤلاء لدى من بيده أمر الشورى لدى السلطان الأحمر.

ومرّت عليه، وهو في هذه الحال، بضع سنوات أكمل خلالها بناء الدار العظيمة التي اشتراها من آل القدسي في حي الفرافرة، ممّا وفّره من مزرعته في قرية «عسّان» (التي لم يقدم أهلها على تخريبها وغصبها كما فعل سواهم في قرية: «الريحانية») واختار له غرفة علوية منها في قسم «الحرم» تطلّ على حوش الدار حيث تصدّرها السلسبيل

---

(١٠) «الأراضي الأميرية» هي أراضي سائر بلاد الشام: سورية ولبنان والأردن وفلسطين وتركية، خارج أماكن السكن، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني إرادة سنية «فرماناً» بتملكه لرقبتها لنفسه ولأسرته من بعده بما فيها من مشيدات ومساكن، لا يجوز لإنسان أن يملكها، وأعطى الحق لنفسه فقط بتفويض استثمارها لمن يدفع رشوة بها بمزاد علني للوالي الذي يقبض حصته منها ويبعث بالمبلغ إلى السلطان مع اقتراح اسم المستثمر. حتى أن تسعين في الماية من أراضي مدينة حلب الحالية على سبيل المثال، كانت أميرية ولا يزال كثير منها لم يتحول إلى ملك. على أنه يجوز لورثة المنتفع أن يرثوا الانتفاع منها وللأنثى منها حظ الذكر حسب اشتراط السلطان وحريته بالتصرف بملكه.

وكان السلطان لا يسمح بسلخ شبر واحد من ملكيته لهذه الأراضي مهما بلغ الثمن، لأن أي ثمن، مهما عظم، لا يمكن أن يعادل ما يرد إليه من رشوات دائمة من أصحاب حق الاستثمار. فضلاً عن أن أي إخلال منه في تطبيق هذا القانون سيؤدي إلى تتابع الاخلال به وخاصة ممن سيأتي بعده من أولياء عهده.

وهذا الأمر بالذات هو الذي جعل السلطان يرفض بيع أراضٍ في ولاية فلسطين للصهيوني «هرتزل». واليهود الذين ضربوا العرب بسلاح السلطان الأحمر نفسه، راحوا الآن يتصرفون بهذه الأراضي الأميرية على أساس أنها للسلطنة لا للأفراد وأنهم قد حلّوا محل السلطان في ملكيتها!، وراحوا يسترجعون ملكهم كلما أرادوا في أية بقعة من الضفتين.

فالدافع للسلطان عبد الحميد ليس دينياً كما راح يظن كثير من الكتاب وإنما دافعه الحفاظ على قانون أصدره أبوه السلطان ونظّمه ليكون أبدياً له ولأسرته من بعده فلا يثلم من أي طرف كان. ولو كان الدافع دينياً لما سمح بتأسيس «الوكالة اليهودية» لتهجير اليهود إلى فلسطين في مدينة يافا سنة ١٩٠٨. (راجع كتاب التوفيقات الإلهية، تحقيق محمد عمارة، ص ١٣٨٨).

والحوض الكبير وقد جهد في تشكيلهما وترصيعهما بالقاشاني الذي استجلبه من داره بحي الجلوم[١١]، ليكتب مسوّدات كتبه.

وكأني به قد ألهَمَتْه حادثة مأساوية لينكبّ على كتابة كتابه عن «الرق في الإسلام»[١٢] وهي حادثة «حجاب النور» الفتاة السودانية، التي حدثتني بذاتها عن حادثة خطفها. وتفاصيلها في كتابي الذي أسميته باسمها «حجاب النور» بعد أن أخفقت كما أخفق جدي وأولاده بإعادتها إلى بلدها بعد وفاة جدي ووالدي حيث توفيت في حلب عن عمر يناهز السبعين محملة إياي سلاماً إلى أمها إذا اجتمعت بها!!.

وراح يتابع كتابة كتبه وأبحاثه سرّاً. واعتقد بأن أكثر ما كتبه وما نقل عنه قد جرى على قلمه في هذه الغرفة العلوية (التي ولدت أنا وأخوان لي فيها). وأن تقديراً لأوقاته التي تسنح له للكتابة خلال إقامته في مصر بعدئذٍ، ورحلاته الطويلة المهلكة في الأقطار الأسيوية والإفريقية، لا يتيح الاعتقاد بأن ما كتبه كان كله في مصر، إنما يرجح أنه كتبه في حلب. وقد احتفظ بكره (عمي «الكاظم») بقلمه بعد وفاته وهو الآن من مقتنياتي التاريخية التي تخصه.

ومرت أيام عصيبة على الرجل كان ينفق خلالها من مال اقترضه، إذ لم تعد لديه تجارة ولا زراعة ولا أية موارد أخرى، فلقد استهلكت داره الجديدة ما لديه، فأمهله المرحوم «جرجي خياط» في أمر الدين الذي أمده به إلى ما بعد إعادة أملاكه المصادرة

---

(١١) ذلك القاشاني هو القاشاني الذي كان يصنع في مدينة حلب منذ ثلاثماية عام ويضارع القاشاني الإيراني، وقد امتلأت به دور بني «الكواكبي» الأربع في حي «الجلوم الصغري» ثم نقل منه «الحسن الكواكبي» (المؤرخ المعروف) إلى الدار التي أكمل بناءها بعد أبيه «أحمد» الذي اشتراها من ورثة «جان بولاط» كما اشترى ما جاورها من دور «بني عبد السلام» و «بني الأصبع» وهدمها وأشاد مكانها البناء الهائل الذي لا يزال أكثره باقياً حتى الآن في ملكية «وقف الكواكبي الزهراوي». وتُمْكِنُ مشاهدة الدار في فيلم «تراب الغرباء» الذي يأتي على سيرة مختصرة لعبد الرحمن الكواكبي حيث جرى تمثيل بعض فقرات الرواية في الدار ذاتها. ولكن اسم «دار جنبلاط» بقي على ألسنة الناس رغم زوال بنائهم بالبناء الحديث!.
ولا نجد من هذا القاشاني، في غير هذه الدار، إلاّ في الجامع الأموي والجامع العادلي، وعلى السلسبيل الذي أنشأه «عبد الرحمن الكواكبي» في دار الفرافرة والذي نقلته مديرية الآثار ونصبته خلف المتحف الوطني بحلب.

(١٢) «حجاب النور» هي تلك الفتاة اليافعة التي خطفت من ظاهر مدينتها «سنارة» في السودان، وقد سردت قصتها في البحث التالي عن كتاب «الرقّ في الإسلام».

في حلب وفي قرية «الريحانية» (أرتاح) وفي قرية «عسّان». ومما زاده ضغثاً على إبّالة ما غرّمه من قيمة الموانع الحديدية للأسواق وفروق رواتب موظفي البلدية، وتوقف عن متابعة إنشاءات كثيرة في بيته الجديد.

وعلى عادة السلطان المستبد الذي كان يضطهد الأحرار حتى ينتهي بأحدهم إلى إحدى طريقين: الغرق في البوسفور من كوة في أرض قصره أو قبول الرشوة بالمال والسلطة فيصبح المرتشي من أتباع السلطان وزبانيته وجواسيسه وعبيده. ورفاقاً للأصول التي روعيت من قبل السلطان في هذا الشأن، حينما يدرك أن الشخص الخطير على سلطانه قد افتقر وأمسى في ضيق من العيش وأنه يكون أقرب مسافة بينه وبين قبول الرشوة، فقد أوصلوا له «عرضاً من السلطان الأحمر بأن يوليه قضاء «راشيا»، لعله ـ إذا قبل ـ يمسي بعيداً عن بلده وعشيرته أولاً، ويجعل منه عاملاً من عمال السلطان. فوسّط لديه اثنين من فرع الأسرة القديم في استنبول هما: «عطاء الله باشا الكواكبي» والي بغداد و «نجم الدين أفندي الكواكبي» شيخ الإسلام وخال «عطاء الله باشا» اللذين استدعياه إلى الآستانة وعرضا عليه رغبة الإرادة السَّنِيّة في هذا الشأن. وكانت زيارته تلك المدينة سرّيّة في بادئ أمره ولكن جواسيس السلطان وأبي الهدى اكتشفوا وجوده. واعتقد أن من سوء التدبير أن إبنه «الكاظم» كان معه في استنبول وكان غير حريص على التخفي مما جعلهم يكشفون مكان أبيه.

وقد لعبت الصدفة دورها إذ التقى بـ «أبي الهدى» لدى شيخ الإسلام، وسأله عن سبب حضوره إلى الآستانة ولامه على عدم الاتصال به، وتبرّأ له من كل ما أحاق به من إساءات وبالأخص تلك التي كان يعتقد أنه هو سببها فنسبها إليه في محاكمة بيروت. وتوسّط صاحب الدعوة بينهما وأظهر «الكواكبي» أنه قبل تلك التفاسير كي لا يكشف عن سبب وجوده في الآستانة والتحريات التي كان يقوم بها سرّاً عن أعمال السلطان وزبانيته وعن طرائق استبداده، مما شرحه «كامل الغزي» في ثُبْتِهِ سالف الذكر. حتى أنه ـ وهو يعلم علم اليقين أن رسائله إلى أهله بحلب سيفتحها جواسيس السلطان من موظفي البريد ـ عمد إلى تسريب كلمات بواسطتهم إلى «أبي الهدى» من خلال رسالة باللهجة العامية بعث بها إلى إبنه أسعد الذي كان لا يزال على أهبة الانتقال إلى مرحلة الدراسة الإعدادية في شوال ١٣١٢هـ ـ آذار ١٨٩٥ أتى فيها على ذكر «أبي الهدى الصيادي» على أنّه يمكن أن يساعده في دخول الكلية الحربية يوماً ما! علماً بأنه ـ حينما كتب الرسالة ـ

كان قد ألزم من قبل «أبي الهدى» وسائر الرجال بوجوب ترك إقامته في «الخان» وقبول الإقامة في الدار التي أمر السلطان أن ينقل إليها بحفاوة موسّطاً «أبا الهدى» في ذلك فقبلها «الكواكبي» من باب اتقاء أية مؤامرة قد تتعرض لها مهمته (مما أشار إليه «الغزي» في ثبته). وأدرك ـ متأكداً ـ أن إقامته في المكان قد أمست إجبارية وأن تحركاته مراقبة، وأنه لن يتمكن من العودة إلى أهله حرّاً إلاّ إذا أعلن خضوعه للسلطان وقبل منصب قاضي «راشيّا» التي تعتبر منفىً مختاراً لبعدها عن حلب، فضلاً عن أنها تحول دون إتمام مسعاه في التحقيق عن أحوال الاستبداد في مقره وعاصمته.. ولا شك عنده في أن أية إشارة من السلطان ـ إذا أعلن عن رفضه تلك الرغبة ـ قد تودي به إلى الغياب في قعر «البوسفور» وهو على كرسيه حول مائدة الطعام في القصر الذي دعي إليه.

وبعد إرسال الرسالة بأيام وقبل أن يعطي أي جواب حول عرض السلطان عليه منصب قضاء «راشيّا»، ذلك العرض الذي لم تصدر به الإرادة السَّنيّة بعد هربه من القصر بصورة سرية لم يخبر بشأنها أحداً حتى أقرباءه: شيخ الإسلام «نجم الدين أفندي الكواكبي» و «عطاء الله باشا الكواكبي» اللذين كانا قابعين ينتظران نتيجة عرض السلطان لديه بفارغ الصبر.

ووصل خبر هروبه إلى السلطان ـ على ما أثبته «الغزي» من معلوماته الخاصة ـ وأدرك أن قد فاتته إمكانية التخلص منه في الآستانة إذا هو رفض الخضوع له، فراح يتدبر أمره بواسطة من له الشورى.

وبالفعل، فلم تمضِ أيام على عودته إلى حلب حتى فوجئ ـ في طريق عودته إلى بيته، وعند منعطف «المدرسة السيّافية» إلى القبو المعتم المجاور ـ برجل ملثّم يهاجمه ويطعنه بسكين. فصاح جدّي منادياً: «بيدروس... بيدروس.... عليك به» (وبيدروس هذا هو خادمه الذي كان يرافقه عادة خلا تلك اللحظة!) وكأن مناداته له حالت دون تثنية الطعنة، وأن المعتدي يعرف «بيدروس» هذا، وكان يراقب وينتظر غيابه لينفرد به لوحده، فتوهّم أن «بيدروس» لاحق به فعلاً، فأطلق ساقيه للريح. وزحف جدي جريحاً إلى أقرب بيت فأوصلوه حَمْلاً إلى بيته.

وضجت المدينة وتهافت الناس إلى بيته الذي يتسع للمئات، رغم مَنْعِ الوالي زيارته وأمره بالقبض على أتباعه، إلى أن ضاق ذرعاً بالاضطهاد الموجه إليه وإلى أهله وأصحابه، فانزوى في بيته منكباً على كتابة كتبه. وتأصّلت لديه فكرة الهجرة إلى مصر

التي كان قد حضر لها كتاباته خلال ست سنوات من بعد عودته من استنبول، لينشرها هناك في مجتمع حرّ من سيطرة السلطان، وقبل أن يحاول الصيادي الذي قلب له ظهر المجنّ مرة ثانية بعد فشل الأولى التي استهدفت قتله. وقد مهّد لهجرته برحلة أولى استغرقت عام ١٣١٦، جال خلالها البلاد العربية، انتهت بعودته إلى حلب في ذي الحجة، مروراً بالقاهرة التي قدّم فيها سجلات مؤتمر «أم القرى» لطباعته. وخلال الشهر استدعى صديقه «عبد الحليم جوده» وأسرّ له عزمه على الهروب، وعقد اجتماعاً له مع زوجته وإبنه الكبير «الكاظم» وبحث الجميع أمور الأسرة وقيام السيد «عبد الحليم» برعايتها طيلة فترة غيابه على أن يهيّئ للجميع أمور الإلتحاق به إلى مصر بعد عودته من رحلته الكبرى التي كان مزمعاً عليها، وبعد أن تصلهم منه إشارة سرية بـ «تلغراف» تفيد بوجوب القيام بذلك.

وعلى الفور من الاتفاق أرسل «الكواكبي» برقية إلى المابين السلطاني في الآستانة تفيد قبوله منصب القضاء في «راشيّا». ولم تمضِ أيام حتى وافاه الفرمان السلطاني بتعيينه في ذلك المنصب. فأعلن أنه ينتظر انتهاء مدة صلاحية القاضي الذي كان فيها، من باب المجاملة وحسن التصرف. ولكنه في هذه الأثناء كان يرتّب أمور سفره السري.

حتى كانت غرة ذي الحجة عام ١٣١٧هـ ـ ٢ نيسان ١٩٠٠م، فقد رهن بيته الذي أنشأه في حي «الفرافرة» والذي كان مسجلاً باسم زوجته «فاطمة الكحيل»، بعقد بيع بالوفاء صادر عنها وبحضور شهود العقد وهو من جملتهم، لدى السيد «أحمد آغا هنانو» بمبلغ أربعماية عثمانية ذهباً.

كما أنه أبقى أرض وبستان «الكتّاب» مرهونتين لدى «جرجي خياط» الذي كان لا يزال يستثمرها منذ مدة. واعتقد أنه باع بساتين الورد التي كان يملكها والتي تسمى حتى الآن «بستان گل آب» (بستان ماء الورد) باللغة الفارسية. ذلك أنني وجدت مخططاتها بين أوراقه ومشروع إفرازها، كما وجدت حسابات واردات «الورد الجوري» الذي يجنى منها ويباع ليستخرج منه ماء الورد. وليست لدينا وثيقة بيعه لنعلم التاريخ ومقدار الثمن كما علمنا من عقد رهن داره.

وبعد خمسة عشر يوماً من رهن بيته وحصوله على المال كان سفره إلى مصر. وما أن وصلها حتى اشترى صيدلية في ميدان «العتبة» لإبنه البكر «الكاظم» الذي كان مرافقاً له كي تكون لهما مورداً مساعداً على العيش.

عبد الرحمن الكواكبي

و

أبو الهدى الصيادي

(٥)

الكواكبي وأبو الهدى الصيّادي

من هو «أبو الهدى الصيادي»؟

أبوه «حسن وادي» قَدِمَ من «عانة» بالعراق إلى موقع بين «مورك» و «شيزر» قرب «خان شيخون» و «معرّة النعمان». وضرب خيمته هناك وراح يصطاد الحيوانات البرية والأفاعي وسواها فعرف بـ «الصيّاد»، وصار مضربه يعرف بـ «بيت الصيّاد»، ثم أطلق الاسم على المكان حتى الآن وفيه قرية صغيرة اسمها الآن: «صياد». ذلك أن المكان قد عمّر لكثرة الرواد الذين كانوا يأتونه للفرجة على ألعاب الصيّاد ومقتنياته. وفي هذا المكان وُلِدَ «أبو الهدى» الذي عرف بنسبة «الصيادي» إلى «الصياد». فلمّا كبر انتقل إلى «جسر الشغور» ليعمل في البيطرة. وكان في المدينة إذ ذاك رجل فاضل مهاجر من اليمن هو «الشيخ محمد الأهدلي» الذي عرف بلقب «الشيخ اليماني» عالم ورع، هو جدّ «الشيخ محمد الأهدلي» مدير أوقاف حلب(١).

وكان «الشيخ محمد شيخ ديب» الأريحاوي (جد القاضي قدري المفتي نائب أريحا سابقاً» تلميذاً للشيخ «الأهدلي» الأول، وتخرج عليه رجل علم وأدب.

---

(١) «الشيخ محمد الأهدلي» عالم مشهور عين مديراً لأوقاف حلب في الأربعينات من هذا القرن العشرين، فضيّق على أصحاب الجرايات من المتعمّمين الجُهال وحَجَبَ الأتاوات التي تقدم لكل معتمّ دون أي مقابل وفي جملتهم كان المتسولون العميان الذين اتخذوا العمائم لنيل الجراية، فثار عليه المعممون والعميان ثورة كبيرة لم تتمكن الدولة من إخمادها إلا باستقالته، وكانت مهزلة من مهازل الحكم في سورية آنئذ.

وفي ذات يوم، أقفل «أبو الهدى» دكانه ودلف إلى مجلس «الشيخ اليماني» مستمعاً مع الرجال، وعاود حضوره. ثم ما لبث أن طلب من الشيخ مالاً يستعين به، فقال له الشيخ: لا تطمع، يكفيك مايتا ليرة! فقال: من أين؟ فقال: أنا أدعو الله أن يرزقكها، وما عليك إلاّ السعي.

واكتفى «أبو الهدى» بهذا الكلام المازح وراح يحدث الناس به، فأشار له زميل له يبيع الدواب أن يذهب إلى اللاذقية بدابّة من دوابه الجيدة ويبيعها هناك عسى الله أن يرزقه بربح عظيم إستجابة لدعاء الشيخ. وعلقت الفكرة برأس «الصيادي» فحاك لها أمراً ورواية، وغاب عن المدينة ردحاً من الزمن ثم ظهر وعاد يحدّث بما جرى له بسبب كرامة «الشيخ اليماني» إذ أنه ذهب إلى اللاذقية بدابة حقيرة على زعمه فأعجبت قنصل اليونان إذ كشف أنها أصيلة فاشتراها بمايتي ليرة ذهباً كما دعا له «الشيخ اليماني» تماماً. وراح يذيع حلول كرامة الشيخ عليه للناس فصدّقوا قوله. وصار من ملازمي زاوية الشيخ ورفيقاً وصديقاً لتلامذته ومنهم «الشيخ محمد الشيخ ديب».

ومرّت الأيام، وانتقل «أبو الهدى» إلى «إدلب» ليشرف على إصطبل «عبد القادر أفندي القدسي»(٢). وفي إدلب اشتهر أمره بالشعوذة وتلعيب الأفاعي والحشرات السامة والضرب على المزهر. ومنها كان يتجول في القرى، حاملاً كشكولاً(٣). وكان يقيم

---

(٢) حدثني بذلك عمي المرحوم «كاظم الكواكبي» مؤكداً أن «أبا الهدى» كان يعمل سائساً في إصطبل «عبد القادر أفندي القدسي» في «إدلب» ثم انتقل إلى إصطبله في حلب في حي «الفرافرة» بجوار «المدرسة السيّافية».

(٣) الكشكول هو غلاف ثمرة من فصيلة جوز الهند، عظيمة الحجم، يؤتى بها من جنوبي آسية، تنبت في جزر المحيط الهندي غير المأهولة، تشطر إلى شطرين طولانيين، يعلق أحدهما بحبل من طرفيه المدببين ويلف على الكتف. تتسع إلى ديسيمتر مكعب حتى الديسيمترين من المأكولات التي يتصدق بها الناس على المتسولين الذين يدّعون الصوفية ويجوبون بها الآفاق، ويسميهم أهل حلب «القلندرية». ولا أعرفهم أنا وإنما هو المرحوم «علي ميسّر» الذي عمّر طويلاً هو الذي وصف لي هؤلاء إذ هو شاهدهم كثيراً لكثرة تردّدهم على سوق «سويقة حاتم» وعلى مخزنه الكبير المعروف. ثم شاهدت صورة الثمرة التي تُحَوّل إلى «كشكول» في شريط سينمائي أوروبي. وأحتفظ بمثل هذا الكشكول في بيتي. إلاّ أنني شاهدت كشكولاً بالشكل المقلد نفسه، مصنوع من النحاس المنقوش بآيات كريمة وزخارف بديعة الصنع، من صناعة إيران، سبقني إلى شرائه رجل لا أعلم من هو. وفي كتاب «المسامير» لـ «عبد الله النديم» المصري صورة لـ «أبي الهدى» وهو يحمل هذا الكشكول، لا أعلم كيف حصل عليها أثبتها في ذيل كتابي هذا.

حفلات الألعاب هذه في بيت «القدسي» بحضور أصدقائه وكبار الموظفين.

وأعقب ذلك تعيين «عبد القادر أفندي القدسي في وظيفة كبيرة في الآستانة (كما قال «الغزي» في ثبته سالف الذكر). فترك «إدلب» مكلفاً «الصيادي» بملازمته إلى «استنبول».

ولمّا كان «أبو الهدى» مثابراً، طيلة أوقاته على ألعاب الشعوذة وتعاطي السحر مما يتقنه الغجر مع ضرب الرمل ونقر الدف والترتيل للمجانين والمرضى على نية الشفاء، فقد استمر على عادته، وهو في استنبول، يحضر السهرات في بيت «عبد القادر أفندي القدسي»ويضرب الرمل لأصحابه ويقرأ البخت. فقامت بينه وبين صاحب البيت صداقة متينة أشار إليها «الطبّاخ» في تاريخه.

وقد أرّخ «محمد سليم الجندي» في «تاريخ معرّة النعمان» للصيادي قائلاً:

[المعمّرون من أهل المعرّة وضاحيتها ينكرون نسبة هذا البيت إلى الصيّاد أو الرفاعي، ويزعمون أنهم لم يعلموا من أمره شيئاً قبل أن تسمو مكانة أبي الهدى. وأن أباه «حسناً» كان شيخاً أمياً فقيراً يطوف بالمعرّة وضواحيها فيقرأ على قطعة من السكر للوقاية من لسع العقرب والحية وكان يأخذ عن كل واحدة درهماً أو نصف درهم. وكان ينال من صدقات الأعراب ويرقي المرضى والصرعى وأولي العاهات. وربما صحب إبنه «أبا الهدى» في بعض رحلاته وهو صغير، فلمّا شبّ عني بتعلم ضرب المزهر فحذقه وكان حسن الصوت فجعل يختلف إلى منازل الأشراف والكبراء من أهل المعرة وحماة وحلب. ولقد رأيت «فارساً بن أحمد القطيني» وهو ممن ولد ونشأ في «خان شيخون» ثم سكن المعرة ولقيته فيها سنة ١٣٥٧هـ وكان عمره زهاء ثمانين سنة فسألته عن حقيقة أمر «أبي الهدى» وقومه فقصّ عليّ خبره، ثم تفرّس فيّ إنكار بعض ما يقوله فقال لي: «كأنك تشك فيما أقول أو تظن أني أتحامل على الرجال. إعلم يا أخي أنني أعلم أنني بين الحياة والموت وأنا إلى الموت أقرب، ومعاذ الله أن أختم حياتي بحديث مفترى على رجل قد مات». فوثقت لقوله. وكان خلاصة ما قاله لي: «إن علياً بن خزام» وأخاه «حسناً» كانا من عرب «الدبس» من إلحاق «بني خالد»، وكانا يرعيان غنماً في «خان شيخون». وإن «حسناً بن علي» سمّي «وادياً» لأنه ولد في واد يقال له: «وادي الخنازير» بين «التمانعة» و «الخان»، وكان راعياً أيضاً في «خان شيخون». وإن «حسناً» هذا تزوج إمرأة يُقال لها «صُليح» كانت زوجة لرجل يُقال له «عليوي المجو» من «عرب السماطية»

من إلحاق «الموالي». ـ وكان «عليوي» راعياً فولدت له ابنة سماها «خلورة» ثم ولدت «أبا الهدى». وكان هو وأبوه يطوفان في مضارب العربان يأخذان صدقاتهم. ثم طمحت نفس «أبي الهدى» للظهور فأخذ يعدّ جمعية للإفساد في داره، وكان «أحمد القطيني» ـ والد المحدّث ـ رئيساً للبلدية في حماة في ذلك العهد فكتب إلى ولده الثاني «عبد الرحمن» أن يهدم دار «أبي الهدى» ـ وهي قبة من لبن ـ ويطرده من القرية، ففعل. وذهب هو ووالده إلى «جسر الشغور» لأنه كان قد تزوج إمرأة يُقال لها «حليمة بنت محمد قنبر» من قرية «كفر دبّين» من قُرى «الجسر»... ثم ذهب إلى حلب واتصل بمفتيها «الشيخ بهاء الدين» وسأله أن يسعى له ليكون نقيباً للأشراف في «الجسر» ولم تكن هذه الوظيفة في ذلك العصر لأن أهلها كانوا نصيرية، فسعى له[٤] ووافقت الحكومة على ذلك لمصلحة سياسية. ثم، بعد أن ولّي النقابة ذهب إلى بغداد حاملاً نَسَباً من «الشيخ محمد البغدادي» وادعى أنه من ذويه. ثم ذهب إلى الآستانة، وبواسطة «عبد المجيد الخرضجي» إتصل بـ «آصف باشا» ومدحه بأبيات ذكر منها:

فبالإحسان والحسنى جزاك الله يا آصف

وإن أباه «حسناً» تزوج إمرأة يُقال لها «شموس بنت بكّور الحموري» من قرية «معرزيتا» وكان ساكناً في «خان شيخون» ناطراً للكروم[٥]، وذلك في حياة «صليح» أم

---

(٤) اعتقد جازماً أن «الصيادي» نفسه قد أشاع هذه الإشاعة الكاذبة عن مفتي حلب يومئذ بهاء الدين، ذلك لأنه هو والد جدي واسمه «بهاء الدين أحمد الكواكبي» ولا يعقل أن يكون «عبد الرحمن الكواكبي» قد حجب اعترافه بعضوية الأشراف عن «الصيادي» في وقت كان فيه، أو قبله بوقت قصير، أبوه قد سعى له بنقابة أشراف «جسر الشغور» حتى ولو كانت اسماً بلا مسمى للسبب الذي ذكره «الجندي» في تأريخه.

(٥) وقد نقل «أبو الهدى» جثمان أبيه إلى جانب «سبيل الحسبي» بحي «الباب الأحمر» وأقام عليه ضريحاً وتابوتاً أخضر ثم أشاد بلصقه قصراً عظيماً. وقد حدثتني عمتي المرحومة «عفيفة الكواكبية» أنها كانت زائرة عند إمرأة خالها «الشيخ عبد القادر سلطان» في مطلع حي «البياضة» المطلّ على مكان تشييع «حسن وادي» إلى ضريحه تتفرج على الجنازة، فقالت لها إمرأة خالها: هل تعلمين يا عفيفة لمن هذه الجنازة الفخمة؟ فقالت: كلا. فقالت: هذه جنازة «حسن وادي» الذي جاء إلينا مع بغلته حاملاً لنا «ضرف الزيت» من الخان إلى داخل القبو في الموسم المنصرم، فتعجبت عمتي وسألَتْها الشرح فشرحت لها بإن إبنه صار ساحراً عند السلطان. ولم تفهم عمتي شيئاً عن حقيقة الأمر لصغرها، ولكن القصة استقرت بغرابتها في ذهنها حتى علمت ما علمت من أمر «أبي الهدى» مع أبيها، بمناسبة محاكمة بيروت.

«أبي الهدى»، فولدت منه ولدين: «عبد الرزاق» و «نور الدين». ثم يتزوج......].

ويتابع مؤرخ «معرّة النعمان» ناقلاً ما قاله «محمد كرد علي» في مذاكراته (ج١، ص ٢٤٢):

«وقد علمتُ أن السبب في تقدم «أبي الهدى» هذا التقدم السريع هو أن امرأة ناظر الضبطية أُصيبت بمرض أعيى الأطبة وكان يحبّها حبّاً جمّاً، فتوسّل بكل ما يستطيع لمداواتها وإشفائها على يد الأطباء فلم يفلح، ثم وُصِفَ له «أبو الهدى» وما يطبّب به من تمائم وحجب وعوذ وما يقرأ من أدعية وعزائم ورقي، فاستدعاه ليطبب زوجته بما عنده فداواها فبرئت بعد أيام فعظم مقامه عند الناظر وشاع ذكره في دار الملك وغيرها. ثم بعد أيام أصيبت إحدى محظيات «السلطان عبد الحميد الثاني» بعارض يشبه ما أصاب إمرأة الناظر، فاستدعاه السلطان لمداواة حظيته فبرئت بعد أيام. فكان ذلك فاتحة عهد لاتصال «أبي الهدى» بالسلطان.»].

كما أشار مؤرخ المعرة إلى أن [«أبا الهدى أراد أن يُفْهِمَ السلطان-أن له مكانة في البلاد العربية، فتزوج طائفة من بنات الأعيان مثل بنت «نورس باشا الحراكي» في المعرة، وبنت «عبد الحميد بك العظم» من حماة، وبنت «مرتضى أفندي الكيلاني» وبنت «أشرف بك بن ويسي باشا». وفي هؤلاء البنات من لم تكن هي وأهلها راضين عن هذا الزواج، ولكن حرص آبائهن على المنفعة وخوفهم من فواتها ومن شرّ «أبي الهدى» حملهم على أن يقدّموا بناتهم طائعين مع ما استطاعوا من مال ورياش»].

ذلك هو ثبت صاحب «تاريخ معرّة النعمان» وثبت العلامة المؤرخ «محمد كرد علي» صاحب «خطط الشام».

هذا وقد تدرّج «أبو الهدى» في مدارج الثقة والإطمئنان فصار يكشف للسلطان عن أعدائه ويخبره بالغيب **بإذن الله**، حتى غدا الملهم الأول للسلطان يوعز إليه بإغراق أحد المعارضين فلا يتأخر عن ذلك أو ينصحه بنفي آخر فيذعن له. حتى تذكّر، بين عشية وضحاها أيامه في «جسر الشغور» و «الشيخ الأهدلي اليماني» وملازمة «الشيخ محمد الشيخ ديب» فأوعز إلى هذا بأنه سيعيّنه مفتياً لقضاء «إدلب» وأشار إليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة بأن يكتب على لسانه كتباً وينظُمَ أشعاراً ينسبها إليه. بينما سارع هو إلى تعلّم العربية والتركية قراءة وكتابة، وكان له ما أراد. ونشرت الكتب التي حملت اسمه كذباً وبهتاناً. ويقول صاحب «تاريخ المعرّة»:

«وأما منزلة «أبي الهدى» في العلم فإن له رسائل نسبت إليه وهي تدلّ على أنه شدا شيئاً من العربية والفقه والتصوف. وليس فيما رأيته من رسائله ما يدل على تبحّره في علم.».

حتى أنه زوّر ماضيه وجعل من ربّ عمله صاحب الدكان لبيع رؤوس الغنم في بغداد ـ وهو محمد الروّاس الذي كان يعمل لديه أجيراً يحمل له الرؤوس في طبق على رأسه ويدور بها شوارع بغداد لبيعها، وذلك قبل استقراره في «جسر الشغور» ـ رجل علم كبير وأنه درس العلوم الدينية على يده. ذلك لأنه كان يخشى أن يكشف أهل بغداد أمره ويقول عنه من يعرفه إنه كان أجيراً عند ذلك الروّاس يبيع له الرؤوس! وقليلون هم الذين يعرفون هذا الأمر شخصياً ممن مرّوا ببغداد وأكلوا الرؤوس المطبوخة في دكان الروّاس. إلاّ أن حماي المرحوم «أحمد الغزّال» (وهو من مواليد ١٨٨١م) يعرفه حق المعرفة رجلاً أمياً في حال مزرية من الجهل والتخلف. إلاّ أن «الصيادي» جعل من الروّاس في كتابه الذي نسبه إليه رجل علم وفضل! وأكثر الناس ـ كما يقول صاحب تاريخ المعرة ـ يزعمون أن «الرواس» شخص موهوم لا حقيقة له اخترعه «أبو الهدى» وأضاف إليه أقوالاً وأعمالاً (ج٢، ص٢٢٢). والحقيقة هي أنه موجود فعلاً وبائع رؤوس غنم، ولكن الروّاس الفقيه العالم كما اختلقه فهو غير موجود!!

أما هدف «الصيادي» الأكبر فكان حصوله على اعتراف من أشراف حلب بانتسابه إلى آل البيت الذين كانوا يرفضون الإقرار له بذلك، وأولهم جدّي «عبد الرحمن» الذي كان «أبو الهدى» يعده بتسنيمه أعلى المناصب في السلطنة إذا هو أقرّ له بالإنتساب إلى آل البيت. حتى أنه أوعز إلى من استكتبهم أن يؤلفوا له تاريخاً يضمّ ذكر أسماء أسر الأشراف أورد بينهم نسب أسرة «الكواكبي» إلى آل البيت مرافقاً نسبه إليهم! ولكن ذلك لم يكن ليثني «الكواكبي» عن التمسك بالحقيقة التي لا ترقى إليها عنده المناصب والجعالات، فكان يرفض الدعوى الزائفة كما يرفضها سائر الأشراف. ومما ذكر في هذا الخصوص حادثة الكلمات المتبادلة بينهما عشية قدوم «أبي الهدى» للسلام على «الكواكبي» بعد عودة البراءة من بيروت، مما أسلفنا ذكره.

ولم يكن رفض «الكواكبي» الإعتراف بنسب «الصيادي» إلى الأشراف هو السبب الوحيد في معاداة الصيادي له وتحريض السلطة عليه، وإنما الحقيقة الكبرى كانت في

تصدّي «الكواكبي» لفساده وتسلّطه على الحكم وإطاحته بكل من يفكر في معارضة السلطة، ولنشره البدع الدينية السيئة وتسخيره الطرق الصوفية للشعوذة والابتزاز والقعود بالناس عن علو الهمم بنشر «الغيبيات» والسحر والتنجيم، فيخلق لشخصه الأتباع والمريدين والتلامذة الذين أعمى بصيرتهم بتلك الوسائل. ولم يكن ذلك بعيداً عن وسيلة «الحشّاشين» الذين يتخذون الأتباع والفدائيين تحت تأثير المخدر، أو استخدام الأتباع لقاء منصب.

إلى أن كان الانقلاب العثماني حيث ألقي بـ «الصيّادي» من غرفته بسجنه إلى الشارع، ثم سحله أهل استنبول في شوارعها بصورة شنيعة أثارت نقمة الكثيرين من أصحابه لمنافاتها الشريعة الإسلامية وتقاليدها، على ما حدثنا به المرحوم أستاذنا «محمود الصابوني» في أثناء دراستنا منذ زمن بعيد على أنه قد حضر الحادث شخصياً. مضيفاً بأن بعضاً من الذين قبض عليهم معه ثم أفرج عنهم كانوا يسألونه وهم مقيدون: ألست كنت تقول للسلطان مطمئناً أنك قادر على إهلاك أعدائه بتعويذة وقراءة تجعلهم هباء منثوراً، فلم لا تفعل ذلك الآن؟ فأجابهم: «كانت كذبة، وغفر الله لي عمّا فعلت»! وقد شمت به أولئك ورووا اعترافه لرجالات العرب في استنبول بعد إطلاق سراحهم.

ولقد وصف صاحب «تاريخ المعرّة» مقتل «الصيّادي» وصف مؤرخ ناقل غير مشاهد فقال:

«فلما كانت سنة ١٣٢٦هـ سنة ١٩٠٨م، ثارت جمعية «الإتحاد والترقي»(٦) على السلطان عبد الحميد وانتزعوا السلطة من يده وقبضوا على أتباعه وأصفيائه، ومزقوهم كل

---

(٦) «الإتحاد والترقي» هي جمعية «تركية الفتاة» إذ غيرت اسمها. وقد ضمّت كبار الشخصيات العربية والتركية حتى أنها افتتحت منتدى لها في حلب وكان من أعضائها «الشيخ محمد حنيف» و «الشيخ كامل الغزي». ولكن هذه الجمعية لم تلبث أن قلبت ظهر المِجَنّ للعرب والأرمن والأكراد بدافع عنصري مقيت مما أشار إليه المرحوم «مولان زاده رفعت بك» في كتابه «الوجه الخفي للانقلاب العثماني» الذي كتبه سنة ١٩٢٩ بالتركية وطبعه في مطبعة «الوقت» بحلب والذي قمت بنشره في التسعينات بعد ترجمته إلى العربية بقلم الدكتور «توفيق برو»، وكان عضواً بارزاً في الجمعية ومن قادتها ولكنه كان حراً فغضب للتصرف العنصري وثار على رفاقه فحاربه الإتحاديون العنصريون ونفاه «مصطفى كمال» إلى حلب بعد أن اكتشف أنهم من «يهود الدونمة». وقد أغلق «الشيخ كامل الغزي» ورفاقه المكتب بحلب بعد أن انكشف أمر العنصريين الطورانيين وحوّلوه إلى «المنتدى العربي» الذي بايعوا فيه «فيصلاً» ملكاً على سورية.

ممزق، وكان ممن أصابه رشاش من أذاهم «أبو الهدى» فقد نهبوا داره، وشتتوا أنصاره، وأوسعوه إهانة وسبّاً، وأذاقوه من النكال والبؤس في ساعة واحدة أضعاف ما أصابه من السعادة والترف في جميع أيامه الغابرة، وقد مات من شدة الضرب ودفن في التكية التي ابتناها في «بشكطاش» في الآستانة، وانطوى معه ذلك الحسب الذي كان هو أساسه، وانطفأ النسب الذي كان هو نبراسه، وكان الهبوط بقدر الصعود، فسبحان من لا يحول ولا يزول».

ولمّا كان الشيء بالشيء يُذكَر، وبما أن حماي المرحوم «أحمد الغزّال» كان قد شرح لي كيفية انتحال «أبي الهدى» لكتبه ومنظوماته على يد «الشيخ محمد الشيخ ديب»، فقد روى لي الحادثة التي تلت مقتل «أبي الهدى»: ذلك أن وفداً مؤلفاً من - «كامل أفندي الكيالي» من مدينة «إدلب» و «حسين التوامي» من قرية «يقسمته» والشيخ «أحمد أفندي الملا الكيالي» وآخرين معهم، وهو بينهم، ذهبوا إلى بليدة «أريحا» التابعة لـ «إدلب» وقابلوا «الشيخ محمد شيخ ديب» وطلبوا منه أن يستقيل من منصب الإفتاء الذي منحه إياه «أبو الهدى الصيّادي» بعد وفاة المفتي السابق «الشيخ طاهر أفندي العياشي»، لأن الناس جميعاً يعرفون ثمن هذا المنصب، وهم يخشون على حياته أو كرامته وهو رجل علم مرموق، بعد أن قتل «الصيادي» في إهانة كبيرة، وأن يكون معهم في تولية «الشيخ برهان الدين أفندي العياشي» في هذا المكان لأنه رجل علم ودين وأخلاق. ولكن «الشيخ محمد» رفض في بادئ الأمر، فجاءوه بمن وصف له نهاية «الصيادي» فخاف على نفسه وقدّم إستقالته. واجتمع الأهالي في «إدلب» ونصّبوا «الشيخ برهان الدين العياشي» (المعروف باسم «برهان») مفتياً بقرار شعبي لم يلبث أن صدر به قرار رسمي. كما عُزل أبناؤه عن وظائف «الدعاجيّة»(٧).

(٧) «الدعاجيّة» واحدهم «دعاجي» بالتسمية التركية، وهو من توظفه السلطة ليكون حاضراً دوماً في مناسبة أو إحتفال أو عيد ليسير على بعدٍ قليل من الموكب محرّضاً الناس على الدعاء للسلطان خليفة المسلمين، رافعاً يديه إلى الأعلى مشيراً إليهم برفع الأيدي والدعاء. وواحدهم معفي من الخدمة العسكرية لهذا السبب ويتقاضى جعالة شهرية. وقد حدثني عنهم حموي المرحوم «أحمد الغزّال» ذاكراً أن منهم من كان رجلاً طيباً ومنهم من كان سيّئ الأخلاق، ولم يوافق على ما وصفتهم به أنا من أنهم كلهم من فئة المنافقين الكاذبين ذلك لأن «أحمد أفندي الملاّ» كان منهم وهو الذي أجبر «الشيخ محمد شيخ ديب» على ترك منصب الإفتاء عقب مقتل «الصيادي».!!

بقيت هذه الحكاية في ذهني حتى اجتمعت ذات يوم، عند زميلي القاضي «صالح بن شعيب الكيالي» المحامي العام الأول بحلب في سنة ١٩٨٠ بالقاضي السابق «قدري المفتي» ـ سالف الذكر ـ بطريق المصادفة، فانتهزت الفرصة سائلاً إياه عن قصة «أبي الهدى الصيّادي» مع جدّه «الشيخ محمد الشيخ ديب» وعن تاريخ بدء صداقتهما وتعارفهما وأسباب ذلك وعن زاوية «الشيخ الأهدلي اليماني» بـ «جسر الشغور». فإذا به يردّ عليّ بعصبية ظاهرة منكراً صحة الشائعة. فقلت له: أية شائعة؟ وأين سمعتها أنت؟ فأجابني شارحاً تلك الأقاويل بأن أستاذه «مصباح بك محرم» أستاذ مادة «صك الحقوق» بكلية الحقوق بدمشق صادفه على سُلَّم الكلية حينما كان هو صاعداً وذاك نازلاً، فسلّم عليه فرد عليه السّلام قائلاً له: «هل تعرف يا «مفتي» أن جدّك رحمه الله هو صاحب الفضل الحقيقي في كتابة كل ما نسب إلى «أبي الهدى الصيّادي» من كتب وأنه هو كاتبها وأنه نال أجراً على ذلك بتعيينه بمنصب الإفتاء على «قضاء إدلب» ومن هنا عرفت أسرتكم بلقب «بيت المفتي»؟!».

وزاد الأستاذ «قدري» على ذلك بأنه راح يسأل عن هذا الخبر فعلم أنه غير صحيح وأن الصداقة التي كانت بين «الشيخ محمد» و «أبي الهدى» كانت صداقة شريفة غير مبنية على منفعة وأن «أبا الهدى» رجل عالم وكاتب نحرير وقد قرأ كتبه.

حملت ما دار بيني وبين «القاضي المفتي» إلى حميّ «أحمد الغزّال» ببيروت حيث أمضى رحمه الله أواخر عمره الذي جاوز المایة عام، وكان في مرض الموت يُقاسي آلاماً مبرحة قضت عليه بعد أيام فقال لي: صحيح ما قاله «مصباح بك محرم» فقد كان مطلعاً على أسرار الموضوع من يوم وجود «أبي الهدى» بـ «إدلب» عند «عبد القادر أفندي القدسي» حيث كان يخوّف الأولاد بالأفاعي والعقارب وأدوات السحر، ويعرف كيفية وصوله إلى الآستانة واتصاله بـ «الشيخ محمد شيخ ديب» أحد الرجال الذين كانوا يلازمون زاوية «الشيخ اليماني» بـ «جسر الشغور»، وأن «مصباح بك» هذا كان رئيساً لمحكمة البداية في «إدلب» ثم أستاذاً في الجامعة، وهو رجل مستقيم ومشهود له بالأمانة والعلم وكنّا نثق بعدالته ودينه وعلمه.

وهكذا ربطت حديث حميي بحديث «مصباح بك محرم» بحديثي مع «قدري المفتي» لتطابق المسار في الأحاديث ولأمانة الأستاذ «المفتي» في نقل ما دار بينه وبين

«مصباح بك محرم» في كلية الحقوق سنة ١٩٢٥ وقد أعلمني حموي أن «مصباح بك محرم» من مواليد سنة ١٨٥٥ تقريباً. (فهو من عمر جدي عبد الرحمن الكواكبي).

ذلك هو «أبو الهدى الصيادي» أبرز شخصيات العهد العثماني ومن أذكى الرجال المشهورين بلطافة الحديث ودماثة الخلق وحسن الوجه والجاذبية التي تتجلى في سيمائه، على ما حدّثنا به أسلافنا. فضلاً عن اشتهاره بتلبية الرغبات لما فيه من يدٍ طولى في المابين السلطاني مما سهّل له أن يغرس الكثير من الأتباع والموالين حتى من الكتاب والشعراء الذين كانوا ينشرون كتباً منسوبة إليه. فاشتهر وذاع صيته في سائر أنحاء الأمبراطورية العثمانية، كما ذاع صيت «راسبوتين» الذي شفى إبنة قيصر روسيا «نقولا الثاني» فسيطر عليه وعلى زوجته وسائر أفراد قصره ودولته. حتى أن الكاتب الروائي الأرمني المشهور «يروانت أوديان» أتى على ذكره في روايته الشهيرة «السلطان عبد الحميد والانقلاب العثماني» إذ حكى عن سعي السلطان لكشف المؤامرات بواسطة «ماك لاين» الإنكليزي الذي عرف باسم «شرلوك هولمز» وعن ساحر السلطان المشهور (أبي الهدى) الذي استدعاه ليكشف أفراد العصابة فلم يتمكن.

كما أن «الصيادي» راح يستعين بـ «الشيخ توفيق بن محمد أبي السعود الأيوبي» (المتوفى سنة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م في دمشق) ليؤلف على لسانه كثيراً من المؤلفات، على ما في «حلية البشر» للـ «بيطار».

وبناء على ذلك كله يمكننا أن نقول: إن «الصيادي» لم يكن له مثيل في التاريخ الحديث للبشر والدول. إذ لم يعرّفنا التاريخ على رجل انتقل من صفوف الرعاية والشعوذة والرقص وإدارة قبة الفساد ـ التي هدمها رئيس بلدية حماة «أحمد القطيني» وطرده من القرية التي أقامها فيها ـ إلى قبة «سراي يلدز» في الآستانة في أعظم سلطة على الدولة والسلطان، على ما بين القبتين من تعادل في الفساد مع اختلاف النوع وفي المكان وطراز الحياة، وربما مع الاختلاف أحياناً!

وللمراجعة التاريخية بشؤونه يمكن ـ بل يجب ـ الرجوع إلى «تاريخ المعرّة» لـ «محمد سليم الجندي» و «خطط الشام» لـ «محمد كرد علي». وكتاب «المسامير» لـ «عبد الله النديم» وإلى كتاب «الشيخ رشيد رضا» الذي طبع أخيراً على ما بلغني ـ في بيروت خلال هذه التسعينات.

عبد الرحمن الكواكبي
رحلاته وهجرته إلى مصر
(٦)

إن كان على المؤرخ الدقيق أن لا يكتفي بالعودة إلى مرجع واحد وإنما إلى النصوص التاريخية التي تساعد دراستها على استنباط تأريخ رحلات «الكواكبي»، فإننا ـ في موضوع هجرته من حلب ـ لا بدّ لنا من الكشف عن النصوص المختلفة ومقارنتها ومحاولة التوفيق فيما بينها أو إهدار بعضها لمصلحة البعض الآخر الذي تثبت صحته، لتحديد التاريخ على الوجه الصحيح.

ومن أجل ذلك فإنني أُدرج تالياً الثوابت التي حققتها واستنتجت منها النتائج المتعلقة بتاريخ رحلاته، وهي التالية:

بشأن الرحلة الأولى سنة ١٣١٦هـ

١ ـ ما أثبته المؤرخ «كامل الغزي» في ثبته سالف البيان.

٢ ـ ما جاء بقول «الكواكبي» في كتاب «أم القرى» من تحديد لتاريخ رحلته.

٣ ـ ما جاء في كتابه «أم القرى» من عبارات تتصل بتاريخ عودته من رحلة «أم القرى».

٤ ـ سند رهن بيته بوجوده بحلب ووجود إبنه «الكاظم».

ومن هذه النصوص الثابتة أستنتج، وأترك لسواي من المؤرخين الإستنتاج أيضاً من معين لا يمكن معه الاعتماد على غير هذه النصوص، حتى الآن، إلاّ إذا كشفت الأيام عن معين من وثائق أخرى لم تصل إلى يدنا (كرسالة لينين إلى «الكواكبي» التي لا تزال في أرشيف وزارة الخارجية التركية، التي يمكن معها إيراد إحتمال ما سآتي على ذكره).

١ ـ قال «الغزي» ـ كما قرأنا ـ إن «الكواكبي» ودّعه في أوائل سنة ١٣١٦ هجرية

ـ دون أن يذكر تاريخ تلك الليلة ـ على أنه مسافر إلى «استنبول»، ولكنه ـ أي الغزي ـ خامره الشك في قوله ورجّح أن صديقه سيغادرهم إلى مصر ليطبع كتاب «أم القرى»، وما أعقب ذلك من نفي «الكواكبي» ثم سفره ثم ظهور طبعة «أم القرى» ووصولها إلى يد «الغزي» وسواه مما أكّد له أنه إنما سافر إلى مصر لا إلى «استنبول».

ولم يبيّن «الغزي» تاريخ وصول طبعة «أم القرى» إلى حلب، لا هي ولا طبعة «طبائع الاستبداد». إلاّ أننا نستخلص من قوله:

«وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً إلاّ وصدى مقالاته في صحف مصر. وأخذت جريدة «المؤيد» تنشر له تفرقةً كتاب طبائع الاستبداد. . .»

أنّ كتابيه قد عرضا وأنه نشر بعض مقالاته من «الطبائع» في مطالع عام ١٣١٦هـ. فلنحتفظ بهذه النتيجة للفذلكة التالية.

ومن الثابت لدينا أن رحلة «الكواكبي» لأول مرة كانت في أوائل سنة ١٣١٦هـ.

٢ ـ قال «الكواكبي» في مقدمة «أم القرى» ـ محدداً تاريخ رحلته هذه ـ: «فخرجت من وطني أحد مدن الفرات في أوائل محرم سنة ست عشرة وثلاثماية وألف. . .».

فهو كما نرى يوافق «الغزي» في تحديد وقت رحلته هذه، التي يكون تاريخها الأكيد هو أوائل شهر محرم. وقد قطعت بذلك: حصولاً لواقعة السفر وتاريخاً لها.

٣ ـ أما تاريخ انتهاء هذه الرحلة فقد وقعت في تحديده بمأزق غير هيّن، فأنا بين نصين:

الأول: يقول «الكواكبي»: في «ذيل أم القرى»: «. . . في اجتماع الوداع المنعقد في رابع أيام العيد (ويقصد في ١٣ ذي الحجة ١٣١٦هـ). . . . وهكذا تمت الاجتماعات وختمت المذاكرات وانفضّ الجمع على وعد التلاقي».

الثاني: يقول «الكواكبي»: إنه بعد تفرق الجمعية بنحو شهرين، ورد إليه من الصاحب الهندي كتاب يذكر فيه أنه بعد مفارقته مكة المكرّمة اجتمع بأميرٍ فاضل فأبدى شوقه إلى الإطلاع على سجل المؤتمر، وإنه ـ الكواكبي ـ وعده بإعارته نسخة من السجل ثم يرسلها له.

فإذا أخذنا هذين القولين أخذَ الاعتماد نتج معنا:

ـأن مكوثه في «مكة المكرمة» قد تجاوز الثالث عشر من ذي الحجة.

ـ أنه لم يكن قد طبع كتاب «أم القرى» وهو ضبط جلسات ذلك المؤتمر. وإنما لديه نسخ منه مطبوعة على «الجيلاتين» ـ كما ذكر هو في نهاية سجل «أم القرى» ـ وافق على إعارة إحداها للصاحب الهندي واعداً بإرسال نسخة أخرى. أي أنه وعده بإرسال نسخة أخرى بعد طبعها.

فإلى أي عنوان جاءته رسالة الصاحب الهندي؟

لا بدّ من أن عنوانه يجب أن يكون في «القاهرة» لأن بقاءه في «مكّة المكرمة» طيلة هذين الشهرين، ريثما وردته الرسالة، غير مبرر. فهو مستعجل طباعة كتابه هذا. فضلاً غن أنه قد ذكر رقماً لصندوق «البوستة» ولا أعتقد أنه كان في مكّة المكرمة صندوق بوستة آنئذٍ. ورقم هذا الصندوق لم يوضّح إلاّ في النسخ التي طبعت على الجيلاتين ووزعت على المؤتمرين في نهاية المؤتمر، ولم يذكر الرقم في الكتاب المطبوع في مصر كي لا يطلع عليه أفراد السلطة أو جواسيس الآستانة، ولا تفسير بغير ذلك. ورسالة الصاحب وردت إليه إلى هذا الصندوق في مصر، على رقم يعرفه الصاحب منذ حصل على نسخته في مكّة.

ولا بدّ ـ إذا كانت عودته من مكّة المكرمة في منتصف ذي الحجة ـ من أنه عكف في القاهرة على طباعة الكتاب فوراً إذ دفعه إلى الناشر في الأسبوع الثالث من ذي الحجة ١٣١٦هـ، ممهوراً بتاريخ هذه السنة، فَبُدِئَ بطباعته قبل دخول السنة الجديدة ١٣١٧هـ، ولهذا السبب الأكيد حملت الطبعة تاريخ سنة ١٣١٦هـ.

واعتماداً على هذا التحقيق يكون قد:

أ ـ غادر «مكّة المكرمة» في منتصف ذي الحجة ١٣١٦هـ،

ب ـ وصل القاهرة مباشرة ودفع نسخة ضبط الجلسات إلى المطبعة،

ج ـ استمرت طباعة الكتاب شهرين بل أكثر من تاريخ انتهاء المؤتمر (١٣ ذي الحجة) أي إلى ما بعد غاية شهر صَفَر، بدليل وعده للصاحب الهندي بأنه سيرسله له، وكان هذا الوعد فور ورود رسالة الصاحب التي انقضى شهران من انتهاء المؤتمر حتى وصولها.

د ـ لا بد أن يكون إرسال النسخ من الكتاب (إلى الصاحب الهندي أو سواه في دمشق أو حلب أو بيروت أو الآستانة) قد حصل في مطالع سنة ١٣١٧هـ.

٤ ـ أمّا سند رهن دار الفرافرة (بطريقة البيع بالوفاء) فقد ذكرت فيه العبارات التالية:

«. . . . قد حضرت لدى شهوده بذيله السيدة فاطمة بنت المرحوم الشيخ محمد علي أفندي ابن السيد حسين الكحيل المعرفة بتعريف كل من زوجها كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي ابن الشيخ أحمد أفندي ابن مسعود أفندي وابنها لصدرها كاظم أفندي ابن عبد الرحمن أفندي المومى إليه وباعت. . . . . . بيعاً بالوفاء. . . . من رافع هذا الصك الشرعي هنانو زاده أحمد آغا ابن المرحوم عبد الله آغا ابن أحمد آغا. . . . جميع الدار التي عبارة عن قوناق وحرم وجنينة الواقعة في محلة الفرافرة بحلب. . . . . بثمن قدره وبيانه أربعماية ليرة عثمانية عيناً من الذهب مقبوض بتمامه وكماله في يد البائعة المذكورة. . . بيعاً واشتراه بالوفاء. . . . وبعد أن تمّ عقد البيع. . حضر لديّ شهوده كل من عبد الرحمن أفندي وولده لصلبه كاظم أفندي المذكورين وصدّقا على صحة هذا البيع. . . . . في غرة ذي الحجة سنة سبع عشرة وثلاثماية وألف التواقيع: المقرة بما فيه فاطمة بنت الشيخ محمد علي الكحيل ـ كواكبي زاده عبد الرحمن ـ أخرون من آل كتخدا والكيالي وسواهم.

فهو وابنه كاظم كانا في حلب بتاريخ سند البيع هذا. في غرّة ذي الحجة سنة سبع عشر وثلاثماية وألف.

* * *

أماكن وجوده في هذه الرحلة

اعتمد في تحديد هذه الأماكن ما يلي:

أ ـ ثبت «الغزي».

ب ـ مقدمة «أم القرى».

ج ـ ثبت «رشيد رضا».

* * *

أ ـ في ثبت «الغزي» نجد أنه يقول: إن سلاماً ورده من «الكواكبي» في رسالة من صديقه وتلميذه قنصل إيطاليا في «حديدة» ميناء اليمن، «فرديناند بن ميخائيل صولا» الحلبي، يبين له فيه أن «الكواكبي» قد زاره هناك. وقول «الغزي» هذا، ورسالة القنصل، يثبتان بما يقطع الشكّ أن «الكواكبي» قد دخل الجزيرة العربية إلى اليمن كما ذكر في «أم القرى». وليس ذلك وهماً أو إبتكاراً منه لرواية. وهذا يقودنا إلى تثبيت الأماكن الأخرى التي تواجد فيها في هذه الرحلة التي منها اليمن، من مقدمة «أم القرى» وهي التالية.

ب ـ يقول «الكواكبي»: «عقدت... إجراء سياحة لزيارة أمهات **البلاد العربية**». فهو إذن لم يستهدف في هذه الرحلة إلاّ البلاد العربية دون سواها. ويضيف: «فخرجت من وطني أحد مدن الفرات فأتيت بلدة لا أسمّيها (هي الآستانة حتماً التي لم يطب له المقام فيها والتي فيها كل ما يشتهي الإنسان إلاّ الكرام) سالكاً الطريق البحري من الإسكندرونة معرّجاً على بيروت فدمشق ثم يافا فالقدس، ثم جئت إسكندرية فمصر. ثم من السويس يمّمت الحديدة فصنعاء فعدن، ومنها قصدت عُمان فالكويت، ومنها رجعت إلى البصرة ومنها إلى حائل إلى المدينة.. على مكّة المكرمة فوصلتها في أوائل ذي القعدة...».

فسياحته هذه كانت مروراً بالإسكندرية والقاهرة، التي أعقبتها زيارة ثانية للقاهرة لطبع «أم القرى» وبقي في القاهرة مدة خلال عام ١٣١٧هـ إذ عاد في أواخره إلى حلب.

إن عودته إلى حلب لم يطّلع عليها «الغزي» على ما يظهر، ولعلّه كان غائباً عن حلب وقتئذٍ. أم أنّ مكوث الكواكبي في حلب لمدة وجيزة اضطرته الحاجة خلالها إلى التخفي عن أعين السلطة كان ضرورياً إذ سارع في غرة ذي الحجة ١٣١٧هـ إلى رهن دار «الفرافرة» العظيمة التي كان باشر في إكمالها وتوسيعها.

ولو كان «الغزي» على علم بعودته إلى حلب لزاره ولأشار إلى ذلك في ثبته ولأدرك خطورة موقفه ولتابع تحركاته حتى يعلم بسفره الثاني بعد شهر واحد (غرة محرم ١٣١٨هـ). فكأن هذا الشهر كان كافياً لرهن بيته وتوديع أسرته وحصوله على بدل الرهن والرحيل به.

هذا بشأن رحلته الأولى سنة ١٣١٦ ـ ١٣١٧هـ.

فما الشأن في مقولة أن مؤتمر «أم القرى» كان من إبداع وتخيّل «الكواكبي»؟

إنني أقف عند هذه المقولة وقفة متأمل وأقول:

إن ما دعا الكثيرين إلى هذه المقولة هي النقاط التالية:

أولاً: أقوال عَمَّينا: «الكاظم» و «أسعد»، المُنْصَبّة على أن أباهما كان يكتب مقالات أم القرى، في غرفته العلوية وبالقلم الذي نحتفظ به وأن «أسعد» ساعده في تبيض المسودات.

ثانياً: أقوال «الغزي»: إن «الكواكبي» أطلعه على ما يكتب بشأن «أم القرى». وقوله الملفت للنظر: إن صدى مقالات «طبائع الإستبداد» في «المؤيد» قد ظهر بعد بضعة عشر يوماً من سفره من حلب.

إن هذا الزعم يشير إلى أن مقالات «طبائع الإستبداد» ظهرت قبل تاريخ انعقاد مؤتمر أم القرى موضوع الشك وقبل جمعها في كتاب. علماً بأن كتاب «طبائع الإستبداد» ـ على ما ذكر الكواكبي فيه ـ لم يطبع إلاّ بعد رحلته الثانية عام ١٣١٨هـ. وزعم ظهور مقالات طبائع الإستبداد قبل «أم القرى» فيه خطأ.

أمّا كتاب «أم القرى» فلم يذكر الغزي أن مقالات منه ظهرت في صحف مصر مسايرة لزمن ظهور مقالات «طبائع الإستبداد». مما يجعلنا نتريَّث في تحديد زمن طباعته، دون التريث في تحديد زمن كتابته التي حددت بموجب أقواله وأقوال عَمَّينا في زمن يسبق شهر محرم ١٣١٦هـ الذي غادر فيه حلب، خلوصاً إلى أن المؤتمر بحدّ ذاته كان من تأليف «الكواكبي» بما تألّف منه. إلاّ أن المؤكد أنه ظهر كتاباً.

هذا كل ما لدينا من عناصر صَبَّت الشك في صحة إنعقاد المؤتمر ثم استجلبت الجزم إلى هذا الشك.

فهل هي كافية لهذا الجزم؟

إنني أورد هنا سبباً مهماً جداً يُدْخِلُ الشكَّ إلى مقولة سبق كتابة الكتاب في حلب لا إلى مقولة أن المؤتمر كان صحيح الانعقاد في «مكّة». فأقول: ألم يكن المعقول أن يكون «الكواكبي» قد كتب آراءه التي سيبحثها ويعرضها ويناقشها في المؤتمر على أوراق

المسودات التي اطلع عليها «الغزي»؟ أو الولدين: «الكاظم» و «أسعد»؟ حتى إذا ذهب بها إلى المؤتمر كانت بمثابة «ورقة العمل» التي اصطلحنا على تسميتها كذلك في هذا العصر حيث نجدها محضرة من قبل القادمين إلى مؤتمر ما لتكون مداراً لأبحاث المؤتمر؟ مضيفاً إلى ذلك أمراً مهماً هو أن «الغزي» لم يذكر في حديثه عن سبق مشاهدته لكتاب «أم القرى» أية إشارة إلى أنه قرأ شيئاً عن فكرة المؤتمر، وهو أمر كبير الأهمية، إذ لو كان قد قرأ شيئاً في المسودات عن «المؤتمر» لكان حدّثنا بها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ولده «أسعد» فهو قد أفاد بأنه كان كتب مسوداته دون أن يفصّل لنا محتوياتها. ومضيفاً أمراً آخر هو أن «الغزي» ـ وقد أرّخ له ولتحركاته ـ لم ينفِ مطلقاً حصول المؤتمر.

بلى، إن ذلك محتمل، ووارد بكل معنى الكلمة. وأمام هذا الاحتمال لا نستطيع الجزم بأن المؤتمر لم ينعقد في الحقيقة.

والقرينة الكبرى لديّ إختفاء جدي عن أعين الناس عقب عودته من المؤتمر، حتى عن «الغزي» الذي لم يعلم بحصول رهن صديقه لبيته في «الفرافرة» واستدانته من «جرجي خياط». بل هو مات ـ «الغزيّ» ـ ولم يعرف أن «الكواكبي» عاد إلى حلب لمدة شهر ثم رجع منها ثانية في رحلته الأخيرة في أول محرم سنة ١٣١٨هـ. أول أيار ـ مايو سنة ١٩٠٠م.

سؤال آخر يرد هنا: أفلم يعرف ابنه «أسعد» أن أباه قد عاد إلى حلب لمدة ذلك الشهر؟ والجواب: كلا فهو كان يدرس في الآستانة مع أخيه «رشيد». وأما «الكاظم» فهو الوحيد الذي أدرك الحقيقة من بين أولاده البالغين، وهو الذي رافقه في رحلة الوداع هذه إلى مصر دون إعلام إنسان ما ـ على ما يذكره أهلنا ـ خلا المرحوم «عبد الحليم جوده» الذي ائتمنه على سرّ سفره. وأما مقولة أنه أوهم الناس بأنه ذاهب لاستلام قضاء «راشيا» فإنما تنعكس على رحلته الأولى سنة ١٣١٦هـ إذ أوهم «الغزي» ـ على قول هذا ـ أنه ذاهب لمعالجة أمر استبدالها بمنصب قضائي في مكان آخر. ولا يعقل أن تنتظر السلطنة جواباً منه يتأخر عدة سنوات. وأنا أترك للمحققين والأيام لتكشف الواقع الصحيح.

أما شمول رحلته الأولى هذه البلاد العربية خلال سنة ١٣١٦هـ فأمر لا شكّ فيه ما

دام سلامه على «الغزي» قد وصل منه عن طريق رسالة قنصل إيطاليا في «الحديدة» إلى «الغزي» في تلك السنة. ولو كان «الغزي» ذكر لنا تاريخ تلك الرسالة لحدَّدْنا مكان وجوده التقريبي آنئذٍ، ولقارناها مع تاريخ وصوله إلى مكة المكرمة لعقد المؤتمر المشكوك فيه!.

ويا ليته ـ «الغزّي» ـ ذكر لنا تاريخ عدد «المؤيد» الذي قرأ فيه مقالاً من «طبائع الإستبداد» بعد بضعة عشر يوماً من سفره من حلب في محرم ١٣١٦هـ. أم أن الغزي قد أخطأ التحديد وهو يقصد القول: «بعد بضعة عشرة شهراً...»؟ وهذا أقرب إلى الواقع لأن «الكواكبي» كان قد بيَّن في مقدمة كتابه «طبائع الإستبداد» أن مقالات سياسية تحت عنوان «الإستبداد»، ما هو... ما تأثيره على... إلخ» نشرها في أشهر جرائد مصر في زيارته هذه التي حددها بمطلع عام ١٣١٨هـ. ومن ثم، وفي زيارته الثانية (التي تلي تاريخ زيارته السابقة طبعاً) وسَّع المقالات وكلَّف بها بعض الشبيبة وجمعها بكتاب أسماه «طبائع الإستبداد». وهو كان ـ خلال هاتين الزيارتين ـ قد ساح البلاد الآسيوية وتوغَّل فيها، بعد أن عَبَرَ اليمن.

أم أن رسالة قنصل إيطاليا إلى «الغزي» حاملة سلام «الكواكبي» من اليمن كانت سنة ١٣١٨هـ لا سنة ١٣١٦هـ وأن الغزي قد نسي التاريخ الصحيح؟.

إنّ كان ذلك هو الواقع فإننا حينئذ نرفع من حسابنا كون «الكواكبي» قد تواجد في «الحديدة» أثناء رحلته الأولى سنة ١٣١٦هـ، وبذلك تسهيل لمرور الشك في حقيقة انعقاد مؤتمر «أم القرى».

ونحن لا نزال بانتظار ما ستكشفه الأيام والوقائع ثابتة التاريخ.

رحلة الهجرة

إنطلاقاً من تاريخ بيع دار زوجته في غرة ذي الحجة سنة ١٣١٧هـ. ٢ نيسان ـ إبريل ١٩٠٠ بحضوره وحضور إبنه «الكاظم»، ومن وريقة الدفتر الصغير التي عثرت عليها من خطّ عمي المرحوم كاظم والتي أورد صورتها في كتابي، التي كتب فيها:

«إبتداء سفرنا لمصر مع المرحوم كان ١٦ محرم ١٣١٨ يوم الأربعاء».

نقطع الشك حول تاريخ رحلته التي رافقه فيها ولده «الكاظم» بعد رهن دار زوجته وهي الرحلة الثانية.

فإلى أين كانت هذه الرحلة؟ وما كان القصد منها؟.

* * *

إن كل أفراد أسرتنا ـ من أولاد جدي «عبد الرحمن»، حتى مربيتنا الزنجية «حجاب النور» التي حررها جدي من يد شاريها وحدثتني عن وعد جدي لها بإعادتها إلى «سنارة» يوم يسافر إلى مصر، وأنها كانت تجمع الأمتعة مع جدتي، وهما والأولاد ينتظرون وصول البرقية المتفق على نصّها من جدي لكي يسفّرهم «عبد الحليم جودة» إلى مصر، كانوا على إطلاع على همته بالسفر.. وكان ولداه الكبيران «أسعد» و «رشيد» في كلية الطب العسكرية في استنبول.

فهو إذن كان متفقاً مع زوجته على الهجرة النهائية إلى مصر بلا عودة، (وكنت سأولد من أم أخرى هناك لو تمت هذه الهجرة!!!).

أما أسباب الهجرة فليست في خفاء عن الجميع، سواء بعد حصولها مباشرة أو بعد ذلك. فهو قد ضاق ذرعاً بالتضييق عليه من قبل السلطة العثمانية وزبانية السلطان، حتى كاد لسانه ـ الذي تعوَّد أن يجهر بالانتقاد والاحتجاج واستنكار المظالم ـ ينعقد في حنجرته منذ رجوعه من رحلته إلى استنبول التي قابل فيها أبا الهدى الصيادي وإطلع على أسراره وأفعاله وعلى تفاصيل الإستبداد الحميدي وحوادث الظلم والقتل والنفي. ولم يجد مجالاً في حلب لنشر ما اطلع عليه وتوعية الأمة العربية والإسلامية في هذا الشأن.

فلماذا يكتفي بإرسال مقالات إلى بيروت أو إلى جريدة الجوائب العربية في لندن ببريد صار يشك في سلامة رسائله فيه من الكشف عليها، ولا يكون له مكان آمن يكتب فيه وينشر من كتاباته ما يشاء؟ وكانت أقرب البلاد الآمنة إليه هي مصر فهي بلد عربي قبل كل شيء وأرض كنانة العرب، وقد استقبلت سواه من المصلحين؟.

وكانت الهجرة.... إلى غير عودة...

ومات فيها غريباً وحيداً يشكو فراق أسرته ومدينته.

* * *

ليلة الوداع

في مساء الرابع عشر من شهري/ محرم ١٣١٨هـ وأيار ١٩٠٠م إتكأ جدي وزوجته متوسّدَين وسادات هيأتها لهما إبنتهما «عفيفة» على أريكة مغطاة بالسجادة الصغيرة، وقد سطع البدر من خلال أزهار شجرة «الإجّاص» العظيمة بروائحها العبقة تأخذ بالألباب، إلى جانب الحديقة المزدانة بورود الربيع، قبالة السلسبيل القاشاني، يتبادلان الحديث بصوت منخفض تقطّعه عبراتٌ وتوقّفٌ عن الكلام ومعاودة، كل منهما يودّع الآخر، وهي ترجوه أن يخبرها بحقيقة الموعد الذي يستدعيها فيه مع الأولاد للّحاق به إلى مصر، وهو يَعِدُها بأن ذلك سيكون خلال سنتين تنصرمان بالفرج الأكيد، ويرجو منها الصبر والسهر على الأولاد وتحملّ عدم الكتابة إليها كيلا يعرف مكان صدور رسائله إليها وأن أخباره ستكون لدى «الحاج عبد الحليم جودة» فقط.

وكانت «حجاب النور» تساعد والدي «فاضلاً» ـ الذي بلغ من عمره أربع سنوات وتسعة شهور وسبعة وعشرين يوماً ـ على الإغفاء، مرتلة له أغنيات الأطفال نفسها التي رتلتها لنا بعد عشرين عاماً وقت النوم، وكانت عَمّتاي «عفيفة» و «عدوية» ترفعان أواني الطعام عن المائدة البضاوية في غرفة الطعام البعيدة عن المصطبة، وقد سقط أحد الكؤوس من يد «عدوية» وانكسر فراحت تؤنبها أختها لعدم حذرها ولأهمية هذا الكأس الذي هو من المجموعة التي اشتراها أبوها من استنبول! بينما قالت لها أمها: لا تزعلي يا حبيبتي فلقد إنكسر الشر وها هو فأل حسن إن شاء الله. وعمتي «بهية» تساعد أخويها «أحمد» و «نظيرة» على الاستعداد للنوم. وقُرِع الباب فهرعت «عفيفة» لتسأل من الطارق ولكن أباها استعادها وقام بنفسه إلى الباب قائلاً: «إنه الحاج عبد الحليم». وفتح الباب، وعدلت جدتي «فاطمة» «شاشية» صلاتها التي لم تزل على رأسها من صلاة المغرب المنصرمة، ودخل «الحاج عبد الحليم جودة» فاصطحبه جدي إلى المصطبة مكلفاً «عفيفة» بإحضار كرسيين وباستدعاء أخيها «الكاظم» من غرفته.

وتحلّق الأربعة، وراحوا يتحدثون، فحاولت «عفيفة» الإنصات إلى حديثهم ولكن والدها أشار إليها بمتابعة مساعدة أختها ثم الذهاب للنوم، ودار حديث الأربعة حول السفر الذي هيأت «فاطمة» أمتعة زوجها لشأنه، تلك الأمتعة التي آثر «الحاج عبد الحليم» أن يحملها فوراً معه إلى عربة السفر مسبقاً من الآن لتكون مغادرة جدي

لداره طليقة من المعيقات.

وبعد التداول بشأن طريقة السفر وساعته، راحوا يتحدثون في أمر معيشة الأسرة والأولاد، الحاضرين منهم والمتغيبين في كلية الطب بالآستانة، وأن على «فاطمة» أن تعتمد صديقهم «الحاج عبد الحليم» في جميع الأمور. حتى إذا وردته رسالة سرية منه أعلمها لكي تحضر الأمتعة ولوازم السفر النهائي لتلحق به إلى مصر عند ورود البرقية المتفق على كلماتها السرية.

وانصرف الأولاد إلى أسرّتهم ثم غادر «الحاج عبد الحليم» مستقبليه ليعود قبيل الفجر حيث يكون جدي بانتظاره عند الباب ليخرج فوراً إلى عربة السفر. وذهب «الكاظم» إلى غرفته يصارع الأرق والقلق. وبقي جدي وجدتي لوحدهما على المصطبة ساهرين في ضوء القمر دون أن تغمض لهما جفون. حتى انقضى الهزيع الأول من الليل إذ قاما لصلاة قيام الليل. وبعدها لارتداء ثياب السفر وإيقاظ الأولاد جميعاً لتوديعهم بقُبَلٍ حارة لم يتمالك أحد من أفراد الأسرة الإمتناع عن البكاء خلالها. ولما أرادت «فاطمة» إيقاظ والدي «فاضلاً» طلب منها زوجها أن تتركه نائماً ولا تزعجه، مكتفياً بتقبيله وتقبيل أصابع رجليه المكشوفتين، ثم رتّب تغطيتهما وتركه دون ازعاج.

تهيأ الجميع لصلاة الصبح إذ أمّهم وراح يتلو الأدعية لهم وله بالنجاح. وإذا بالباب يقرع، فاتجه الجميع إلى الباب الذي فتحه جدي بيده ناظراً إلى أفراد أسرته النظرة الأخيرة في حياته، وتبعه إبنه «الكاظم» وقفزا مع «الحاج عبد الحليم جودة» إلى داخل العربة المغلقة.

واتصل النهار بليل الأسرة، ولم يعلم والدي رحمه الله بسفر أبيه إلاّ بعد يوم كامل إذ راح يُكْثِرُ السؤال عنه ويبكي شوقاً إليه حتى أعلموه بأمر سفره وبقرب عودته، ولم يعلم شيئاً عن مصيره بعدئذٍ إلاّ بعد أن أدرك العاشرة من عمره. فلم يزل يبكيه أمامنا حتى ناهز الأربعين من حياته القصيرة.

فإلى أين ارتحل؟

من المؤكد أن أول مرحلة كانت له هي مصر التي جعلها مركز انطلاقه. ولقد كتب في مقدمة «طبائع الإستبداد» مشيراً إلى أنه زارها في هذه الرحلة ثلاث مرّات، وهي

الرحلة التي نشر فيها هناك أولى مقالاته في «طبائع الإستبداد»، وليست رحلة «أم القرى». فتكون زياراته إلى القاهرة خلال هاتين الرحلتين «رحلة مؤتمر أم القرى» و «رحلة الهجرة» أربع زيارات.

ومن القاهرة، وبعد أن أبقى فيها إبنه «الكاظم» مشرفاً على الصيدلية يعتاش منها، غادر في رحلة أولى.

وبما أن مذكراته عن رحلاته وتقاريره السياسية والعلمية بشأنها لم نعثر عليها، فهي قد صودرت مع ما صودر من أوراقه فور وفاته على يد «عبد القادر القباني» (صاحب جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، الذي كان قد سمى «الكواكبي» بـ «الصديق» حينما كتب نبأ وفاة والده «الشيخ أحمد بهاء الدين الكواكبي» قبل سنوات في جريدته) بأمر من السلطان عبد الحميد، فإنني أستخلص المراحل مما كتبه صديقه «الشيخ رشيد رضا» صاحب «المنار» في ترجمته له إثر وفاته، ومن حديث آخر مكرر مع الزعيم السوري الراحل «إحسان الجابري» الذي ربطتْهُ بكتابة «رشيد رضا». ولقد قال «رضا»:

«... فبعد إختباره التام لبلاد الدولة العليّة (الأمبراطورية العثمانية كما كانت تُسمّى)، تركِها وعربِها وأكرادِها وأرمنِها، ثم اختبارِه لمصر ومعرفة حالِ السودان منها ساح منذ سنتين في سواحل إفريقية الشرقية وسواحلِ آسية الغربية، ثم أتمّ سياحته في العام الماضي فاختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتمّ الأختبار، فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سوريا (هكذا جاء في طبعة المنار على أنها: سوريا) واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً من معادنها حتى أنه استحضر نموذجاً منها. وقد انتهى في رحلته الأخيرة إلى «كراجي» من موانئ الهند، وسخّر الله له في عودته سفينة حربية إيطلية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط (وهو صديقه وجار بيته في حي الجلوم بحلب من آل «سولا» الإيطالي الأصل الحلبي الولادة والإقامة، والذي أضحى قنصل بلاده في مسقط كما أضحى قريبه أو أخوه قنصلاً في «الحديدة») فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية، فتيسّر له بذلك اختبار هذه البلاد إختباراً سبق به الإفرنج. وكان في نفسه رحلة أخرى يتم بها إختباره للمسلمين. وهي الرحلة إلى بلاد المغرب. ولكن حالت دونه المنيّة التي تَحُول دون كل الأماني والعزائم.

بناء على هذا الشرح لرحلاته من قبل هذا الرجل الكبير صديقه صاحب «المنار»، يمكننا وضع المخطط التقريبي لرحلاته الثلاث وفترات إقامته في مصر.

ومن الجدير بالذكر أن إبنه «الكاظم» قد رافقه في إحدى رحلاته، ولا أعلم أية واحدة هي، حيث زارا الإمام «يحيى حميد الدين» إمام اليمن. ولقد علمت بذلك من عمي «الكاظم» في يوم من الأيام حينما مرّ بحلب الأمير «سيف الإسلام البدر بن يحيى حميد الدين» بقطار الشرق السريع بطريقه إلى استنبول، فخرج مبكّراً إلى محطة بغداد لاستقباله والسلام عليه.. فلمّا عاد سألته عن سبب اهتمامه باستقبال الأمير سيف الإسلام فأجابني بأن ذلك واجب عليه رداً على استضافته، هو وأبوه الإمام، له ولجدي في اليمن، والأمير يعرف أنه في حلب فمن المعيب أن لا يقوم بهذا الواجب على الأقل.

من هذا الشرح علمت بأمر تلك الزيارة للإمام «يحيى».

كما أن عمي هذا بيّن لنا أن جدي كان أول سائح في العالم يجتاز الربع الخالي في الجزيرة العربية ماراً بعرب الصحراء ليجتمع بالشيوخ والأمراء، صاعداً من «عُمان» متوغلاً حتى أعالي الخليج، ملتفاً إلى البلاد الآسيوية الوسطى. وإنه ركب الجِمال في مسيرته الأسطورية تلك الأمر الذي لم يسبقه إليه أحد من غير عرب الربع الخالي. وهذا الأمر هو ما يفسر حديث صاحب «المنار» عن اجتماعه بالشيوخ والأمراء.

إلاّ أن ما يثير الانتباه هو قول «رشيد رضا» ـ وهو المُطَّلع على أحاديث جدي شخصياً ـ أن «الكواكبي» قد تحدّث مع هؤلاء في الشؤون الحربية. فهي نقطة تستحق الوقوف عندها والتأمل والتساؤل عمّا إذا كان لها تفسير آخر غير محاولة تحريض عرب الجزيرة واليمن والخليج على الثورة ضد الأتراك حين اللزوم! كما يثير الانتباه إهتمامه بالشؤون الاقتصادية والجيولوجية لبلاد العرب وجمعه نماذج من معادنها وجلبها إلى مصر لدراستها من قبل المتخصصين، وفي جملتها ـ على ما حدثنا به عمي «الكاظم» ـ نموذج من زيت النفط الذي دلّه عليه الأعراب في الجزيرة. مما يدلّ على بعد آفاق طموحه في رحلاته وتعدد جوانب اهتمامه.

ولا بدّ لي من أن اعترف بتقصيري وتقصير أخي «عبد الرحمن» ووالدي «فاضل» رحمه الله عن أمر استنطاق عمي «الكاظم» عن هذه النقاط المثيرة وعن اكتفائنا

بالمعلومات القليلة التي كانت تصل إلينا منه في المناسبات فقط. ومما عقّد الأمر أن والدنا توفي في مقتبل العمر، ونحن كُنا لتوّنا قد حصّلنا شهادة «البكالوريا الثانية» ودخلنا التعليم العالي الذي لم نُكمِله إلاّ بعد وفاة عمنا المذكور. أما أعمامنا الآخرون فكان أحدهم «أحمد» متوفياً من زمن بعيد والآخران لا يعرفان عن دقائق حياة أبيهما في رحلاته شيئاً لأنهما كانا مشرّدَيْن في خنادق الجيش العثماني حتى العهد الفيصلي.

لم يبقَ لي مما استنتجته من رحلاته إلاّ موضوع اتصاله بالزعيم الإشتراكي الذي ظهر في تلك الآونة وهو «فلاديمير لينين». فإنني بِتُّ أميل إلى الاعتقاد بأنه قد قابله في إحدى بلاد آسية الوسطى على حدود «الروسيا»، . وليس ما جاء في قول «رشيد رضا» في وصفه لرحلته: «متوغلاً في البلاد الآسيوية **حتى حدود السوريا**» إلاّ خطأ مطبعياً إذ كان يجب أن تكتب: **الروسيا**. وهذا أقرب إلى الصحة لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن «الكواكبي» خرج بما يشبه الهروب خفية من «سوريا»، فلا ينتظر منه أن يعرّج عليها وهو يخوض صحارى آسية من الجزيرة حتى آسية الوسطى.

السبب الثاني: هو أنه كان قد تلقى ـ وهو في مصر ـ رسالة من «لينين» صودرت مع أوراقه المصادرة ونقلت إلى المابين السلطاني. وقد حدثني بشأنها الزعيم الكبير الراحل «إحسان الجابري» رئيس إتحاد الدول العربية (مصر وسورية واليمن) أيام الوحدة مع مصر فلقد أفهمني أنه حينما كان في المابين السلطاني بقصر «يلدز» إطلع شخصياً على رسالة «لينين» إلى «الكواكبي» واستغرب وجودها في أرشيف المابين السلطاني حتى ربط الأمر بمصادرة أوراق «الكواكبي» في بيته بالقاهرة على يد «عبد القادر القباني» الذي وافى السلطان عبد الحميد بها لقاء منصب موعود.

وحينما كنت في مصر، في السبعينات، بعد ارفضاض الوحدة مع مصر، إذ كان «الجابري» محتفظاً بمنصبه ومعترفاً به، في رحلة لجمعية «العاديّات» التي كنت أرأسها، حيث دعانا المرحوم المحامي «عبد الغفور المسوتي» المقيم في مصر منذ الوحدة إلى وليمة على شرف الرئيس «إحسان الجابري» ومعي الأساتذة: إبراهيم أدهم الشهيد ومحمد كامل فارس وصبحي والي وصلاح الخطيب وصالح نحاس. وفي ذلك الاجتماع سألني المرحوم «الجابري» عما إذا كنت قد توفقت في العمل للوصول إلى رسالة «لينين» التي كان قد حدثني بشأنها قبل سنوات، فلمّا أجبته بالنفي لامني على

تقصيري فأخبرته بأن الخارجية التركية لا تزال تمنع عن العالم العربي الإطلاع على وثائقها رغم مرور الزمن البعيد على وجودها، فأشار عليّ بالاعتماد على أحد الرجال من غير العرب.

وفي مقابلة ثالثة لي معه في مصيف «أريحا» بقرب «إدلب» كرّر عليّ التوصية. أما أنا فلم أتمكن من الركون إلى أحد الأتراك العلماء للعثور على تلك الرسالة وتصويرها. ولا زلت أحاول. ولا زالت العلائق التركية ـ العربية في تأزم بسبب إعتداء تركية على مياه الفرات.

والسبب المبرر الثالث لِما رأيته، أخلُصُ إليه من أن «الكواكبي» يمكن أن يكون قد قابل «لينين»، بناء على رسالة هذا الأخير له المذكورة، على حدود روسيا حيث كان «لينين» يطبع أول أعداد جريدة حزبه الشيوعي «إسكرا» (أي الشرارة)، في إحدى بلدان آسية الوسطى بعيداً عن أيدي السلطة القيصرية، التي عنونها بعنوان تحذيري مشهور هو: «من هذه الشرارة سينطلق اللهيب». وعلى هذا يمكننا التفكير مليّاً بالعبارة التحذيرية التي كتبها «الكواكبي» ـ بعد عودته من هذه الرحلة ـ كشعار لكتابه «طبائع الإستبداد» والتي تعادل عبارة نشرة «الإسكرا» ألا وهي: «كلمات حق وصيحة في واد، أنْ ذهبت اليوم مع الريح فلقد تذهب غداً بالأوتاد». بعد أن كانت مقالاته المنشورة عن طبائع الإستبداد قبل هذه الرحلة خالية من هذه العبارة التحذيرية.

إلاّ أن هذا الاحتمال يتوقف تأكيده على معرفة تاريخ رحلته من القاهرة وتاريخ دفعه مقالات «طبائع الإستبداد» للمطبعة وهي حاملة تلك العبارة التحذيرية، هل كان قبل سفره أم بعد عودته من الرحلة الكبرى، أم أنه ألحق هذا الشعار بعد عودته للمطبعة قبل خروج الكتاب منها؟ علماً بأنه أبان عن رحلته الكبرى هذه في مقدمة الطبعة الأخيرة التي خرجت من المطبعة. وهذا دليل كبير على أن الطبع كان لا يزال قائماً حينما رجع من رحلته تلك، على الأقل، أو أن الطبع للمقدمة والشعر، فقط، هما المتأخران لما بعد عودته، أم أن الطباعة كلها لآخر طبعة كانت بعد عودته، أخْذاً بكونها أشارت إلى تلك الرحلة، وأن من يتكلم عن فعل فعله، في كتابة ما، يكون فعله سابقاً الكتابة طبعاً!.

اعتقد بأن الأقرب إلى منطق الحساب هو هذا الرأي الأخير.

هذه ثلاثة أسباب تجعلني أضيف الحدود الروسية ـ الأوزبكية إلى أماكن تواجده في

رحلته الكبرى، وليست هي سوريا التي أوحى الخطأ المطبعي بأن الكواكبي زارها في رحلة الهجرة!!

تلك هي رحلات «الكواكبي» والتي لم يعد منها إلى وطنه.

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

و

الخديوي عباس حلمي

(٧)

الكواكبي
والخديوي عباس

كان المعروف عن الخديوي عباس أنه مناصر لجميع الشخصيات العلمية والسياسية التي كانت لا تدور في فلك السلطان أو هي ضده. وأن مصر كانت ملاذاً للكُتّاب الأحرار الذين أرادوا أن يكتبوا بالعربية التي كانت شبه ممنوعة في شرقي السلطنة الخاضعة للسلطان، إذ كانت تتمتع بامتيازات خاصة بأسرة «محمد علي». وأن الخديوي كان على خلاف مع السلطان «عبد الحميد الثاني» الذي ناصبه «الكواكبي» العداء بشتى الكيفيات وكان آخرها بحثه عن القدرة الحربية لدى قبائل العرب.

وقد بلغ من حدة الخلاف بين الخديوي والسلطان الأحمر أن الجرائد المصرية كانت تشتمل على مقالات ضد السلطان. بل قد وصل الأمر ـ على ما حدثني به عمي المرحوم «الكاظم» الذي كان يرافقه ـ أن اللوحة الزيتية التي كَشَفَ عنها مسرح الأوبرا بالقاهرة يوم الافتتاح الموسمي ـ قبل العرض لـ «أوبرا عايدة» لـ «فيردي» ـ كانت ترمز إلى جواسيس السلطان في مصر وإلى صورة إبليس المجنّح ـ رمزاً لأبي الهدى الصيّادي ـ طائراً فوق رأس صبي للصيادي كان يومها في القاهرة (وأظن أنه ذكر لي أنه إبنه) يرمي له أوراقاً سرية. وأن ممثلي الدول الأجنبية والصحافيين أسرعوا يصورون بأقلامهم تلك اللوحة ويكتبون ملاحظاتهم وهم في مقصوراتهم، تلك اللوحة التي أثارت ضجة في القاهرة يومئذٍ وغطّت على موضوع الأوبرا.

ولهذه الأسباب أمِنَ «الكواكبي» جانب الخديوي «عباس»، وهما اللذان تتلمذا ـ طفلين ـ على يد مربٍّ واحدٍ هو «محمد نجيب النقيب» العربي السوري الأنطاكي. ودخل مصر ونشر مقالاته وقرأ الخديوي «أم القرى» وأُعجب بهذا الشاب الجريء فأنفذ

إليه «الشيخ محمد عبده» و «الشيخ علي يوسف» وطلبه إليه للمقابلة وأمّنه فزاره وتباسطا في الحديث. وأشيع ـ وليس هناك إثبات رسمي ـ أن الخديوي عيَّن له جراية لاجئ سياسي قدرها خمسون جنيهاً شهرياً. وهو أمر لم يحدّثنا عنه عمنا «الكاظم» الذي كان يؤكد لنا أن إنفاقه وأباه كان ممّا حَمَلاه معهما من قيمة رهن الدار ثم من وارد الصيدلية.

واستمرت العلاقة طيبة بين الخديوي و «الكواكبي»، إلى أن دعاه لمرافقته والسعي لمصالحة السلطان والذهاب إليه إلى الآستانة حيث كان قد عُقِدَ هناك الاتفاق المعروف بين أسرة محمد علي والسلطان العثماني مع ما تضمنه من «تعهد الخديوي بعدم مساعدة أعداء السلطان والدولة العليّة، وبمحاولة إقناع «الكواكبي» مجدداً بالذهاب إلى السلطان (ذلك لأنه ـ أي الكواكبي ـ رفض الذهاب مع الخديوي إلى الآستانة لمقابلة السلطان حينما دعاه لمرافقته في الرحلة الأولى التي كان في معيته فيها الشاعر «أحمد شوقي»).

لا يمكن لأحد أن يتصور أن الخديوي قَلَبَ للـ «الكواكبي» ظهر المِجَنّ لأنه لم يَسْعَ إلى الدعاية له ليكون خليفة المسلمين. ذلك لأن الخديوي هو أول من يعرف رأي «الكواكبي» في وجوب إنتساب الخليفة إلى آل البيت وأن الخلافة عربية صرفة وفي قريش، وأول من يعرف أن «الكواكبي» لم يؤمن يوماً من الأيام بأن الخديوي من آل البيت، بدليل أنه اكتفى بأن أسماه «سميّ عم النبيّ» في مقدمة «طبائع الاستبداد». ولو أنه كان في أقل شبهة من أمره أو اعتقد أنه من آل البيت لكانت عبارته في تلك المقدمة «سليل بيت آل النبي».

يضاف إلى ذلك أن من كتبوا عن «الكواكبي» ورحلاته، عقب وفاته، من أمثال «رشيد رضا» و «عبد المسيح الأنطاكي» تلميذه وصديقه الحميم، وسواهما، لم يشيروا بإشارة واحدة إلى أن «الكواكبي» دعا في رحلاته لخلافة الخديوي. وإنما كانت غاياته من تلك الرحلات محصورة في دراسة أحوال الأمة العربية والإسلامية، من سائر النواحي الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية، ثم توّجها ـ على قول «رشيد رضا» ـ بدراسة الاستعداد الحربي لدى الشيوخ والأمراء العرب في الجزيرة العربية.

وأكبر دليل لنا على أن «الكواكبي» لم يكن يحتلّ مكان الثقة الكاملة لدى الخديوي ما أثبته «رشيد رضا» في قوله: «... وقد كان له أمل في مصر وأميرها أراه الاختبار خلافه». ليثبت بعد قوله هذا «... **إن الخديوي أمر بتشييعه على نفقته وبالإسراع بدفنه، وذلك في صبيحة وفاته...**».

هناك من يقول إن للخديوي يداً في دسّ السُّم له في فنجان القهوة عشية الوفاة. ذلك أنه كان قد رجع لتوّه من مقابلته في الإسكندرية على غير وفاق. مُتَّخِذِين من الأمر بالإسراع بدفنه قرينة على الحرص على إخفاء معالم أسباب الوفاة الحقيقية فيما إذا حاول أحد تشريح الجثة وتحليل الأمعاء. أما أنا فأقيم دليلاً أو شبه دليل على استبعاد هذا الظن، ألا وهو أن المدة ليست كافية بين عودته من الإسكندرية وبين حياكة خطة دسّ السُّم على يد مكلّف من الخديوي. ومما يقوم حائلاً دون الظن أيضاً: أن الخديوي تتلمذ على أستاذ «الكواكبي» نفسه «نجيب النقيب» الذي هو من بَني أخوال «الكواكبي» أصلاً.

في حين أجد فيه أن الخلاص من «الكواكبي» كان على يد جواسيس «الصيادي» والسلطان فحسب، وكأنّ «الكواكبي» لم يعطِ اللوحة الزيتية، التي قُدِّمَتْ بها «أوبرا عايدة» حقها من إدراك التحذير من ذلك الرسّام المجهول!

ولا يسعني أخيراً إلاّ أن أقول: إن الخديوي هو الآن عند الله تعالى عالم الغيب، وإن المتآمر قد أخذ معه سرّه.

ومن يدري، فلو أن «الكواكبي» مدّ الله في عمره، وكان الخديوي قد قلب له ظهر المجنّ إلى درجة الاضطهاد، أين كان سيؤول إليه مصير هجرته الكبرى...

ومن الجدير بالذكر أن نذكر أن الكاتب الكبير «عباس محمود العقّاد» في كتابه عنه «الرحالة ك» قد بيّن أن إشاعة تكليف الخديوي له للدعاية له في الأقطار العربية والإسلامية إنما هي إشاعة باطلة وأن «الكواكبي» لم يكن مدفوعاً في رحلته إلاّ من نفسه بنفسه.

وأضيف أنا إلى ثبت «العقّاد» أن هذه الإشاعة هي ما كان يبتغيه السلطان ومشاوره الكبير ليسمّم أفكار الناس وإيمانهم بأهداف رحلة «الكواكبي» النبيلة بدسيسة قد تجد من يؤمن بها دون تبصُّرٍ أو بصيرة.

ومما استغربه في هذا الباب، من مزالق بعض المؤرخين والكُتّاب، ما ذكره «محمد أحمد المقطوف» في مقال له بمجلة «الثقافة العربية» في عدد أيلول ١٩٥٩، إذ أنه أورد ذلك الزعم الباطل قبل حديثه هو نفسه في المقال ذاته عن نفي «عباس محمود العقّاد» له، وكأني به يثبت واقعة تاريخية على أنها أخطأ بها «العقّاد»، في تسلسل الوقائع التي

سردها عن حياة «الكواكبي». فكيف توصّل إلى فرضيته وممن استقاها من الرجال الثقة؟.

وعن تاريخ بدء صلة «الكواكبي» بالخديوي، كتب «نديم الكواكبي» (وهو «عبد المسيح الأنطاكي») في العدد الثامن من جريدة «القاهرة» تموز ـ يوليو ١٩٠٣ يقول:

« . . . إن الكواكبي ظلّ مختفياً في القاهرة منذ وصوله إليها حتى طبع كتاب «أم القرى» إذ أرسل منه نسختين إلى الخديوي في الإسكندرية، ونسخة أخرى لـ «الشيخ محمد عبده» والثالثة لـ «الشيخ علي يوسف» وقد سُرّ الخديوي بالكتاب، فأرسل موعزاً إلى هذين الشيخين أن يسعيا للتعرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه فما زالا يسألان حتى سمعا عن رجل غريب مقيم بشارع «عابدين» فلمّا قابلاه عرفهما بنفسه قائلاً: أنا معروف باسم «عبد الرحمن الكواكبي» من حلب. فتذكّر «علي يوسف» أن مقالات وردت إليه بهذا الإمضاء، وسأله إن كان هو صاحب «أم القرى» فأنكر أولاً، ثم أفاد بالإيجاب. وهنا بدأت صلته بالخديوي إلى أن توفي رحمه الله. لكن الظاهر أن هذه الصلة كانت هشّة القوام إذ سرعان ما تحسّنت العلاقات فيما بين الخديوي «عباس» والسلطان «عبد الحميد الثاني» فساءت من طرف آخر بين الخديوي وبين «الكواكبي». ويثبت ذلك أن «الكواكبي» قد وصف ـ في مقدمة الطبعة الأولى من «طبائع الإستبداد» ـ سبب هجرته إلى مصر بأنها « . . . إغتنام لعهد الحرية فيها على يد عزيزها ومعزّها حضرة سمي عمّ النبيّ الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه. . . . » ثم إنه ـ بعد تنقيحه الطبعة الأولى ـ عمد إلى شطب كلمة «معزّها» وإلى استبدال عبارة «الناشر لواء الأمن» من عبارة «الناشر لواء الحرية»!.

* * *

تلك كانت علاقته بالخديوي «عباس» إبتدأت بأن ضرب له الخديوي أخماساً زائفة لأسداس خفيّة، وانتهت بمأساة لا يعلم أسرارها غير الله، عَلّتها غشاوة فيما بين الإثنين لا تزال ماثلة لأعين المراقبين.

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

كتبه - عقوبة إقتنائها - أبحاثه - مقالاته - رسائله

(٨)

الكواكبي

كتبه ـ عقوبة إقتنائها ـ أبحاثه ـ مقالاته ـ رسائله

أم القرى

أول كتاب نُشِرَ لـ «الكواكبي». وقد أشرت آنفاً إلى أنه قد كتبه كلّه أو كتب أفكاره ومخططه في حلب خلال العقد الأخير من القرن السابق (التاسع عشر). وقد أثبت فيه ضبوط جلسات مؤتمر إسلامي عالمي ضم علماء مسلمين من جميع البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، عُقِدَ في مكّة المكرمة «أم القرى» في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ١٣١٦هـ ـ ٢٤ نيسان ـ ابريل ١٨٩٩م. (أي قبل قيامه برحلته الكبرى رحلة الهجرة إلى مصر والبلاد العربية والإفريقية التي تمت في أوائل عام ١٣١٨هـ).

مهمة هذا المؤتمر بَحْثُ أحوال المسلمين وأسباب تأخرهم عن دينهم ما أدّى بهم إلى التخلّف العام، والوسائل التي يجب عليهم أن يتوسلوا بها لاستعادة شأنهم الصحيح. كما بحث أمر خلافة المسلمين ومكانها والشرائط التي يجب أن تتوفر في خليفة المسلمين من حيث العرق والانتساب. وكل ما عرفناه أن هذا الكتاب قد كتبت مُسَوّداته في حلب بقلمه وقام بتبييضها له إبنه «أسعد».

طبائع الإستبداد

كَتَبه «الكواكبي» كذلك في حلب على مُسَوّدات لم تجمع في كتاب، حملها معه إلى مصر في هجرته ١٥ محرم ١٣١٨هـ ـ ٥/أيار ـ مايو ١٩٠٠م، وقدّمها مقالات للصحف القاهرية، ثم جمعها وطبعها طبعة أولى ما لبث أن عزّزها بطبعة ثانية لنفاد

الأولى. على أنه قد استبدل في مقدمة هذه النسخة المنقّحة صمةً من صفة للخديوي، على ما أوضحه «الأنطاكي» مما أسلفنا ذكره ثم انكبّ على تعديل الكتابة وإضافة الكثير عليها بخطّه، إلاّ أنه لم تتسع له حياته لإعادة طبعها. وهي التي نجت من المصادرة إذ كان عمي «الكاظم» قد أخفاها ورجع بها إلى حلب. وقد بيّضها عمي «أسعد» وقام أخي «عبد الرحمن» بطبعها في بيروت عام ١٩٧٣. وقد أدرجها الدكتور عمارة في «الأعمال الكاملة للكواكبي» بطبعة ١٩٧٥. وسلّم أخي النسخة الخطية التي هي من خط جدي وقلمه إلى دائرة الوثائق التاريخية بدمشق.

* * *

هذان هما الكتابان الوحيدان الباقيان حتى الآن مما كتبه «الكواكبي».

وتظهر أهمية كتاب «أم القرى» في كونه أول دراسة عربية وإسلامية عن أوضاع العرب والمسلمين في الشرق، تصف تأخرهم عن ركب الحضارة وتضع النقاط على الحروف في أسباب ذلك التخلف وتنير الطريق للقضاء على هذا التخلف.. وقد اشتملت أبحاث المؤتمر الموصوف على كل ما يهمّ المسلمين من أمورهم الدينية والمعيشية حتى السياسية منها. وكان أبرز ما أهتمّ به المؤتمر مكانة العرب من الدولة الإسلامية وموقفهم من الخلافة وموقف سائر الأمم منها. وهذا ما أثار حفيظة الأتراك والسلطنة العثمانية على الأخص إذ جعل الخلافة وخدمة الحرمين الشريفين وقرارات الشورى الإسلامية بعيدة كلها عن حق غير العرب في الدولة الإسلامية. كما أثار حفيظة من يدّعون أنهم رجال دين وهم الجهلة والمشعوذون وأصحاب المصالح ودعاة الطرق الصوفية الغيبية وعلى رأسهم «أبو الهدى الصيادي» نظراً إلى مهاجمته هؤلاء وأتباعهم لابتعادهم عن حقيقة التصوف الإسلامي القديم، إلى غير هؤلاء جميعاً من المتسببين في التخلّف العام للمسلمين. فضلاً عن حملته في سبيل تعليم المرأة المسلمة وإنقاذها من الجهل المسيطر.

ومن النقاط المثيرة للإنتباه ذلك الجدول السرّي (الشيفرة) الرقمية والهجائية التي وضعها «الكواكبي» في أواخر «أم القرى» مرة بأسطر رقمية ومرة بأسطر أحرف هجائية، يقول عنها إنها بيان سرّي لجمعية أم القرى سيكشفه الزمان. كما أنه وضع طريقة لتبادل الرسائل الجفرية أوضحها بجدول من الأسطر الجفرية موضحاً طريقة الكتابة وطريقة

الحل بالمفتاح الذي يتفق عليه المتراسلون. ولا زلنا مُتَّكِلِين على ذوي الهمة نحاول الاستعانة بالحاسوب لكشف ترجمة هذا البيان الرقمي والجفري وكشف مفتاح الطريقة الجفرية.

وطبعة: «أم القرى» لعام ١٩٣١ في المطبعة المصرية بالأزهر الصادرة عن المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر تخلو من البيان الجفري ومن جداول طريقة الكتابة. وبناء عليه تعتبر نسخة ناقصة بسبب عدم اهتمام الناشر بذلك الجدول لعدم فهمه إياه!

أما كتاب «طبائع الإستبداد» فإنه دراسة فلسفية للإستبداد والحكم الفردي للمستبد، ولمعنى الحرية والطُرُق التي يتبعها المستبد في سبيل كبت الحرية وإخضاع أفراد الرعية لمشيئته، والوسائل التي يعتمدها المستبد في هذا السبيل من تعميم الجهل وتعميم ممارسة الغيبيات من طرق صوفية وأذكار راقصة وسواها وتسخير الدين لخدمة السلطان بواسطة رجال أضفى عليهم صفات رجال الدين مما لا يقرّه الدين الإسلامي الذي ليس فيه صفة رجل دين ولا هو يجيز تسلط هؤلاء المُتَّسمين بهذه الصفة.

اشتمل الكتاب على نظرية الإشتراكية ومكانها من التشريع الإسلاميّ مؤكداً على أن العرب هم أوْلَى الأمم بالمعيشة الإشتراكية. فكان لبحثه هذا النظام الاقتصادي أولوية فاقت أولويات المنادين بالنظرية بشكل فوضوي غير مقنن في أوربا ـ كما يقول الدكتور محمد عمارة ـ وقبل الإشتراكية العلمية التي اتبعها «لينين».

وقد أشار في كتابه هذا إلى أنه دراسة عامة للإستبداد والحرية لا تنحصر بفرد معين مقصود لوحده وإنما هو دارسة عامة لكافة البشر.

وكان أول من تضرر بأحكام هذه الدراسة هو السلطان العثماني وحاشيته وأعوانه الذين يناصرونه على الإستبداد.

وبلغ هذا الكتاب الفلسفي بالشهرة الآفاق وذاع صيته. حتى أنه ترجم بعيد وفاة «الكواكبي»، أي بعد نشر الطبعة الأولى بثلاث سنوات تقريباً إلى اللغة الفارسية على يد «عبد الحسين» الذي يؤكد «جمال باروت» صاحب كتاب «يثرب الجديدة» في تصريح خاص، على أنه هو «عبد الحسين الحلّي» الذي كان معتمداً من قبل «آية الله نائيني» وصاحبه «الخراساني» الذي تأثر به فقام بثورته على الأسرة القاجارية. وأثبت «جمال

باروت» أقوال «نائيني» المطابقة لكلام «طبائع الإستبداد» حتى أنه أسماه: بـ «كواكبي الشيعة»!

وكان نشر الكتاب المترجم إلى الفارسية بطهران ـ كما جاء في مقدمة «عبد الحسين» ـ في شهر شعبان سنة ١٣٢٥هـ ـ (وهو يوافق شهر أيلول من سنة ١٩٠٧) أي بعد وفاة الكواكبي بخمس سنوات. أما تاريخ الترجمة فكان قبل تاريخ النشر طبعاً. وبَدَهيّ أن يحصل تأخر في النشر على تاريخ الترجمة، ذلك لأن تاريخ ثورة الدستور الإيراني التي قادها «الملاّ محمد كاظم الخراساني» حصلت سنة ١٩٠٥ مستندة إلى تعاليم «آية الله نائيني» المستمدة من «طبائع الإستبداد» للـ «كواكبي».

وعلى هذا يمكننا التأكيد على أن أول ثمار فعلية لثورة ضد الإستبداد التي نبتت أصولها من كتاب «طبائع الإستبداد» قد أينعت في إيران فكانت تلك الحركة الثورية التي عرفت بـ «المشروطة» التي اعتبرها «لينين» منذ عام ١٩١١ ـ كما يشير جمال باروت ـ سمة من سمات عصر يقظة آسية. وهذا ما يعيد الذهن بنا إلى متابعة «لينين» أفكار «الكواكبي» ـ الذي راسله «لينين» ـ حيثما وصلت، حتى إذا أينعت في إيران أشار إلى نتائجها.

يقول «جمال باروت» في كتابه «يثرب الجديدة» في حديثه عن الثورة الإيرانية سنة ١٩٠٥: «.... ويبدو «النائيني» ـ في هجومه المنظم على الإكليروس الشيعي من «أنصار المستبدة» ـ أقرب ما يكون إلى «كواكبي» الشيعة. فبغض النظر عن مدى إطلاع «نائيني» على «طبائع الإستبداد» لـ «عبد الرحمن الكواكبي. فإنه يحدّد الآلية القائمة ما بين الإستبداد السياسي والإستبداد الديني والتي تقوم على المماثلة ما بين السلطان المستبد والله وفقاً لطريقة «الكواكبي» بل وبشكل يقترب كثيراً من لغة «الكواكبي» وصياغته وروحيته».

وترجم «طبائع الإستبداد» إلى الروسية على يد المستشرق الروسي «ليڤين».

وحتى الآن لم نعثر على ترجمة أخرى له ولا لكتاب «أم القرى»، إلاّ في كتب المؤلفين الغربيين إذ تناولت كثيراً من أبحاث الكتابين بلغة صاحب المؤلف.

ومن الجدير بالذكر أن أخي «عبد الرحمن» كان قد اكتشف في مكتبة «نيويورك» نسخة من «طبائع الإستبداد» منشورة في ذيل كتاب «دليل مصر والسودان» لصاحبيه

«ثابت وأنطاكي» لسنة ١٩٠٥ إفرنكية. وقد كتب تحت عنوان الكتاب: «... مصححة ومزاد عليها زيادات ذات شأن بقلم مؤلفها «السيد عبد الرحمن الكواكبي» رحمه الله..» ثم جاءت مقدمة طويلة للناشر جاء فيها: «... نَزِفُّ إليكم أيها السادة الأماثل أعيان مصر وعظماؤها وتجارها هذا الكتاب الجليل الذي وضعه فيلسوف الشرق المرحوم المبرور «عبد الرحمن الكواكبي» رحمه الله، خدمة للناطقين بالضاد... كما نسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذا التأليف وغيره من تآليف «الكواكبي»...» وحملت مقدمة هذه الكتاب عنوان «دليل مصر والسودان».

أما عن عقوبة إقتناء كتب «الكواكبي» فلقد تحدث عنها الكثيرون من أمثال: «يوسف يزبك» الذي سمعت محاضرته في الخمسينات من راديو بيروت إذ ذكر فيها أن شباب تلك الأيام كانوا يذهبون إلى رجل معين، بصورة سرية، يعمل فرّاناً في السوق، ويلقون له كلمة السرّ قائلين «يقول لك والدي أعطني العصا» فيمد يده إلى ما تحت الأحطاب المعدة للوقود ويسحب منها نسخة من «طبائع الإستبداد» ويلفّها بالخبز لكي لا يشاهدها رجال البوليس ويدفعها إلينا مع العصا.

وقد حدثني «الشيخ محمد أبو البحرين» في سنة ١٩٥٣، وهو والد زميلي المرحوم القاضي «ماجد ـ أبو البحرين» ومتتبع لأعمال وأخبار جدي «عبد الرحمن» إذ عاصره، أن كتابين كانا ممنوعين بإرادة سنية من السلطان عبد الحميد تحت طائلة عقوبة الإعدام للمقتني هما «طبائع الإستبداد» و «أم القرى». وأن كتاباً ثالثاً ليس لـ «كواكبي» وإنما لـ «عبد الله النديم» هو «المسامير» قد جرت مكافحته بطريقة أخرى هي أن يشتريه أتباع «الصيادي» من مقتنيه ببضع ليرات عثمانية ذهباً تدفع من جيب «الصيادي»، لأنه يفضح «الصيادي» ونسبه ويسرد تاريخ حياته منذ ولادته وانتقال أبيه من «عانة» بالعراق إلى «خانْ شيخون». (وهو على شكل مقامات أسمى كل واحدة منها «مسماراً»، بكلام فاحش قال عنه الأديب المصري «أحمد أمين» في تأريخه لـ «عبد الله النديم» وحديثه عن «الصيادي» بكتابه «فيض الخاصر» أن عباراته لا تشرّف «الصيادي» ولا «النديم»! ولقد فقد كتاب «عبد الله النديم» لهذا السبب المغري ولم يفقد كتابا «الكواكبي» رغم عقوبة الإعدام!).

ومن جملة العقوبات التي طبقت بحق مقتني كتب «الكواكبي» ما قضي به بالسجن

مع الأشغال ثلاث سنوات على الأديب «نخلة قلفاط» وشريكه «سليم الميداني» صاحبي «المكتبة الكلية» في بيروت، إذ عَثَرَ رجال البوليس على نسخة من «أم القرى» في مكتبتهما لم تكن مباعة لأحد. وقد توفي المرحوم «نخلة» في سجنه وأوردت جريدة «المقطّم» الخبر في سنة ١٩٠٥.

وكم هم كثر أولئك الذين تلقوا العقوبات لاقتنائهم كتب «الكواكبي».

* * *

صحائف قريش

أشار إليه «الكواكبي» في مقدمة «أم القرى» ذاكراً أنه «... سيصدر وسيكون له شأن كبير في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية...».

لم نجد أثراً لهذا الكتاب. ولا شك في أنه دخل في جملة المصادارات التي أُخرجت من بيته.

العظمة لله

وقد شاهده «المرحوم كرد علي» لدى «الكواكبي» في القاهرة وأتى على ذكره في الـ «خطط». ولا شك في أن الكتاب إنما كان يهدف إلى شرح أحوال الملوك والحكام وأصحاب السلطان الذين تصفهم أممهم بالعظمة، وموقف هذه الأمم من أمرهم وتنبيه المسلمين إلى أن العظمة يجب أن لا تطلق إلاّ على الله تعالى. ولعلّ فيه بيان لسوء أحوال من يدّعونَ لأنفسهم العظمة من دون الله.

الأنساب

في رسالة من عمي الطبيب العسكري «أسعد» إلى أخيه الطبيب العسكري «رشيد» المرسلة إلى «طرابلس الغرب» ـ أيام خدمتهما في الجيش التركي في نهاية الحرب الأولى ـ توصية له بالمرور على «الشيخ رشيد رضا» واستعادة هذا الكتاب الذي دفعه إليه والده للطباعة ولا نعرف مصير هذا الكتاب ونتيجة هذه الرسالة. ذلك أنني اكتشفت هذه الرسالة بين أوراق عمي «أسعد» التي أعطتني إياها عمتي «عفيفة» بعد وفاته بمدة بعيدة.

أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها

وكان «الكواكبي» قد نشره كبحث أولي في جريدة «المؤيد» لصاحبها «علي يوسف»

في ١٧ آذار ـ مارس ١٨٩٩م/ ٢٥ شوال ١٣١٦هـ وافاه به خلال رحلته الأولى التي استغرقت عام ١٣١٦هـ أو أرسله له من حلب قبل قيامه برحلته في مطلع تلك السنة بدليل أن التوقيع يحمل عبارة «حلب ع». وكان عنوانه «ما هو الداء وكيف يُرْجى الشفاء».

أحسن ما كان في أسباب العمران

ماذا أصابنا وكيف السلامة

وقد ذكر هذا «رشيد رضا» في «المنار» مج٨ ج٢٢ ص ٨٦١ ـ ١١/ ١/ ١٩٠٥.

ولا نعلم شيئاً عن محتويات هذين الكتابين ومصيرهما إلاّ مما ذكره «عبد المسيح الأنطاكي» عن وجودهما وإطلاعه عليهما. ولعل المنية هي التي حالت دون «الأنطاكي» ودون تحقيق وعده بنشرها، فهي كانت في متناول يده على أكبر تقدير.

تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام:

لا بدّ من أن هناك سبباً مباشراً لتأليف هذا الكتاب. إنه إتصاله بحادثة مؤلمة في حياة «الكواكبي» هي التي دعته إلى كتابته بعد أن قام برحلة تفقدية لأحوال الرقيق في البلاد الإسلامية دفعته إليها تلك الحادثة التي كنت أشرت إليها سابقاً، ولا بدّ لي من تفصيل هذه الحادثة في هذا الباب لأهميتها. فأقول مؤرخاً لها:

في أحدى أمسيات شهر آب ـ أغستس سنة ١٩٤٥، وكنت في صف البكالوريا الثانية، عدت إلى بيتي قبيل الغروب، وكان البيت خالياً إلاّ من مربيتنا الزنجية «الدادا سعيدة» التي كانت متربعة فوق سجادتها الممدودة على أرض المصطبة العريضة المطلة على سائر المدينة والأفق البعيد (إذ كانت أرض بيتنا أعلى من سائر بيوت المدينة قاطبة ومكشوفة عليها من علٍ حتى الأفق). فاقتربت منها لأُقَبّلها كعادتي، فإذا بها تمسح دموعاً من عينيها. فسألتها عمّا يبكيها، معتقداً أنها تبكي والدي الذي ربته صغيراً والذي لم يمضِ على وفاته إلاّ عام، فلم تحِرْ جواباً وإنما أنغضت إلي رأسها، فأصررت عليها، فقالت:

ـ تذكرت أباك وعمك وجدك وجدتك وعمتك فبكيت...

فقلت: ـ أوَلَمْ تَذّكري أباك وأمك؟

فأجابت: ـ لا أعرفهما.

فاقسمت عليها إلاّ أن تَصْدُقَني الحديث، فإذا بها ـ بعد إطراق وتنهّدات ـ تفتح في صدرها بئراً عميقة غاصت وغصّت معها فيها إلى القرار. فاسمع ما قالت:

ـ أنا يا حبيبي من بلاد السودان. وبلدي إسمها «سنارة» ووالدي كان شيخاً في مسجد البلد يُقرِئ القرآن للأطفال. وكنت طفلة لم أُدرك سنّ البلوغ واسمي «حجاب النور». كنا نخرج لجمع الخضار والفاكهة من الغابة بسبب فقرنا لنعود بها ونأكلها في البيت مع إخوتي الصغار وتبيع أمي منها. وفي إحدى المرات وبينما كنت في طريق الغابة والوقت في مطلع الشمس إنتأيت مكاناً قصياً لأقضي حاجة خلف شجرة مبتعدة عن قافلة أهلي بما فيها من رجال ونساء. فإذا بكفٍّ قوية من خلفي تطبق على فمي وتكتم صوتي وبأيد كثيرة تطوقني وأُحْمَلُ بعيدة حيث عُصِبَتْ عيناي وكُمَّ فمي بشريط وحُمِلْتُ على دابّة أمام رجل لمسافة بعيدة إلى مكان ترجّلنا فيه. ولمّا رفعوا العُصابة عن عينيّ وجدت نفسي ضمن مجموعة من الأطفال ذكوراً وإناثاً عرفت واحداً منهم فقط أصغر مني. فأقعيت مثلهم على الأرض وأنا أبكي موثوقة اليدين مكمومة الفم. ثم وزّعونا على أماكن أخرى. وفي اليوم التالي أعادوا عصب عينيّ وشعرت أنهم أركبوني في قارب. ولم أُبصر إلاّ حينما أزالوا العصابة عن عيني. فإذا نحن على شاطئ بحرٍ لا أعرفه في حياتي وفي بلدة قالوا إن اسمها «جدّة». وفرزوا البنات عن الصبيان. كل نوع في حظيرة من زرائب القشّ. وبعد أيام قضيتها بالبكاء والعويل والضرب المبرّح عرضوني على أحد الرجال وكان من الحجاج يومئذٍ فاشتراني وجاء بي إلى حلب. وقد أطلق عليّ الرجل الذي باعني له اسم: «سعيدة» ونبّهني إلى أنه اسمي الجديد بدلاً من «حجاب النور» الذي لم يُجْدِ إصراري على الإحتفاظ به. وقضيت في خدمة هذا الحلبي سنتين تقريباً ذقت فيها أمرّ العذاب. وكانت أصوات إستغاثتي تصل إلى الجيران. فراح هؤلاء يشتكون لـ «الأفندي» ـ أعني جدك عبد الرحمن ـ فأرسل جدتك، فجاءت تُحَدِّث زوجة ذلك الرجل بشأني وتلومها على سوء معاملتهم لي وتعذيبي. ولكن ذلك لم يفلح في ردعهم عن غيّهم، فكرّر الجيران شكواهم إلى «الأفندي» الذي استدعى التاجر إليه وعرض له مبلغاً كبيراً من المال أكبر من الذي اشتراني به لكي يعتقني، وقد جاء في

اليوم التالي ودفع المبلغ بحضوري وقال لي:

ـ إذهبي يا بنتي إلى حيث تشائين فأنت حرّة.

فقلت له: ـ لا أعرف أحداً.

ورجوته أن يأخذني معه لأعيش مع أولاده فأنا ليس لي أهل. وقلت له إنني مخطوفة من «سنارة» بالسودان. وأصرّ الجيران أهل الحي مثنين على رجائي، فاصطحبني معه إلى بيته، ودخلت من هذا الباب ـ وأشارت بإصبعها ـ. وحدّث زوجته بأمري فرحّبت بي وأضافوني إلى أفراد الأسرة وألبسوني اللباس الجديد كسائر البنات فكنت أختاً لهن. وعهد إليّ جدك بتربية الطفلين: أبيك وعمتك «نظيرة».

وبعد مدة قصيرة سمعت منه يقول: أبشري إن شاء الله فسأعيدك إلى بلدك «سنارة». فقلت له: من سيأخذني؟ فقال: أنا بنفسي.

ومرّت أيام، وفي ليلة من ليالي الصيف المقمرة أمرني بترتيب حوائجه مع زوجته، ثم ودّعنا مسافراً على أنه سيخبرنا برسالة لكي نلحق به إلى مكان وجوده وهناك سيعيدني إلى أهلي.

أما جدتك فقد برّح بها الحزن إذ جاء الخبر بوفاته، وتوفيت بعد مدة وجيزة أدركت فيها أنا سن البلوغ وبقيت مع الطفلين والنساء الصبايا حتى عودة أعمامك من «السفر برلك». وهكذا مرّت الأيام، وأنا لم أُحدّث أحداً من أهلك بهذا الحديث كي لا أثير مشاعرهم ولأنني ـ بصراحة ـ خِفْتُ من أن يتخلوا عني وليس لي أحد في الدنيا إلاّ هم، ولا أريد أن أعود إلى منزل ذلك التاجر الظالم، وقد أصبحت فرداً من أفراد الأسرة، ذقت مع أهلك الحلو والحامض، فأنتم جميعاً أسرتي وأهلي أولاً، ثم إنني لم أعد أرضى بديلاً عنكم.

قلت: ـ لماذا تبكين إذن؟

قالت: لا أدري... الآن... بعد طول السنين... تذكّرت طفولتي وأنا أراقب هذه الغيوم الحمراء التي كنت أشاهدها في بلدتنا قبيل الغروب في طرف السماء، فذكّرتني بأهلي وتذكّرت قصة خطفي في الغابة من قبل أعداء قبيلتنا الذين كنّا نخشاهم دوماً، وتذكّرت بيعي للعربان في «جدة» فاحترق قلبي يا بني...

وعدتها بأنني سأساعدها في التفتيش عن أهلها وإعادتها إليهم إذا تمكّنت.

وبالفعل فلقد قررت على أن أدرس الأدب العربي في مصر. ولمّا كنت لا أملك ـ بعد وفاة أبي ـ أي قرش سوى راتب متواضع يكاد يكفيني وأهلي، في وظيفة كلّفوني بها في الإدارة التي كان يرأسها أبي، فقد حدثت المرحوم «سعد الله الجابري» صديق والدي عن رغبتي فشجعني وسألني عن استعدادي للسفر إلى مصر فأعلمته بأنني سأذهب مع فرقة الكشافة. فزودني بكتاب إلى صديقه المرحوم العلامة «عبد الرزاق السنهوري باشا».

وعُدْتُ إلى حلب من دمشق أبشّر مربيتي «حجاب النور» بأنني سأكون بالقرب من أهلها بعد أيام. وحدّثت عماتي وعمّي بحديث الدادا «حجاب النور» وبحقيقة إسمها الذي أعلمتني أنها لم تذكره لأحد من أولاد جدي، وبنيتي السؤال عنها إذا ذهبت إلى مصر، فوافقني عمّي وأفهمني أنه سيحاول ذلك أيضاً في سفره القريب إلى المؤتمر الطبي بالقاهرة.

وسافرت إلى مصر، وكان المرحوم «السنهوري باشا» غائباً عنها. وقضيت أياماً التقيت خلالها مع عمّي «أسعد» الذي قادني ليعرّفني على ضريح جدي «عبد الرحمن». وعند الضريح تذكرت أمر «الدادا سعيدة» فسألته فأفادني بأنه لم يتمكن من الوصول إلى معلومات بشأن «الدادا سعيدة (أو «حجاب النور»)» وعدت بالرسالة. (ولا أزال أحتفظ بها). وتوفي «سعد الله الجابري» واضطرتني الحاجة وضيق ذات اليد إلى دراسة الحقوق والبقاء في حلب دون أن أتمكن من أن أساعد «حجاب النور» بتدبير مّا رغم جهدي ومحاولاتي.

وفي أحد الأيام لزِمَتْ «حجاب النور» فراشها لمرض ألمّ بها. وكنت إلى جانب سريرها أواسيها حينما طلبت مني أن أنقلها إلى دار العجزة (الذي أنشأته الملكة «ضيفة خاتون» زوجة «الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي» في حارتنا «الفرافرة» والذي عرف باسم «خانقاه الملكة ضيفة» وخصصته للزنجيات اللواتي لم يبق لهن مأوى ومعين، وهو بالقرب من دارنا بالفرافرة).

تألمتُ كثيراً لهذا الطلب وسألتها عن السبب الذي يدعوها إلى عرضه فقالت:

ـ إنني أخشى أن يقعد بي المرض عن القيام بحاجتي وأنا لا أريد أن أُحْمَلَ على

الأيدي. فأنا أعرف عذاب رعاية المريض المقعد في آخر حياته، فلقد مات أربعة من أهلك تباعاً بين يدي. كما أطلب منك شيئاً آخر.

ـ لا والله يا دادا، إنك ستبقين طوال حياتك الطويلة إن شاء الله بيننا وستشفين غداً. ولكن ما هو الطلب الثاني؟

ـ هو أن تعتقني أنت وإخوتك وأولاد عمك وأعمامك وعماتك. وأكلفك أنت بالتحدث معهم بهذا الأمر وبأن تستنطقهم لفظ «العتق» جهاراً على مسمع منك إذا كانوا يرضون.

ـ أعوذ بالله يا دادا، إنك تهذين، كيف نعتقك؟ ومن تكونين حتى نعتقك؟

ـ أنا عبدة. ألا ترى لوني؟

ومدّت تكشف عن ساعدها لتريني جلدها الأسود، غير مكتفية بلون وجهها، إمعاناً منها في التأكيد.

ـ ولماذا لا نكون نحن البيض عبيداً لك؟

ـ كلا يا إبني... فلقد كرّمكم أنتم الله سبحانه وتعالى باللون الأبيض فلا يجوز أن نجحد نعمته...

ـ من قال لك ذلك؟ ليس هو الله الذي فعل ذلك تمييزاً للبيض على السود، إنما هي شمس بلادكم المحرقة التي لونت جلدكم وبرودة شمسنا التي أذهبت اللون عن بشرتنا. صدّقيني واسألي عمي وسائر الناس.

ـ لا يا بني. لقد سمعت مرة من درس الشيخ في الجامع الكبير أن الإنسان إذا أراد أن يعتق عبده فيجب أن يتلفظ بلفظ العتق جهاراً. وإنني لم أسمع هذه الكلمة من أحد من أسرة المرحوم جدك بعد وفاته...

وقطعت علي الكلام والمناقشة في حقيقة كونها عبدة. فقلت لها:

ـ ألم تحكِ لي بأن جدي افتداك من التاجر الحلبي وقال لك أنت حرة فلتذهبي حيث تشائين وأنك أنت التي طلبت أن تبقي لديه مع أولاده؟

ـ نعم ولكنني أذكر أنه لم يلفظ كلمة «العتق» لا هو ولا ذلك التاجر. وأنا أريد

سماع تلك الكلمة بالذات كما قال الشيخ.

ـ كيف تريدين سماعها؟ إنّ أحداً منّا لا يعترف بعبوديتك، فأنت أخت ثم أم ثم خالة وعمة للجميع وأم والدي وأنت حرة من يوم ولدتك أمك لأنك مخطوفة والشيخ الذي استمعتي له جاهل. ولقد حررك جدي فوق ذلك بلفظ صريح!

(ولم أكن يومئذٍ أعرف القاعدة الشرعية التي تجعل العتاق أحد ثلاث جدّهن جد وهزلهن جدّ، وأن كلمة «أنت حرة» تكفيها!).

ـ رحم الله جدك ـ حرّرني فعلاً، وسافر على نيّة أن ألحق به فيعيدني إلى أهلي لأصبح حرة حسب الشرع. إسمع إنني لم أطلب هذا الطلب من سواك.

وتعجبت كثيراً لعدم بوحها برغبتها هذه لأي من أهلي، ولعلّها اختارت أصغر البالغين بدافع الخجل.

حاولت عبثاً إقناعها بأنها حرة. وكان المانع لي عن إجابة طلبها بالتلفظ بلفظ العتق خجلي وألمي فضلاً عن أنني لا اعترف أصلاً بالعبودية بأي شكلٍ كان. ورحت أبكي فعلاً، ثم فكّرت فأدركت أن عليّ أن أدوس على اعتباراتي وعلى خجلي وكبريائي في سبيل إرضائها وراحتها النفسية لكي لا تموت إلاّ وهي تشعر بأنها حرة وليست عبدة أو لم تعد عبدة. وهي أمنية حياتها. فقلت لها بألم وبخجل ما شعرت بمثلهما في حياتي حتى الآن:

ـ إذا كنت عبدة فلقد أعتقتك لوجه الله.

ـ وإخوتك وأعمامك وعماتك وأولاد عمك، يجب أن تسمع منهم لفظ «العتق» كما قال الشيخ، أفهمت؟ وهي أمانة في رقبتك.

ـ أنا كفيل بهم. وهأنذا ذاهب إليهم لذلك.

ولما اشتدّ بها المرض في طور النزع الأخير سألتها عما ترغب فيه، فقالت:

ـ أنا مشتاقة لأمي... آه، من يأخذني إليها؟ اكتبوا لها وقولوا لها:

«إن حجاب النور تموت يمّه».

وماتت المسكينة في ٩ ذي القعدة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧/٩/٢٦م عن عمر يناهز تسعة

وخمسين عاماً، ودفنت مع رفاة سيدة من آل النقيب أخوال جدي.

* * *

إنها قصة مربيتي وإخوتي، وأبينا من قبلنا، لا تزال تفعل في صدورنا فعل النار في الهشيم. أفلم تكن تفعل مثل ذلك في صدر جدّنا «عبد الرحمن الكواكبي»؟

بلى. لقد فعلت فعلاً كبيراً جعله يذهب خصيصاً إلى سواحل البحر الأحمر وشرقي إفريقية ويحقق في أحوال سرقة الأولاد الزنوج وبيعهم في مواسم الحج في سوق «جدة»، فآثر أن يبحث عن أمر هذا الرق من الناحية الواقعية والاجتماعية والدينية الإسلامية، وكتب ذلك الكتاب عن الرق في الإسلام الذي وصلنا منه بعضه مما نشره «رشيد رضا» في «المنار» في ١١/١/١٩٠٥ و١٦ ذي القعدة ١٣٢٣هـ المجلد الثامن ج٢٢.

ومن قرأ هذا البحث (الذي عثر عليه الدكتور محمد عمارة وأثبته في «الأعمال الكاملة للكواكبي» وأثبته جمال الطحان في الأعمال الكاملة أيضاً) وجد كيف أن الكواكبي ذهب إلى أماكن تجارة الرقيق في جدة وحقّق وعرف أسماء القبائل والأفراد والعصابات والقرصان ممن يتولون تجارة الرقيق وفصّل أنواعه ومصادره والجهات التي يباع لأهلها كل نوع. وبعد التحقيق الدقيق راح يشرح الموقف الديني من تجارة الرقيق ووسائل القضاء عليه والطرق اللازمة لإجبار الحكومة العثمانية على الحدّ منه والزام الحكومات الغربية باتخاذ الضغوط اللازمة عليها لكي تمنع هذه التجارة، مورداً ثبتاً لآراء متبادلة بينه وبين أحد أصدقائه العلماء في شأن الرقيق. (يؤكد صاحب «المنار» أنه الإمام محمد عبده).

المؤسف في هذا الأمر أن الكتاب بكامله قد فُقِدَ مع سائر كتبه وأوراقه ولم يسلم منه إلاّ ما كان قد سلّمه لـ «رشيد رضا» كنشرة أولية مقدمة للكتاب الجامع، ثم أدركته الوفاة قبل أن يوافيه بالبقية التي انتظرها «رشيد رضا» أكثر من سنة بعد وفاته ثم رأى أن ينشر ما سبق الحصول عليه منها ولو متأخراً.

تلك هي الكتب.

أما المقالات المفردة فهي كثيرة جداً، منها ما كان قد كتبها في جريدة **«فرات»** الرسمية ومنها مقالاته في جريدته **«الشهباء»** التي عُطّلت مرات عدة قبل أن تُعَطّل نهائياً،

ومنها مقالاته في جريدة «**إعتدال**» التي ثابر فيها على نهج «الشهباء» فأدركها التعطيل أيضاً. ومنها ما كان يرسلها من حلب، ومنها ما بعث بها إلى الجرائد أثناء وجوده في مصر. ومنها ما كانت تنقله جرائد غير سورية من جرائده الحلبية كجريدة «**النجاح**» البيروتية التي نشرت له مقالاً من جريدة «فرات» في العدد ٣٣ منها في ٢٧/ ٣/ ١٨٧٢. ومنها ما نشره في جريدة «العرب» التي أصدرها في القاهرة ثم توقفت بعد أيام.

وأما الجرائد غير الحلبية التي كان يراسلها فهي:

«**النحلة**» وتصدر في بريطانيا، وقد أشارت الجريدة إلى مقالين وصلاها من «مراسلها غير الاعتيادي» في ١/ ٤/ ١٨٧٩ وإلى أنها حذفت منهما عبارات يتّهم فيها الكاتبُ رجالَ الدولة والقناصل من دون تقديم الدليل. وقد أشار «جان داية» إلى أن هذين المقالين نشرا أيضاً في العدد الخامس من «الشهباء» في شهر ١٢/ ١٨٧٧.

«**الأهرام**» وقد نشرت مقالاً بتاريخ ١٢/ ٦/ ١٨٧٩ من غير توقيع، حقّقه «جان داية» على أنه من كتابة «الكواكبي» إذ كرّر فيه السخرية والنقد اللذين كان قد ساقهما في جريدته «إعتدال» حول «آثار جغرافية في حلب».

«**المصباح**» اللبنانية، وفيها مقال تحت عنوان «مراسلات من حلب في ١٩ آذار» في العدد ٣٢٦ بتاريخ ٢٤/ ٣/ ١٨٨٣، بتوقيع: «الإمضاء محفوظ»، وذلك بعد تعطيل صحيفتيه.

«**لسان العرب**» وقد نشر فيها مقالين بعنوان: «أحب شيء إلى الإنسان ما منعا» في العدد ٣٢٣ بتاريخ ٢٨/٨/ ١٨٩٥. وآخر بعنوان: «أحمد مختار باشا معتمد الحكومة التركية في مصر» في العدد ٣٢٨ بتاريخ ٤/٩/ ١٨٩٥ والتوقيع: «أحد الأفاضل الحلبيين».

«**المقطّم**». ففي العدد ٣١٤٨ بتاريخ ٥/٨/ ١٨٩٩ مقال بعنوان «الجامعة الإسلامية ـ الفصل الأول»، وفي العدد ٣١٤٩ بتاريخ ٧/٨/ ١٨٩٩ «الجامعة الإسلامية ـ الفصل الثاني»، وهما بتوقيع «مسلم حر الأفكار».

علماً بأن هناك مقالات وكتباً أخرى ذكرت الأديبة الأندنوسية «نور ليلى عدنان» في رسالة الماجستير التي قدمتها بجامعة القاهرة سنة ١٩٧٠ أنها جاءت على لسان «بشير اليوسف» صاحب جريدة «القاهرة» التي عثرت عليها والتي صدر العدد الأول منها في

١/٤/١٩٠٣ بعد أشهر من وفاة «الكواكبي»، إذ قال هذا إنه عثر على بعض مؤلفات «الكواكبي» غير «أم القرى» و «طبائع الإستبداد» وإنه عازم على نشرها لأهميتها وإنه تلقاها من صديق قريب له نقلها عنه وأملاها عليه، مضيفاً إلى ذلك حديثاً عن منزلة «الكواكبي» الكبيرة، موضحاً أن كل ما ينشره من آثاره هو على عهدته رحمه الله وأن «ليس منا إلاّ أمانة النقل. . .».

وتضيف «نور ليلى عدنان»: إن الصديق الذي أشار إليه «بشير اليوسف» هو من لَقَّبَ نفسه بـ «نديم الكواكبي» ولم يذكر اسمه الحقيقي وإنما قال عنه «بشير اليوسف» صاحب «القاهرة» إنه صديق حميم للـ «كواكبي» ورافقه في سورية ومصر وقد كتب هذا النديم مقالات عدة عن «الكواكبي» في الجريدة وفي أول هذه المقالات يقول هذا النديم: «لقد أضعنا هذا الرجل. ولولا عناية الله وصداقتنا معه المعروفة وملازمتنا إياه في حلب ومصر لأضاع الشرق مؤلفاته وآراءه مما سنأتي عليه تفصيلاً في أعداد «القاهرة» ونجمع كل كتاب على حدة ذخيرة للشرقيين وكنزاً لهم. وقبل أن نبدأ بها لا بدّ من استيعاب ترجمته التي لا تخلو من عبرة لقوم يعقلون. ونرى من واجبنا ـ كمؤرخ ـ أن نفصح عن كل ما نعلمه عن هذا السيد السند والإمام الأوحد وكيف كانت حياته المتعبة وموته المفجع ليرى الشرقي وهو على ضفاف النيل أنه يجري أحياناً في وادي النيل ما يجري على ضفاف الدردنيل. . .)».

وفي كلام «نديم الكواكبي» هذا إشارة إلى فاجعة مقتل «الكواكبي» غدراً بالسُّم تماماً كما يفعل السلطان في أعدائه على ضفاف «الدردنيل». وإشارة مبطنة إلى إتهام زبانية السلطان و «أبي الهدى الصيادي» بقتل «الكواكبي»، أو ما قيل من ضلوع الخديوي بمؤامرة السلطان و «الصيادي» بتنفيذ رغبتهما.

إلاّ أن السيدة «نور» لم تتمكن من جمع مقالات «نديم الكواكبي» في «القاهرة». لأنها قد أوقفت عن الصدور من قبل سلطة الخديوي عباس لمجرد أنها همّت بنشر سائر مقالات «الكواكبي» التي كانت لدى نديمه الذي وعد بتقديمها لها.

ومما ذكره «نديم الكواكبي» في «دليل مصر والسودان» (الذي اكتشفه أخي عبد الرحمن في مكتبة «نيويورك»)، بعد إيراده تاريخ حياة «الكواكبي» قوله: «وكان أثناء وجوده في مصر ينشر مقالات هائلة في «المؤيد» تارة بإمضائه وأخرى بإمضاء مشهور

تحت اسم مستعار. . . لدينا نحن بعض ما ترك من نفثات أقلامه مما لم يطبع بعد. ربما نشرنا قسماً منها في دليل السنة القادمة إن شاء الله تعالى. . .» (ونديم الكواكبي هذا ليس إلاّ «عبد المسيح الأنطاكي»).

ولقد كان توقُّف «القاهرة» عن الصدور شبيهاً بتوقف جريدتي «الكواكبي»: «الشهباء» و «إعتدال»، وجريدته القاهرية «العرب». كما أن «نديم الكواكبي» قد رحل سائحاً في البلاد العربية وفُقِدَتْ بعد موته كتابات وكتب «الكواكبي» التي كان يحتفظ بنسخ منها مع الأسف الشديد ولا نعلم له وريثاً في أي قطر ولا مصير مكتبته. حتى كتابه «دليل مصر والسودان»، الذي أشار إلى أنه سيصدر جزؤه الثاني في السنة القادمة، لم يصدر.

ونضيف هذه المأساة إلى مأساة الإستيلاء على مخلفات «الكواكبي» من قبل «القباني» كما أسلفنا، مما أشار إليه «الغزي» أيضاً. كما أن محاولات عمي «أسعد» مع «القباني» لم تفد شيئاً.

أما رسائل «الكواكبي» فهي المكتوبة والمرسلة برقياً. فالمكتوبة لم نحتفظ إلاّ ببعض منها كان لأفراد أسرته وهي:

١ ـ رسالة بعث بها من استنبول إلى ابنه «أسعد» في شوال سنة ٣١٢ هـ يوجهه وأخاه «رشيد» فيها إلى طرائق الدراسة العالية وإمكاناتها المختلفة ويبثهما عواطفه نحو أفراد الأسرة فرداً فرداً.

٢ ـ رسالة بتاريخ ٢٦ ذي الحجة ١٣١٤هـ بعث بها من حلب إلى إبنه «أسعد» في استنبول (٢٨ أيار ١٨٩٧م).

٣ ـ رسالة بعث بها إلى ولديه «أسعد» و «رشيد» من جنوبي «رأس حلفون» بشرقي إفريقية على بعد /٥٠٠/ ميل من «بومباي»، في ١٢ شعبان ١٣١٩هـ (٢٤/١١/١٩٠١م)، وهو على ظهر الباخرة التي جال بها السواحل، يسأل فيها عن أحوال الأسرة ويطمئنهما عن أحواله ويحضّهما على استكمال أسباب العلم والدين ويوصيهما بكتمان محل وجوده إلاّ عن وصيّة «الحاج عبد الحليم جودة» وأن يخبراه بأنه لم يفقد أمله بـ «مسألة المعدن» (؟؟؟).

أما رسائله الأخرى إلى غير أفراد أسرته فمنها المخطوط ومنها المرسل برقياً. ولم

نعرف عنها إلاّ ما اكتشف صوره «جان داية» وأثبته في كتابه «صحافة الكواكبي» وما لا يزال يكتشفه من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، وهي كلها كتب وبرقيات إحتجاج ضد تصرفات الولاة وشكاوى المظلومين من الناس. وقد أشار الغزي» إلى انهماك «الكواكبي» بهذه الرسائل.

ولا بدّ لنا من أن نتلقى معلومات جديدة عن رسائله التي لا تزال صورها قيد الحفظ في دواوين وزارات الخارجية الغربية التي كانت تحصل عليها بواسطة جواسيسها في قصر «يلدز» وهي كلها مرسلة من السفراء باللغة الفرنسية التي كانت هي اللغة الدبلوماسية الوحيدة لدى كافة الدول. وقد أخبرني «جان دايه» بأنه لا يزال يسعى في جمع أكبر عدد ممكن من الرسائل تمهيداً لنشرها. وسيحاول الرجوع إلى وثائق الحكومة التركية.

عبد الرحمن الكواكبي

الإقتباس في أفكاره

(٩)

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾: أي أصحاب الرأي والشأن.

﴿إذا أردنا إهلاك قرية أمّرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ بتشديد الميم، أي جعلنا مترفيها أُمراءها ففسقوا فيها.

المستبد ـ وهو من لا يجهل أن الناس أعداؤه لظلمه ـ لا يأمن على بابه إلاّ من يثق به أنه أظلم منه للناس وأبعد منه عن أعدائه.

قررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط.

الكواكبي

«طبائع الإستبداد»

الإقتباس في أفكار «الكواكبي»

شأن كل عالم متخلق بأخلاق العلماء، لا يتجنّب الإشارة إلى أنه اقتبس أو تبنّى رأياً من آخرين أو وافقه عليه، فلا تثريب عليه، إنما الإشكال يقع حين يزعم هذا العالم أنه هو مبتدع الفكرة أو الرأي الذي يناقشه. و «الكواكبي» لم يخترع كشف الإستبداد والمستبد. فتلك خطة طبيعية في الإنسان، والأخص هو الإنسان الواقع تحت نير الإستبداد والإستعباد، فهو أقدر الناس على تلمّس مظالم هذين النوعين. فما بالك إذا كان إنساناً مثقفاً عالماً؟

ولئن كان أفلاطون قد بحث الحرية والإستبداد فليس معنى ذلك أن هذا البحث قد أمسى مقتصراً عليه ولا يحق لأحد من بعده أن يخوض فيه ويتبنى أو يرفض أفكاراً منه. والإشتراكية كذلك. فلئن كان الإشتراكيون الأوروبيون، أو لينين بالذات، قد نشروا النظرية الإشتراكية، فليس ذلك معناه أن ليس لـ «كواكبي» أن يتحدث عن المعيشة الإشتراكية العمومية وإنما هو إن فعل ذلك فهو يبنيها على وجهة نظره العربية الإسلامية طالما هو لا يجد في دينه إلاّ ما يؤيد النظرية الإشتراكية سواء في الشورى أو الزكاة أو الصدقة أو الأموال العامة.

أما الخطير في الأمر فهو أن يَنْسِبَ أحدٌ إلى «الكواكبي» إنتحاله لآراء الأوروبيين من أمثال «الفيري»، وما أولئك إلاّ الصهيونيان «إيلي كيدوري» و «سلڤيا حاييم» اللذان ما انفكا يُعتبران الخبيرين الوحيدين في العالم الغربي في شؤون العرب والإسلام، ومنهما تستمدّ «الأنسيكلوبيديا البريطانية» وسواها المعلومات عن «الكواكبي» ويدعيان إلى المؤتمرات الدولية دون العلماء العرب أو المسلمين للتحدث في شؤون العرب والإسلام، وإن دعي العرب معهم فإن المؤتمرين يحولون دونهم ودون تسفيه آراء هذين الصهيونيين.

ومن المهم ذكره أن الكاتبة «نور ليلى عدنان» الأندنوسية، صاحبة رسالة الماجيستير سالفة الذكر، قد دَرَسَت كلَّ ما كَتَبَ «الكواكبي» وما كُتِبَ عنه «حتى تاريخ رسالتها) ثم عملت على ترجمة كتاب «الفيري» إلى العربية وقارنته مع كتاب «طبائع الإستبداد» فلم ترَ أي نقل من هذا الكتاب إلى ذاك، فنفت شبهة الإنتحال التي روّجها الزوجان الصهيونيان. وقد اعتمدت الأصل الإيطالي لكتاب «الفيري» والترجمة التركية له فتحقق لها عدم وجود الانتحال.

ومِثْلُها فعل «الدكتور نزيه كَبَّاره» في بحثه هذا الموضوع بالذات في كتابه عن «عبد الرحمن الكواكبي: حياته وعصره وآراؤه» فهو قد دقق ومحّص أقوال كلٍّ من: «الكواكبي»: و «ألفيري» فوجد أن «الكواكبي» قد أشار بنفسه إلى آراء «ألفيري» وتبنّى بعضها الذي وافقه عليه ولكنه خالفه في آرائه الأخرى. وهذا شأن الباحثين المدققين الذين يأتون في أبحاثهم على آراء سواهم من الباحثين ليناقشوهم بنزاهة علمية. وهذا ما لا يمكن تسميته بالإنتحال وإنما هو إقتباس وموافقة مجرَّدَيْن، أو مخالفة في الرأي المُثْبَت بالنص.

ومما يقطع الشك باليقين أن ترجمة «أحمد جودت» الكاتب والمؤرخ التركي لكتاب «ألفيري» إلى التركية تمّت سنة ١٨٩٨ أي بعد أن كان الكواكبي قد كتب «أم القرى» و «طبائع الإستبداد» في حلب حيث نقل منها مسوّداتها إلى القاهرة في أواخر عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م ولم يكن يعرف الإيطالية ولا الفرنسية ولا الإنكليزية ليقال إنه قرأ «ألفيري» قبل صدور الترجمة التركية. وفي هذا الدليل الكافي على أنه لم ينقل عنه. ولربما قرأ بعض أبحاثه في صحيفة إيطالية مما كان لا بدّ متوفراً لدى جيرانه الطليان في حي «الجلوم» من آل «صولا» الذين منهم قنصل إيطاليا. ولا يستبعد أن يكون قد طلب ترجمة بعض المقالات ليدرسها.

ولا يسع المحقق المنصف إلاّ أن يعترف بأن إطلاع «الكواكبي» على آراء الغربيين كان لا بدّ منه لإغناء أبحاثه ومناقشاته لتلك الآراء، كما هي الحال في مناقشته للإشتراكية من ناحيتي النظرية والتطبيق، مما وافق فيه بعض آراء دعاة الإشتراكية في الغرب وخالف فيه البعض الآخر، ذاهباً في جميع مناقشاته لسائر علماء الغرب في المذهب الإسلامي الذي جعله مقياسَ قراره الذي ميّز به رأيه عن آراء «الفيري» وآراء سائر الإشتراكيين.

ويقول «الدكتور محمد عمارة» في هذا الخصوص (الأعمال الكاملة للكواكبي):
[. . . ومن هنا كانت منطقية حديث الكواكبي عن الإشتراكية كنمط حياة وأسلوب معيشة أصيل عندنا وأننا أحق ببعثه وتطبيقه من غيرنا. . . والغنى الذي يزخر به الفكر العربي ـ الإسلامي في موضوع العدل الاجتماعي والإشتراكية والمساواة الذي ورثه «الكواكبي» ووعاه وأصبح خيرَ إمتدادٍ له، لم يتمثله فقط وإنما أضاف إليه في إفاضة وتفصيل ووئام بينه وبين العصر الحديث. . . واستعان بروح التجربة الإسلامية الأولى التي اعتمدها سابقة تاريخية ودستورية وروحية في صياغة قوانين العدل للمجتمع الذي عاش فيه. .].

حتى أن دائرة المعارف الإيطالية، التي نقلت عنها مجلة «المعرفة» المصرية في الخمسينات، أثبتت أن أول فكرة لمؤتمر عالمي في التاريخ نشأت عند «الكواكبي» في كتابه «أم القرى».

وفي ذلك كلّه ما يدحض أقوال الصهاينة الذين يحاولون إبعاد تاريخنا عن موضوع القومية العربية أو إبعاد رجالنا عنها، ومثلهم من قرأ لهم وصدَّقهم دون رويّة ومراجعة. مع أن كتابات «الكواكبي» تزخر بالحديث عن العروبة والعرب وهو لا ينفكّ عن ربط العروبة بالإسلام، فهو يدعو إلى وحدة الإسلام بالقوة نفسها التي يدعو فيها إلى وحدة العرب، مع إصراره على وجوب حلول العرب في مركز الرأس من هاتين الوحدتين.

وهكذا نرى أن «الكواكبي» قد صدر عن أفكار شخصية في سائر أبحاث الإستبداد وطرقه والإشتراكية وتدويل النقاش في فكرة مؤتمر عالمي لم يسبقه إليها كاتب في الغرب أو في الشرق، وفي تبيان موقف العروبة والإسلام من سائر الأفكار الحديثة التي عمّت العالم الغربي والتي لم يتحدث عنها بصورة غيبية وإنما عن إطلاع أكيد، إطلاع لا حرج عليه في سلوكه وإنما العكس فهو يُغْبَط على هذا الإطلاع.

ومن المستشرقين الذي أخذوا عن «سيلڤيا حاييم» دون تَرَوٍّ، المستشرق «نوبير تابييرو»، ولا عجب في أمره ما دامت «دائرة المعارف البريطانية» ذاتها قد استكتبت هذه الصهيونية لتُعَرِّفُها على «الكواكبي» دون أن تتكلف سؤال أو تكليف إنسان غير صاحب غرض وغير معاد للعرب ليكتب عنه.

وأخشى ما أخشاه أن تأخذ الموسوعات العربية والإسلامية العتيدة معلوماتها عن البريطانية التي اعتمدت الكتّاب الصهاينة. فلقد دلّتني التجارب على أن المؤسسات

العربية يصل بها الأمر إلى التفاخر بكونها تنقل عن المؤسسات الغربية ما أثبتته زوراً في أمور وشؤون تاريخنا. وأنا أدعو كل أبناء العرب إلى تدقيق منشوراتنا العربية بدقة متناهية لاستكشاف الدسائس المبطّنة المنقولة عن الغرب والصهاينة، تلك التي نشرتها «إنسيكلوپيديا أوف إسلام» البريطانية.

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

و

نديم الكواكبي

(١٠)

وأمـةٌ خـيـرُ مـا تُـسْـمـى بـه عـربٌ   إن رام تـمـجـيـدهـا يـومـاً مُـسـمّـيـهـا

«عبد المسيح الأنطاكي»

نديم الكواكبي

ليس في أسرة «الكواكبي»، من زمن جدهم الصفوي حتى الآن، مَنْ إسمه «نديم»! فمن هو هذا النديم؟

تقول الكاتبة «نور ليلى عدنان» عن جريدة «القاهرة» التي اكتشَفَتْها في مصر: «. . . إنها جريدة مصرية تصدر كل خمسة عشر يوماً، صدر العدد الأول منها في إبريل سنة ١٩٠٣ وفيه يتكلم المحرر «بشير يوسف» عن عثوره على بعض مؤلفات «الكواكبي» غير «أم القرى. . .» إلى آخر ما أسلفنا ذكره. وتضيف قولها: «وبعد البحث في مكتبات القاهرة وحلب وبيروت جَمَعْتُ عشرين عدداً فلم أعثر على كتابات للـ «كواكبي» أو عنه إلاَّ ترجمة حياته وأقواله في المحاكمة وفي لقائه مع قنصل إيطاليا، في الأعداد من الأول إلى الحادي عشر. وقد استفدت من الأقوال التي وردت في الجريدة حقائق عن حياته وآرائه في الإصلاح وفي السياسة.

ثم تورد اسم «نديم الكواكبي» قائلة: «. . . هو شخص لم يذكر إسمه الحقيقي وقال عنه «بشير اليوسف» صاحب «القاهرة» إنه صديق حميم للـ «كواكبي» ورافقه في سورية ومصر».

وقد كتب هذا النديم مقالات عدة عن «الكواكبي» في الجريدة. وفي أول هذه المقالات يقول هذا النديم «لقد أضعنا هذا الرجل. . .» (وهو ما ذكرناه في الحديث عن كتبه).

وقد تأكد أخي «عبد الرحمن» بعد اكتشافه كتاب «دليل مصر والسودان» في مكتبة «نيويورك» أن «نديم الكواكبي» ليس هو إلاَّ «عبد المسيح الأنطاكي» الحلبي الذي نعرف

أنه تلميذ جدنا «عبد الرحمن» وصديقه وملازمه في حلب ثم في مصر. وقد أكد ذلك حصول «عبد المسيح» على مجموعة مقالات منقّحة من «طبائع الإستبداد» بقلم مؤلفها (كما يقول «عبد المسيح الأنطاكي» في كتابه «دليل مصر والسودان»). ثم إن ما جاء في هذا الدليل من أن صاحبه هو صاحب جريدة «العمران» القاهرية، لو ربطناه بما كتب «الكواكبي» في هذه «العمران» لتأكد لنا من ناحية أخرى أن «عبد الرحمن الكواكبي» قد اتخذ من «عبد المسيح الأنطاكي» بالفعل نديماً، واستقرّت هذه الصفة في «الأنطاكي» فعرف بها في المجالات الصحفية والعلمية.

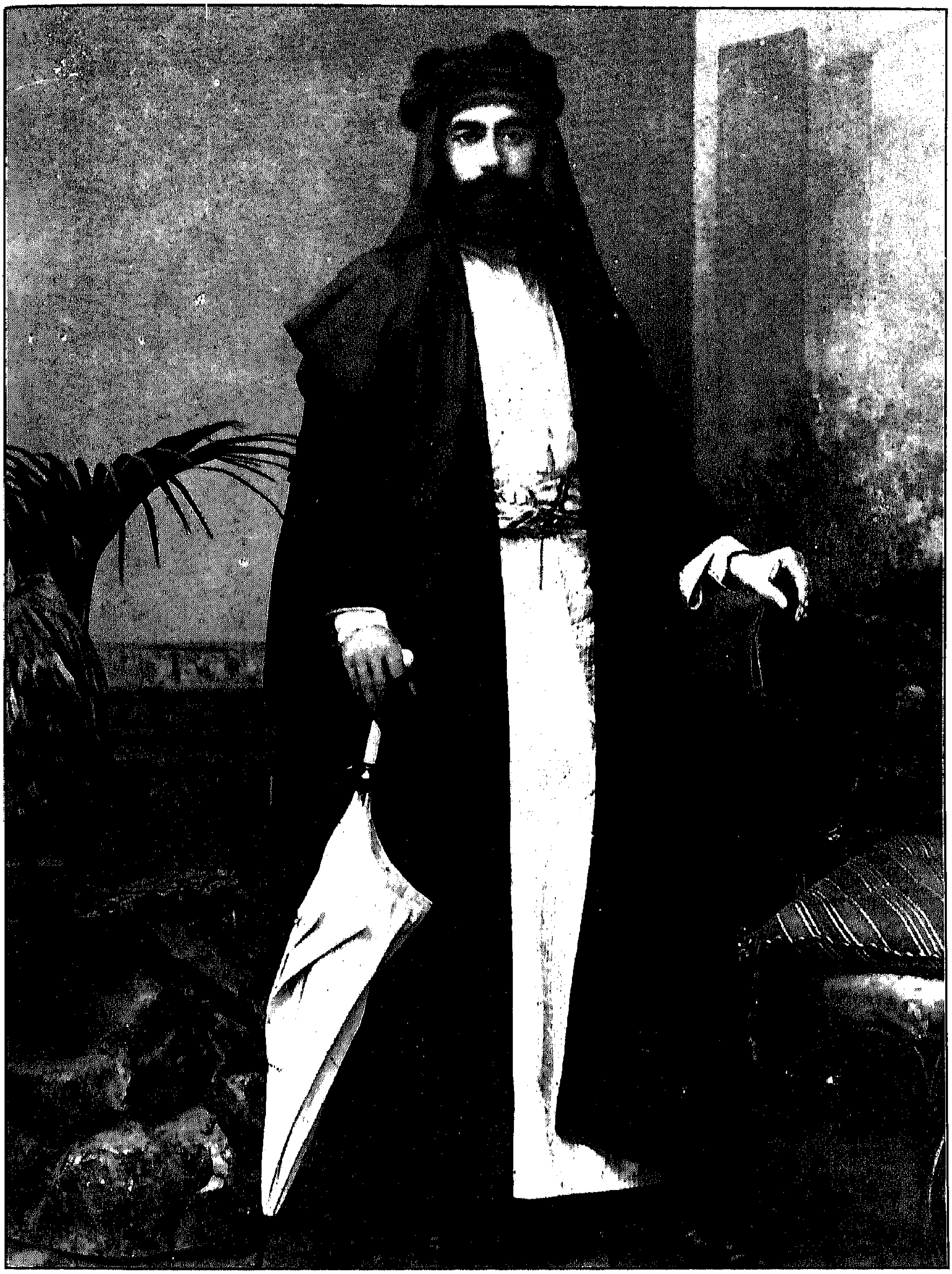
* * *

أسرة الكواكبي

و

نقابة الأشراف

(١١)



عبد الرحمن الكواكبي

٢٣ شوال ١٢٧١هـ ٩ تموز يوليه ١٨٥٥م//٦ ربيع الأول ١٣٢٠هـ ١٣ حزيران يونيه ١٩٠٢م

أسرة الكواكبي
ونقابة الأشراف

كانت نقابة الأشراف في حلب معقودة لبني زهرة، أشراف مكة المهاجرين إلى حلب، وأشهرهم «أبو المكارم حمزة» رئيس حلب أيام «أقسنقر». فَهُم الرؤساء على التوالي وأعيان شيعة حلب. وبعد هجرة «إبراهيم الصفوي الأردبيلي» إلى حلب ومصاهرته لبني زهرة ونزوح بقايا «بني زهرة» عن حلب، انتقلت نقابة الأشراف إلى أسرة «بني الكواكبي» باعتبارهم من آل البيت من جهتيّ الأب والأم، أيام «أحمد الكواكبي»، في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، يتوارثها أولاده وأحفاده في مختلف فروعهم بحلب والآستانة وبغداد.

وآخر نقيب للأشراف في مدينة حلب هو «الشيخ مسعود الكواكبي» أخو «عبد الرحمن» المتوفى في ٢٠/٩/١٩٢٩/ـ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ، دفين دمشق. وقد أعاده إلى المنصب المغفور له الملك فيصل الأول ملك سورية الذي علم بأن جمال باشا السفّاح كان قد عزله عن نقابة الأشراف التي كان يتقلّدها من عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٤ بسبب كونه ضد «الإتحاد والترقّي» وجماعتها ومنهم «جمال باشا». أما أخوه «عبد الرحمن» فلم يصدر من السلطة العثمانية، قبل ذلك، أمر شاهاني بتعيينه إذ كان فتى يافعاً ثم طريد السلطة ثم مهاجراً إلى مصر. وكانت النقابة مغتصبة من أحد بني عمّه الأكبر منه سناً أحفاد المفتي «حسن الكواكبي» بفعل «الصيادي». إلاّ أنه ـ بعد أن استحق النقابة بوفاة صاحب الاستحقاق من بني عمه ـ اعتبر نفسه، وأهل حلب أيضاً، النقيب الحقيقي ولو دون أمر شاهاني، لأن النقابة تكون في الأكبر سناً من أفراد الأسرة المؤهّل علمياً واجتماعياً.

على أن ما أثير حول خلاف «عبد الرحمن الكواكبي» مع «أبي الهدى الصيادي» وإرجاع نسبه إلى نقابة الأشراف، مما بيّنه الكاتب المصري المرحوم «أحمد أمين» في «فيض الخاطر» فهو أمر لا يخلو من خطأ في التفاصيل. وبيانه أن «الكواكبي» لم يعترض على أن تكون النقابة معقودة لمن هو أكبر منه سناً في الأسرة من أحفاد «حسن الكواكبي» أبناء عمومته، ولكن اعتراضه كان على تولّي «الصيادي» منصب النقيب رغم كونه لا ينتسب إلى آل البيت فليس له أن ينتسب إليهم ولا أن يتسنّم المنصب، وإنما ادعى نسباً غير صحيح. والنسب يحتاج إلى تصديق من آل البيت الذين كان يمثلهم «عبد الرحمن الكواكبي» وحده بعد خلو المنصب له. وهكذا فهو يرى ـ كما نقلت عنه جريدة «القاهرة» سنة ١٩٠٣ـ أن «الصيادي» قد اختلس هذا المنصب ظلماً من «آل الكواكبي». وقد أتاحت ملاحقة السلطة للـ «كواكبي» الفرصة للـ «صيادي» لينتقل من نقيب أشراف «جسر الشغور» (حيث كان يعمل بالبيطرة) إلى نقيب أشراف حلب بمنحة من السلطان عبد الحميد الثاني.

ولئن كان هذا الأمر أحد أسباب نقمة «الصيادي» على «الكواكبي» وسعيه عليه، إلاّ أن حقيقة الأمر وسائر الأسباب أبعد من هذا بكثير. ذلك أن ثورة «الكواكبي» على السلطة العثمانية إنما كانت تشمل «الصيادي» بسبب أعماله وظلمه، (بصرف النظر عما كاد له به شخصياً مما أوصله إلى حكم الإعدام كما أشار إليه هو في محاكمته ببيروت) ومما لم يتكشّف له إلاّ بعد اطلاعه عليه في الآستانة سنة ١٨٩٥ ثم عودته إلى حلب، مما أسلفنا بيانه. فلو كان الدافع الوحيد هو الخلاف الشخصي الدافع الإبتدائي لكان ناصبه العداء قبل رحلته إلى استنبول ومقابلته له بناء على رغبة شيخ الإسلام «نجم الدين الكواكبي» مما أشرنا إليه سابقاً. ولكن أخلاقه ومبادئه كانت لا تسمح له بمناصبة العداء لأحد من الناس إلاّ في الأمور العامة التي تمسّ مصلحة الشعب. ولقد قدّمها فعلاً على مصلحته الشخصية.

وعلى أن نقابة الأشراف بحلب كانت من حق أحد أولاد «عبد الرحمن» عمي المرحوم «الطبيب أسعد الكواكبي» (بسبب مرض أخيه البكر) إلاّ أن الفرنسيين لم يعترفوا بذلك لكونه شغل منصب ضابط بجيش الملك فيصل يوم وقعة ميسلون مع المرحوم يوسف العظمة، ولأن عمه نقيب الأشراف «محمد مسعود الكواكبي» كان قد أعيد إلى منصبه بأمر من الملك فيصل ذاته. وإنما أصدروا أمراً بتعيين أحد أبناء الصيادي (الذي

تحدث عنه سليم الجندي مما أثبتناه آنفاً).

إلى أن كان العهد الوطني، أيام المرحوم «سعد الله الجابري» رئيس وزراء سورية، إذ طلب منه أهلي أن يلغي هذا المنصب من جملة مناصب الدولة الرسمية استبعاداً له عن تسلط السلطة الحكومية يوماً ما بصورة نهائية، ولكي يبقى هذا المنصب حقاً طبيعياً أهلياً لا توظيفياً معقوداً لآل البيت. ولئن كانت «نقابة الأشراف» تورّث في «بني الكواكبي»، إلاّ أن سائر أفراد الأسرة لا يسعون إلى استعادة طريق الإرادة السنية أو ما يقوم مقامها بعدها لإشغال هذا المنصب، إسهاماً منهم في إبعاد هذا الشأن عن السلطة السياسية مما قد يدفع بأرازل المنافقين المتسلّقين إلى الوصول إليه.

* * *

الأئمة من قريش

العرب أهدى الأمم إلى أصول المعيشة الإشتراكية

عقيدته الإسلامية والعروبية

(١٢)

«الكواكبي» مسلم، ومن أجدادٍ عربٍ منذ ما قبل الإسلام. وهو في إسلاميته راسخ الإيمان شديد التمسك بالفرائض والسنن منذ نعومة أظفاره وكيف لا يكون كذلك وهو سليل المفتين والقضاة والأئمة والفقهاء وابن مفتي حلب المباشر وخريج «المدرسة الكواكبية» الإسلامية، حتى أنه بلغ من شدة حفاظه على الشعائر الدينية، وهو طفل، أنه كتب في آخر صفحة من كراسة كان يشرف على كتابته فيها والده «الشيخ أحمد» عتاباً لطيفاً لأبيه لأنه يتركه يستسلم للنوم فيمر به آذان الفجر ويتأخر عن الصَّلاة في ذلك الموعد، فيذيّل له والده حاشيته بما يبرر ذلك!

هذا إلى أنه كان يَعْتَمُّ العمامةَ شعار علماء الإسلام. فلما خرج من بلده في رحلته الكبرى اعتمّ بالكوفية والعقال شبهما كان يعتمّ به حينما كان طفلاً في «أنطاكية عند خالته، باعتباره مزمعاً على ترحال في البلاد العربية واجتياز الربع الخالي وعبور الخليج.

إلاَّ أنه، إلى جانب عمقه وتعمّقه في الإسلام، لم يكن متعصّباً بمعنى مناهضة أصحاب الديانات الأخرى، إنما هو صديق للجميع وحامل لواء منع الأذى عن أهل الذمة، ذلك أنهم في جيرته في جي «الجلوم الصغرى» بالمدينة القديمة. والمعروف عند العرب والمسلمين أنهم يُجيرون أهل الذمة ويمنعون الأذى عنهم باعتبار ذلك من صلب دينهم ونصّاً قرآنياً.

لا أعظم ـ للدلالة على نضاله في سبيل رفع مستوى المسلمين إلى مستوى دينهم، ـ من أقواله في «أم القرى» عن ذلك المؤتمر الذي خططه من بنات أفكاره ونسيج قلمه مما ينير الطريق لنهضة المسلمين، والذي اعتبر رواية لأول مؤتمر دولي في التاريخ درست فيه أحوال أمة وأسباب تقهقر الدولة، مستعرضاً جميع الآراء التي تخطر ببال المصلحين

مناقشاً لها على لسان الأعضاء الذين اختارهم، داعياً في النتيجة إلى خلافة إسلامية عربية قرشية مركزها «أم القرى»: «مكة المكرمة».

وقد أشارت موسوعة «المعرفة» المصرية التي أصدرها «الدكتور محمد فؤاد إبراهيم» بالإشتراك مع «الدكتور بطرس بطرس غالي» وعلماء آخرين، في الصفحة /٤١٦/ من المجلد الثالث، إلى أن مشروع «أم القرى» الذي ابتكره «الكواكبي» وضمَّنه كتابه «أم القرى» هو أول مؤلف سياسي يضعه كاتب عربي من الشرق الإسلامي ينادي بإقامة تنظيم دولي على قواعد ومبادئ جمعت بين الأفكار الشرقية والأفكار الغربية. وتضيف: [. . . وأفكار «الكواكبي» ـ إن لم تكن قد أثمرت في وقته ـ فإنها كانت بذرة طيبة أتت أكلها فيما بعد. فكان من ثمراتها الجامعة العربية، والمؤتمر الإسلامي، والمجموعة الأفرو آسيوية وسواها من المنظمات الدولية التي تتكفل فيها الدول الساعية إلى الخلاص من الاستعمار والتخلّف].

فهو إذن أول مبتدع لفكرة التنظيم الدولي سواء في الشرق كما ذكرت الموسوعة أم في الغرب كما جرى في تنظيم عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة وما تبع ذلك، مما لم تكن فكرة إنشائه قد دخلت في مخيلة كاتب سواه وإن كان هو قد اقتصر في اقتراحه على العالمين العربي والإسلامي إلاَّ أنه مثّل في مؤتمره مسلمين من غير العرب ومن غير الدول الإسلامية.

وقد اتسمت نزعته الإسلامية بالعقلانية المجردة عن الغيبيات والحركات الصوفية المتأخرة التي لوثت الشعائر الإسلامية بحلقات رقص وطرب وشعوذة أحياناً كضرب الشيش ولعق الحديد المحمي وسوى ذلك من البدع التي لا يرضى بها الدين الإسلامي المبني على العقل المجرد. وكان محبّذاً لكثير من تعاليم المذهب الوهّابي الذي يرفض تقديس الأشخاص والجوامد والقبور، إلى درجة مدح بها هذه الناحية في المذهب البروتستانتي التي تسير على النسق الوهّابي. وحرص كثيراً على التحقق من صحة الأحاديث المروية عن الرسول المعظم وفي تفسير الآيات والأحاديث الصحيحة ونبذ كل تفسير أدى أو يؤدي إلى التقهقر أو الخنوع لصاحب السلطان، كقوله في شأن إطاعة أولي الأمر إنهم أصحاب الرأي والشأن وليس السلطان منهم. ومن ذلك قوله تعالى: و **﴿أمرهم شورى بينهم﴾** و **﴿شاورهم في الأمر﴾** فالأمر هو الرأي المطروح للتداول، ولا يحمل صيغة الإلزام.

وكم كان جديراً بالعرب النحويين أن يستبدلوا تعبير «فعل إلزام» من قولهم «فعل أمر» لكانوا قد أصابوا في اللغة كما أصاب ـ «الكواكبي».

ولستُ مطيلاً في الدلالة على نزعته الإسلامية، فإن ما جاء في كتاباته أكبر دليل.

أما عروبيته ـ وأقصد بالتعبير: نزعته العربية ـ فضلاً عن عروبة دمه، فهي نزعة عميقة الجذور. حتى أن البعض يأخذون عليه ما جاء في مقالاته في اعتباره العرب أكثر شعوب الأرض تطلعاً إلى الحرية وأعرق الأمم في أصول الشورى في المسائل العمومية وأهدى الأمم لأصول المعيشة الإشتراكية. حتى أنه فضّلهم ـ إسلامياً ـ على سائر المسلمين في جمع الكلمة والقدوة الحسنة والمرجعية الدينية. وهذه آراء تستحق الدراسة بعمق تاريخي حتى لعرب الجاهلية ونظامهم القبلي. ومن أراد التحقق من أن العرب أكثر الأمم تعلقاً بالوحدة وجمع الكلمة (وأقصد الشعوب العربية لا حكوماتها) فليسترجع مواقفهم وعواطفهم في المصائب التي ألمّت ببعضهم وجمعت كلمتهم في الماضي القريب والحاضر.

ولعلّ «الكواكبي» أول من نادى وصرّح بعروبية دعوته في النضال ضد السلطة العثمانية، في حين كان فيه بعض القادة العرب ممن سبقوه يخشون من وصف ثورتهم بـ «العربية» كما جاء في رسالة «أحمد عرابي» لـ «جرجي زيدان» الواردة في كتاب الأخير «مشاهير الشرق». علماً بأن ثورة «عرابي» كانت تهيؤها أفكار عربية ناضجة كما يقول «الدكتور محمد عمارة» في مؤلفه «الأعمال الكاملة للكواكبي» وإن الخديوي قد أعلم السلطان سنة ١٨٨١ بأن مصر في حالة ثورة وأن هناك اقتراحاً لإنشاء أمبراطورية عربية.

نقول: رغم ذلك، فإن «أحمد عرابي» قد صرّح بـ «. . . أن تأليف دولة عربية، كما أرجف المرجفون، ضياعٌ للإسلام وخروج عن طاعة الله ورسوله. . . (رسالته إلى زيدان)».

بينما جاء «الكواكبي» بعد عشر سنوات يجهر بالعروبة وبقيادة العرب للمسلمين دون خوف أو وجلٍ ولو كلّفه ذلك حياته، وقد حصل هذا التكليف، وقتل شهيداً للعروبة!.

وحول الفكر العروبي، يقارن «محمد عمارة» بين أفكار «الكواكبي» في اعتبار البلاد

العربية كل البلاد التي قطنها العرب وبين الأفكار التي بنى عليها منظمو مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ مؤتمرهم بعد أحد عشر عاماً من وفاته، وهم يمثلون الجمعيات والإتحادات العربية في الدولة العثمانية، إذ منع رئيس المؤتمر أحد أبناء مصر من أن ينضمّ إليه ممثلاً لمصر العربية! بل إن المؤتمر يصرّح بـ «الأمة العثمانية» متجاهلاً «الأمة العربية»، ذلك التعريف الذي ما انفكّ «الكواكبي» عن التصريح به. بينما أعلن المؤتمر: «إن العرب لا يريدون الانفصال عن الأتراك» وطالب بـ «حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية» و «. . . إننا قوم ولدتنا أمهاتنا عثمانيين ونريد أن نبقى عثمانيين ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلاً».

ويعلّق «محمد عمارة» على هذا التضاد بين أفكار «الكواكبي» وبين من سبقه أو تلاه من الكتاب والساسة والثوار بقوله: «. . هي دلائل حاسمة على أن «الكواكبي» قد قدّم هنا ما لم يقدمه سواه من المعاصرين ولا من الذين سبقوه. وإنه جدير بأن يُعْقَدَ له لواء الريادة في هذا الميدان».

كما أن المؤرخ الروسي «لوتسكي» في كتابه «تاريخ الأقطار العربية» يقول: «. . إن «الكواكبي» ـ بحق ـ مؤسس النزعة القومية العربية. ومثله المؤرخ الروسي «ليفين» إذ يقول: «لقد كان «الكواكبي» سلفاً لأيديولوجية القومية العربية» في كتابه «الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر».

ودراسة «محمد عمارة» في مؤلفه سالف الذكر و «جان داية» في كتابه «صحافة «الكواكبي»» ودراسة «جمال طحّان» في كتابيه: «الإستبداد وبدائله في فكر «الكواكبي» و«الأعمال الكاملة للكواكبي» وكتاب «نزيه كبّارة» في كتابه «الكواكبي: حياته وعصره وآراؤه» مع سائر ما كتبه المنصفون العرب، كافية للدلالة على عروبة «الكواكبي» واعتزازه بأصله العربي.

و «الكواكبي» ـ فضلاً عن تصريحه العلني في مقدمة «طبائع الإستبداد» بأنه مسلم عربي، وعزوفه عن لقب «عثماني» رغم كون جنسيته الرسمية عثمانية، فهو حتى في رسائله الخاصة يتمسّك بوصف نفسه وأهله بالعربي والعرب، فيقول في رسالة لابنه «أسعد» التلميذ الطبيب في الآستانة ـ إذ يوصيه بإضافة دراسات فقهية وأدبية إلى قراءاته الأخرى ـ: «مما يعطيه مزية ذات قيمة بالنسبة إلى طبيب مسلم عربي. . .» في وقت كان

فيه ابنه يدرس في جامعة تركية، وفي ظروف كانت الرسائل فيها مراقبة[١] وهو في كل هذا المسار يسير على خطى أجداده الصفويين الذين جاءوا من الجزيرة العربية واستوطنوا بلاد العجم وقام أحدهم «الشاه إسماعيل» بمحاربة الأتراك وبتشكيل أول مَلَكية عربية في إيران بعد أن أمِنَ جانب الإيرانيين بشأن منازعته في حق تملك عربي عليهم بأن نشر المذهب الشيعي في إيران وعمّم قاعدة «**إن الأئمة من قريش**» باعتبار «الصفويين» من آل البيت.

إن ما قلته، على إختصاره، أرى فيه رَدّاً كافياً على دسائس البعض من الصهيونيين وعلى أخطاء من نقل عنهم دون تحقيق أو دراسة معمقَيْن، وعلى الذين لا يزالون يتعشقون الحكم العثماني ودولة بني عثمان أو الذين يسعون ـ ولو عن حسن نية ـ إلى التوفيق بين مسيرة «الكواكبي» وبين النظام العثماني التركي الطوراني الذي لو بقينا تحت رحمته لشحذنا الرحمة من حكام «يهود الدونما» من أبناء الإتحاد والترقي.

---

(١) وفي رسالة من «الشيخ مسعود الكواكبي» أخي «عبد الرحمن» إلى ابن أخيه جاءت توصية له بأن يرسل له كتباً إلى «مجلس المبعوثان» الذي كان عضواً فيه ما عدا كتب «المعري» خشية أن يفتح مأمورو المراقبة البريد ويطلعوا عليها وهي ممنوعة! انظر الصورة.

الكواكبي
ومبدأ: فصل الدين عن الدولة
(١٣)

فصل الدين عن الدولة

نشأ «الكواكبي» في أسرة علمية دينية، ودَرَسَ الدين الإسلامي على يد والده المفتي الفقيه «البهاء أحمد الكواكبي» وسواه من الأساتذة المشهود لهم بعلوم الدين. فلما شبَّ وترعرع وأطلع على مسالك الناس والسلطة و «رجال الدين»، وبعد أن وجد أن السلطة الممثلة بالسلطان وقواده وولاته إنما كانت تَعْتَمِدُ ـ لبسط النفوذ والاستغلال للجهل والأفكار الغيبية ـ متعممين تخصصوا بالأمور الدينية، للسيطرة على أفكار الناشئة وجعلهم يتلهّون بالغيبيات كالأذكار الراقصة والشعوذة ويرضخون ويطيعون أولي السلطان على أنهم هم أولي الأمر وأن طاعتهم هي من طاعة الله عزّ وجلّ وأن **«الملوك ملهمون»** (انظر الصورة)، وأن مخالفة أمرهم عصيان في الدين مع أن الأمر هو الشأن المطروح للتداول (ـ كما أشرنا سابقاً إلى تفسيره، وقد استعمل «ابن المقفع» كلمة «الأمر» في مكان الرأي والشأن في مجالات كثيرة، وهو قمة في اللغة).

وقد وصل الشأن ببعض هؤلاء المشعوذين ودعاة الطاعة العمياء للسلطان إلى أن يصبحوا أصحاب سيطرة على الدولة في مختلف سلطاتها. ومن هؤلاء ـ كما رأينا ـ من كانت تكفي إشارة منه للسلطان لموت حيّ بريء إغراقاً في «البوسفور» أو لإحياء ميت الضمير والفكر.

وكثر الحديث وطالت المناقشات في أمر فصل الدين عن الدولة أو السلطة. واختلف الرأي فيه منذ أيام «الكواكبي» وعارضه في الرأي رجال من أمثال «رشيد رضا» في مصر ثم ما لبثوا أن أيقنوا بصحة ذهابه كما رأينا آنفاً.

فبأي نظرة نظر «الكواكبي» إلى هذا المبدأ، ومتى تكونت لديه هذه الفكرة؟

يمكننا أن نُرْجِعَ أوّل واقعة نشأت لديه إلى اليوم الذي كان عمره فيه اثنتين

وعشرين سنة، وبتاريخ الخامس من أيار سنة سبع وسبعين وثمانماية وألف، ذلك عندما كتب في العدد الثاني من جريدته «الشهباء» تعليقاً وتنبيهاً إلى حادثة مهمة مؤدّاها أن نفراً من المواطنين الأرمن أرادوا الانخراط في الجندية العسكرية فطُلِبَ إليهم أن يستبدلوا أسماءً إسلامية بأسمائهم، فرفضوا.

فلمّا نظر «الكواكبي» إلى هذا الحادث وتمعّن فيه رأى فيه خطراً على مبدأ التساوي فيما بين المواطنين، وأن هذا الخطر لا يمكن رفعه إلاّ إذا كانت الأنظمة والقوانين الدنيوية معزولة بصورة مطلقة عن الأمور الدينية. ومن هنا نشأت لديه فكرة الفصل بين الدين والدولة، وهو يقصد بالدولة كل الأنظمة الحكومية. فما دامت البلد التي يعيش فيها العرب تفضل معايشة سائر المواطنين من سائر الأديان وتفرض عليهم الواجبات التي تفرضها على المسلمين منهم ولا تنتقص من حقوقهم المماثلة: فالضرائب والرسوم واحدة عامة فلا ضريبة مختلفة ولا حرمان من الوظائف العمومية ولا تحديد في الأمور التجارية والاقتصادية، فلا يكون من المعقول أن تختلف نظرة القانون في التطبيق فيما بين المسلم والنصراني واليهودي. وكل ذلك لا علاقة له بالأمور الدينية. كما لا يكون من المعقول أن يأتي قانون بالنص على وجوب إتباع المواطن ـ أيّاً كان ـ شعائرَ ليست من دينه، ولا أن ينصّ على تفضيل صاحب ديانة على صاحب ديانة أخرى في دولة تعتبر الجميع رعاياها، أو أن ينصّ نظام على ارتداء أصحاب ديانة لباساً غير الذي يلبسه أصحاب ديانة أخرى ـ كما كانت الحال في الدولة العثمانية سابقاً ـ والدولة إما أن تقبل مواطنين من جميع الأديان في جنسيتها أو لا تقبل إلاّ مواطناً من دين مخصوص كما هي الحال الآن في الفاتيكان والمملكة السعودية. فإن كانت تقبل فما عليها إلاّ أن تكون قوانينها مستقلة عن دين مواطنيها فيما لا ينقض الشعائر.

ولما كانت المصالح العامة تبنى على مصلحة أكثرية الأمة فقد عمدت بعض الدول، ومنها السورية، على النصّ على أن الشريعة الإسلامية ـ وهي شريعة الأكثرية ـ أول مصادر التشريع فيها.

وتوفيقاً لهذا المبدأ رأى «الكواكبي» أن تكون الخلافة في «قريش» وفي «مكة المكرمة» وأن الخليفة يجب أن لا يكون السلطان العثماني ولا من غيرهم. ولقد ترك لهذا السلطان أمور الحكم الدنيوية فحسب. ولعل أفكاره كانت بعيدة في هذا المضمار،

ذلك لأنه وجد أن تسلّط السلطان على أمور الدين مفسدة للعقائد وجعلها ألعوبة بيد الحكم. وذلك واضح جداً وللعثمانيين فيه يد طولى. فلقد أمر السلطان «عبد الحميد الثاني» (الأحمر) الذي كان يسيطر على الأمور الدينية ـ مُمَثَّلاً بمنافقين أقاموا من أنفسهم سلطة دينية وابتدعوا لقب «رجل دين» غير المقبول في الإسلام ـ أن تحذف من اللغتين التركية والعربية ألفاظ كثيرة يمكن أن يستشعر منها التحريض على الثورة أو الحرية. ثم وصل به الأمر إلى الأحاديث الشريفة ليلغي منها ما يشاء في هذا الخصوص، بل وصل الأمر به إلى القرآن بالذات. فلئن كان الشرع الإسلامي ينظّم أمور المخالعة بين الزوجين فإن أمر السلطان قد تسلّط عليها وأمر بمنع استعمال كلمة «خلع» بتاتاً. ومثلها الكثير. ويذكر المؤرخ «الشيخ كامل الغزي» في «نهر الذهب في تاريخ حلب» (ج٣) أن السلطان أمر بإعادة طبع «صحيح مسلم» طبعاً متقناً. فلما تمَّ طبعه أطلعه «رجال الدين» من شياطينه على حديث الإمامة فيه وهو «الأئمة من قريش» فأمر بالحال بجمع نسخه وإحراقها وأن يُعاد طبعه بعد حذف هذا الحديث منه. وقد أشار «شيخ الإسلام» إلى ذلك في فتواه بعزل السلطان بقوله: «... وأخرج من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة... إلخ».

أفهل يعقل أن ينتظر «الكواكبي» صدور أمر من السلطان العثماني بتحديد جديد لأوقات الصلاة ـ كما فعل غيره ـ حتى يدعو إلى ثورة دينية أم أن عليه أن يحول دون وقوع شيء من هذا القبيل بأن ينادي بوجوب فصل الدولة عن الأمور الدينية؟ أم يرضى بتأجيل صوم رمضان أو الاحتفال بالعيد إذا أمر بذلك صاحب السلطان بسبب زيارة له خارج البلاد أو لأي سبب آخر؟.

إنه ـ ولا شكّ في ذلك مطلقاً ـ الحرصُ على سلامة الشريعة الإسلامية وشعائرها من أن تنالها يد السلطة. وبالتالي فهي حرص على الأمور الدنيوية لئلا تنالها مداخلات «رجال الدين» ـ كما يسمّون أنفسهم ـ حتى في العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية فيحرّمون الإدعاء بكروية الأرض وبدوراتها حول الشمس وما شابه ذلك حتى الآن.

وبالشكل المعاكس، وهي نظرية العكس في المنطق، المؤدية إلى النتيجة نفسها، فإنه رأى أن «رجال الدين» راحوا يتسلّحون بالدين ظاهراً فيسخرونه لفرض أوامر دنيوية كقولهم: إن «الملوك ملهمون» والإلهام لا يكون إلاّ من فعل الله عزَّ وجلَّ ويفعل الخير.

وهكذا فهم يعطفون كل سيئة يفعلها الحاكم على رغبة من الله يورثها ذلك الرجل. أما الإلهام بالشرّ فلا يكون للحكام إلاّ من شياطينهم. إلاّ إذا أراد الله إهلاك قوم فسدوا في الأرض إذ يؤمّر مترفيهم فيجعل المترفين أصحاب الرأي والشأن فيزيل القوم الفاسدين من الوجود وما هذا أيضاً إلاّ من فعل الخير. فهل كان الله سبحانه يريد إهلاك أمة الإسلام حتى يستأمر عليها السلطان المتعرّض إلى قرآنه، أم لا يرضى لأمة الإسلام هذا المصير، وبالتالي فإن عدم رضائه لأمتنا بذلك المصير يستدعي منا أن نستبعد الحاكم المستبدّ عن سلطة التدخل في عقيدتنا؟ ولو كان العكس لكان معنى ذلك أن علينا أن نقبل بزوال دين الإسلام على يد حاكم له سلطة دينية ـ بصورة مباشرة أو بتسلط من مشعوذ يدّعي الإلهام من الله ـ يأتي به الزمان.

ومن أمثال أولئك المتسلّطين تلك الشخصية النادرة التي كانت الظلّ الملازم للسلطان «عبد الحميد» وهو «أبو الهدى الصّيّادي» من أذكى أذكياء عصره، وأصحاب الطرق الصوفية الذين يسيرون في مقدمة مواكب السلطان عند كل خروج بالمراسم فيتقدمونه لإجبار الناس على الجهر بالدعاء له والإنحناء إلى موكبه وعلى رفع الأيدي إشهاراً للتصفيق، وسواهم من الطرق الصوفية التي لا نزال نشاهدها في بلادنا ـ كحلب مثلاً ـ يتلفظون في ذكورهم الدينية باللغة التركية في الأناشيد والأدعية.

وَجَدَ «الكواكبي» أن المتعمم الذي أسمى نفسه «رجل دين» لم يعد عمله محصوراً بالإمامة والفتوى وتدريس الشعائر الدينية والقضاء الشرعي، وإنما صار مسيطراً على الحياة العمومية للرعية، في حين خُصِّصت فيه أمور الدين ـ قبل ذلك الزمن ـ بالعلماء «علماء الدين» فحسب. والحال الصحيح لعالم الدين هو الاشتغال بالأمور الدينية إذ يرشد بها وليس له أن يتنطع إلى أي أمر عمومي دنيوي كتعيين المأمورين أو فرض العقوبات أو الإنعام والهبات، مما كان يحصل أيام العثمانيين. وبما أنه رأى أن كل مستبد من الحكام لا بدّ له من الاستعانة بـ «رجال دين» فلقد قرر على أن هؤلاء مَفْسَدة للدين.

ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم مبدأ فصل الدين عن الدولة عند «الكواكبي». كالقول مثلاً أن ليس للدولة أن تلغي نصاً من الشريعة. وهذا الأمر لا يكون إلاّ إذا أقمنا حاجزاً بين الحاكم وبين الشريعة التي لا يجوز أن تُمَسّ لا بزيادة ولا بنقصان.

ولم يرد في أقوال «الكواكبي» مطلقاً أنه يجوز للسلطة الدنيوية أن تعارض الشريعة الإسلامية. وإنما هو يهدف إلى أن الشريعة وحدها كافية لرفض كل ما يتعارض معها، وهي وظيفة الخليفة المرشد الأول الحقيقي للأمة الإسلامية وإمامها. فلو تصورنا أن حاكماً ما لأمة أكثرها من الإسلام منع الصيام في رمضان فإن حكمه لا يكون نافذاً بمقتضى الشريعة القائمة في وقت ينصّ فيه الدستور على أن تلك الشريعة هي مصدر التشريع. والحلّ عند ذلك لا يكون في إسناد السلطة الدنيوية إلى الإمام وإنما بالإصرار على فصل هذا الحاكم عن الأمور الدينية وعزله عنها واستبدال رجل دولة آخر منه لا يتدخل بالأمور الدينية.

ولقد اتبعت الجمهورية الإيرانية الإسلامية ـ بعد الخميني ـ هذه القاعدة. وقد سمعنا من رئيسها «رافسنجاني» تصريحاً لمندوب جريدة «الشرق الأوسط» في مقابلة تلفازية أن الرياسة الدنيوية له وحده حسب الدستور وأن المناط بالإمام «خامينئي» هو الإرشاد الديني للجميع وهذا لا يمارس أية سلطة دنيوية.

كما أننا إذا تركنا أمر الإفتاء بإعلان الحرب على جهة ما لرأي «رجال الدين» فسيصدر عن المتعممين في أمة الإسلام عشرات الألوف من الفتاوى، ما يعلن وما يكتم، فتقع أمة الإسلام في اختلاف ثم شقاق ثم اقتتال، ولنا في تاريخنا عبرة بل عبرات مستمرة. ولا أكثر من تعارض الفتاوى فيما بين المفتين بجواز «صلح كمب ديفيد» أو عدم جوازه، وقل منهم من صدر عن رأي شخصي مستنبط من إيمانه في قرارة نفسه ومن تفهمه لنصوص القرآن، أللهم إذا لم يكن جاحداً به.

أفنرضى بعد ما شاهدناه، ولا نزال نشاهد، بأن نعلّق مواقفنا السياسية والمصيرية بآراء مفتين لم يكن لهم في الزمن الصالح إلاّ أن يفتوا في أمور تفسير الشريعة؟ أما إذا تعارضت أوامر الحاكم مع الشريعة فإن المرشد إلى سواء السبيل هو الخليفة وحده. حتى إذا لم ينصّ دستور الدولة على كون الدين الفلاني هو أصل التشريع، فإن الدولة تضطر إلى إتباع المصلحة الدينية للأكثرية فتأمر مثلاً بتعطيل أيام الآحاد بدلاً من يوم الجمعة. ولم يشذّ عن الدول في العالم إلاّ تركية التي أكثر أهلها من المسلمين وهي تعطل يوم الأحد لا الجمعة. وما ذلك إلاّ إنصياعاً لرغبة مصطفى كمال ساكن الديار الآخرة.

وإن لم تكن الدولة قادرة على الأخذ بمصلحة الأكثرية فهي تترك لكل أصحاب ديانة الحق في ممارسة شعائر دينهم في أمور الدنيا كما في الهند مثلاً فهي لا تميل إلى طرف دون آخر في ذلك رغم كون الأكثرية من الهندوس. ولولا مبدأ «الكواكبي» في وجوب فصل الدين عن الدولة لقبلنا بجعل عشرات الملايين من المسلمين في الهند والصين وباقي دول العالم التي أكثريتها على ديانة غير إسلامية يخضعون للشعارات الهندوسية أو البوذية أو سواها ولقوانينها ولتحريم ما تحرمه وتحليل ما تحلله حتى في حرية إشادة أماكن العبادة. والمسلمون في الدول غير الإسلامية أكثر عدداً من المسلمين في الدول الإسلامية. وعلينا أن نراعي صالحهم فلا نجيز مبدأ تدخل الدولة في الأمور الدينية لئلا يصيبهم من التدخل ما يكرهون ونكره لهم.

ولكي نتأكد من حقيقة دوافع «الكواكبي» إلى تبني فكرة الفصل يجب أن ندقق في أقواله في مداولات «أم القرى». فلقد قال: «الدين شيء والملك شيء آخر» و «الدين أمر وجداني محض لا علاقة له بشؤون الحياة الجارية على نواميس الطبيعة» و «إن المتعممين قد أخطأوا حينما حكموا بأشياء كثيرة مما يصادم الشرع كالربا والضريبة على الخمور والرسوم العرفية وغيرها مما كان الأليق والأنسب بالإسلامية أن يبقي العلماء بعيدين عنه.

ونلاحظ من هذا النصّ شدة حرصه على النظام الإسلامي. ذلك أنه رأى في تصرف أولئك المعممين ما جعل الربا وتجارة الخمور أمرَيْن مباحَيْن بقوة القانون. وفي ذلك تسلط من «رجال الدين» الذي أفتوا للسلطان بهذا التحليل ثم تسلط السلطان تسلطاً غير مقبول على أمر ديني بحت مؤداه تحريم أو تحليل الربا والخمرة. وما كان ذلك ليحصل لولا تسلّح «رجال الدين» المسيطرين على السلطان بعماماتهم ليستصدروا مثل ذلك النظام المتعارض مع الدين، ولولا اعتماد الدولة عليهم في تدخلها في شأن ديني. ولو أن رجال الدين ابتعدوا عن السلطة لما صدر القانون بإباحة الخمرة والربا مطلقاً لسائر المواطنين. ولبقي المسلم يرضخ لشريعته وغير المسلم لشريعته ولا لزوم لنظام إداري يجهر بالإباحة.

ولولا سيطرة من يسمون أنفسهم «رجال دين» على السلطة الحكومية أو الإندماج فيها لما شاهدنا اليوم مظاهر الحماية المتبادلة بين «السلطتين» بشكل يضفي فيه رجال

الدين الصفة الدينية على تصرفات السلطة، أو ترفع فيه السلطة مكانة «رجال الدين» الموالين لها، لتمسك بحبائلهم زمام الأمور وأعناق المعارضين أو أصحاب العقائد الأخرى في الدولة المستبدّة فعلياً الديموقراطية إسماً كدولة «إسرائيل» المصطنعة.

وبصورة مجملة نقول: لا تعني فكرة «الكواكبي» مطلقاً إرادة فصل الأحكام الشرعية عن قوانين الدولة. ذلك أن الدين الإسلامي، في اعتباره، كان مصدر التشريع ومنه استقى أفكاره في إصلاح الأنظمة والقوانين لجعلها تتفق مع الدين. كل ذلك بمعزل عن السلطة الحكومية، وإنما هي السلطة التشريعية التي لا يجوز مطلقاً ـ في أنظمة الشورى الديموقراطية والإسلامية ـ أن تتخلى عن استقلالها عن السلطة التنظيمية. فالتشريع ـ إسلامياً ـ من صلاحية «الشورى» و «الشورى» من صلاحية «أولي الشأن والرأي» الذين يمثلون الأمة جمعاء وتراعى بينهم أمورهم الدينية، ولا مجال للسلطة الحكومية للتدخل في تشريعهم.

ولنا في تاريخ الدول الإسلامية عِبَرٌ، وفي الحاضر عِبَرٌ، وما علينا إلاَّ أن نتذكّر كلمات «الكواكبي» في هذا الخصوص ونقارنها بما شاهدنا ونشاهد في شتى أصقاع الدنيا.

* * *

الكواكبي
وتخرصات الإتصال بالأجانب
(١٤)

تخرّصات إتصاله بالأجانب

من الغريب المؤسف قصور البحث لدى بعض الكتبة عن التمحيص والإستدلال حين يقرأون خبراً ما. فمن هؤلاء من قرأ أن «الكواكبي» قد ركب سفينة إيتالية من عدن ليتابع رحلته فقرر على أن الطليان هم الذين كانوا يمولون رحلته. مع أن المعروف في تلك الأيام أن سفن الركاب إيتالية أو إنكليزية أو فرنسية فحسب. وحينما يكتب مسافر إلى أهله رسالة فسيقول فيها: «. . . ركبت الإنكليزي إلى استنبول» أو «ركبت الطلياني من عدن إلى جيبوتي». ونحن ـ حتى الآن ـ نركب الإنكليزي والأمريكاني أو سواهما. إلاّ أن ذلك لا يدلّ على أن شأننا مرتبط بإرادة حكومة صاحب المركب إلاّ في عقد النقل. وعلى هذا فإن تمكّن «الكواكبي» من إمتطاء صهوة مركب تجاري إيتالي أو سواه من ميناء عدن بناء على توصية من صديقه المؤرخ الحلبي «الشيخ كامل الغزي» للسيد «صولا» جار الإثنين في حي الجلوم بحلب الذي أمسى قنصلاً لإيتاليا في الحديدة ليساعده في التوسط لدى قبطان باخرة إيتالية، أقول: كل ذلك لا يعني أن «الكواكبي» قد رضخ للطليان، وإنّما يدلّ على أن الطليان لم يكونوا يعرفون «الكواكبي» وإنما هو بحاجة إلى توصية خطيّة ليؤمنوا له الركوب. وكلنا اليوم نستعين بالسفارات الأجنبية للحصول على تأشير الدخول إلى بلادها. بل ونحصل على الوساطات المختلفة. فلا عجب أن يحتاج «الكواكبي» إلى تدخل من السيد «صولا» ووساطة من «الشيخ الغزي» لكي يتمكن من ركوب سفينة إيتالية من عدن إلى جيبوتي. لينتقل من هناك على متون سفن أخرى كلها غربية وليست إسلامية إلى بحر العرب وبحر الهند وخلجان آسية الصينية ـ الهندية.

حتى أن أحد المتنطّعين لدراسة «الكواكبي» قد وصل به الأمر إلى ذكر أن الإنكليز

هم الذين توسّطوا له عند «الخديوي عباس». وهذا كذب صراح من بنات أفكار هذا الكاتب الذي لم يعرف أن «الخديوي عباس» كان قد تتلمذ على يد «نجيب النقيب» أستاذ «الكواكبي» الطفل في مدينة «أنطاكية» حينما كانت تربّيه خالته وهي من أسرة النقيب. فهو عالم بمن هو «الكواكبي» من قبل أن يحضر إليه.

أما الخطير في هذا الأمر ما يكتبه جاهل لا تلبث كتابته أن تُقرأ من أبناء جيلنا أو جيل أولادنا فيصدّقونه وهم أبعد ما يكونون عن البحث والتمحيص. وما أكثر الكذب في تاريخنا الذي يصبح بعد ليلة من ظلام وظلم حقيقة مقبولة.

ولا نستغرب ذلك كله إذا كان خطأ عن جهل، مما جرى مثله لجامعة حلب التي أخذت على عاتقها نشر كتاب «حلب في ماية عام» لـ «فؤاد العنتابي» فحمّلته صورة لرجل آخر بديلاً عن صورة «عبد الرحمن الكواكبي» التي عمّت نسخها الآفاق، كما استبدلت صورة إبنه بصورة أخيه «الشيخ مسعود».

إنه الجهل أحياناً، والدسّ المتعمّد أحياناً أخرى للإساءة إلى «الكواكبي» من قِبَلِ الذين لا يزالون يأخذون عليه سعيه للإطاحة ببني عثمان من الوطن العربي. في حين نرى فيه «الكواكبي» في حادثة معينة يدلّل على مناهضته للأجانب بقدر مناهضته للاستعمار العثماني، وذلك حينما بعث المابين السلطاني بمفتش خاص ليحقق في أمر النزاع الذي قام بين والي حلب وبين قنصل إنكلترة فيها، بعد الشكوى التي قدمتها وزارة الخارجية البريطانية إلى السلطان بناء على إخبار قنصلها بحلب بشأن حادثة نسب إلى الوالي إرتكابها مع القنصل. فلقد اجتمع المفتش سراً بـ «الكواكبي» ليفهم منه رأيه في حقيقة الأمر، فما كان من «الكواكبي» إلاّ أن كذّب القنصل وبرّأ ساحة الوالي من التهمة، على الرغم من العداوة الشديدة التي كانت بينه وبين الوالي ما هو معروف ومشهور. وهذا دليل على أنه لم يكن ليراعي جانب الأجانب، فضلاً عن أنه دليل على صدقه وعدله في عدائه للوالي، مما أثار إعجاب المفتش الخاص يومئذ كما يذكر التاريخ.

أما موضوع رسالة «لينين» إلى «الكواكبي» فما هي إلاّ من باب تراسل الرجال العالميين في شؤون تهم الشعوب وبشأن نظريات كانت لا تزال تحت التمحيص والبلورة، فبينما كان «الكواكبي» يكتب عن الإشتراكية في الإسلام وقربها إلى الشعوب العربية أكثر من باقي الأمم، على مفهومه الإسلامي الخاص، كان من الطبيعي أن يقرأ

«لينين» ما كتبه «الكواكبي» في جرائد لندن أو القاهرة، فيراسله برسالة لا تزال في أرشيف الأتراك. ومن حقه أن يعرف النظرة الإسلامية إلى هذه النظرية الجديدة التي كان يريد تطبيقها في بلاد إسلامية أصدر فيها أول جريدة لحزبه.

وكم يكون عجيباً أن يتصور أحد أن «الكواكبي» قد اتصل بلينين لكي يشعل في البلاد الإسلامية نيران الثورة الشيوعية؟!!.

* * *

الكواكبي
ومذهبه الإسلامي
(١٥)

مذهبه الإسلامي

لئن كان «عبد الرحمن الكواكبي» حفيداً لـ «صفي الدين إسحق الأردبيلي» رأس الأسرة الصفوية التي حكمت إيران والعراق بدءاً من «الشاه إسماعيل الصفوي» الذي نشر المذهب الإسلامي الشيعي في إيران وألزم الناس به بعد أن كانوا يخضعون لسلطان «بني عثمان» الذين اتخذوا المذهب السني، حيث كان هناك كثير من الديانات والمذاهب، إلاّ أن الجدير بالتحقيق أن نثبت هنا أن سعي «الشاه إسماعيل الصفوي» إلى نشر المذهب الشيعي في إيران كان سياسياً وبدافع إبعادها عن السلطنة العثمانية والسيطرة التركية من ملوك المُغل الذين رَمَزوا إلى أنفسهم برمز الخلافة وأمارة المؤمنين. فعَزّ عليه ذلك وهو الذي يدرك أن الخلافة يجب أن تبقى عربية وفي آل البيت، وقد وجد أن خير طريق لدرء خطر المغل هو المناداة بأن الإمامة من قريش. ولكي يحول دون انتشار السيطرة التركية في أوساط المسلمين من قبل سلاطين اتخذوا المذهب السني مذهباً لهم ولدولتهم، فقد وجد أيضاً أن التشيّع لآل البيت أسلم طريق لجمع الناس من حوله وإبعادهم عن السلطنة السنية.

وهكذا كان. وانتشر المذهب الشيعي على يده ولسانه في إيران والعراق، رغم ما لاقاه هذا الإجراء من محاربة عقائدية من الأتراك وعرقية من العجم. حتى أن السلطان سليم تلقى رسالة منه يقول له فيها:

نحن أناس قد غدا طبعنا ... حبّ عليّ بن أبي طالبِ

عيّبنا الناس على حبّه ... فلعنة الله على العايبِ

واستقر المذهب الشيعي في أولاد «الشاه إسماعيل». أما أبوه «حيدر» وجده «جنيد» فقد كانا فعلاً يميلان إلى التشيّع وإلى مناصرة الشيعة أخذاً باعتبارهما من آل البيت فحسب.

حتى إذا كان «إبراهيم الصفوي» عمّ «الشاه إسماعيل» قد غادر القدس الشريف، مرقد أبيه «عليّ» وحلّ «رحبة مالك بن طوق» على «الفرات» ثم انتقل مع إبنه «محمد الكواكبي» إلى «البيرة» الفراتية ثم إلى حلب في مطلع القرن التاسع الهجري، صارت حلب خاضعة للسلاجقة الذين رسموا المذهب السني فيها كمذهب رسمي للدولة رغم مقاومة أهل حلب لهم في ذلك. ومنه أن «أقسنقر» حينما أمر ببناء مدرسة في «حي الزجّاجين» كان الأهالي يهدمون ليلاً ما أشاده في النهار، فاشتكى إلى رئيس حلب **«الإمام أبي المكارم حمزة بن زهرة الإسحاقي»** عميد آل البيت والشيعة، فجاء هذا إلى الناس وعمّر أمامهم وبيده، نهاراً، ما نقضوه ليلاً من المدرسة السنّية، أخذاً منه بالتسامح الديني بين مختلف المذاهب الإسلامية، على ما أثبته المؤرخون.

وقد صاهر «محمد الكواكبي» (أبو يحيى) «بني زهرة» فتزوج منهم تمكيناً لأواصر القُربى في نسل آل البيت، ثم توفي عام سبع وتسعين وثمانماية للهجرة، وأمر «السلطان قانصوه الغروي» كافلَه بحلب «سيباي الجركسي» بإشادة قبة على ضريحه (لا تزال قائمة الآن) اعترافاً منه بفضله وإقراراً بنصرة حليفه «الشاه إسماعيل الصفوي» له في حربه ضد السلطان «سليم الأول»، ولم يحل دونه ودون أمره هذا كون «الشاه إسماعيل الصفوي» شيعياً والغوري سنياً مثل «السلطان سليم».

ودخل «السلطان سليم» والعثمانيون حلب التي رزحت تحت حكمهم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، خمسماية سنة كانت السيطرة فيها لمذهب الدولة السني. وكان أن اتّخذ «آل الكواكبي» من أولاد وأحفاد «محمد أبي يحيى» المذهب السني طريقاً لهم، أسوة بسائر أهل حلب الذين تحوّلوا إليه.

وأما «المدرسة الكواكبية» فقد كانت تدرّس الفقه الإسلامي على المذهب السني. وآخر من درّس فيها هو «بهاء الدين أحمد الكواكبي» والد جدي «عبد الرحمن» الذي كان هو آخر من درس فيها من كبار علماء الدين بحلب. ولا يزال آل الكواكبي في حلب واستنبول على المذهب السني الرسمي. أما في بغداد فلا أعلم طريقتهم.

وعلى أية حال، فإن «عبد الرحمن الكواكبي» لم يكن يتعصب إلى مذهب دون آخر من المذاهب الإسلامية، وإنما هو آخذ مطلقاً بالاجتهاد، لا يسفه مذهباً ولا ينقضه بآخر. وطالما حبّذ كثيراً من مبادئ المذهب الوهابي. بل هو أول فقيه إسلامي في

العصر الحديث يؤكد أن المذاهب الفقهية الإسلامية الرسمية ستة لا أربعة هي: الأربعة السنية والمذهب الجعفري والمذهب الزيدي في الجزيرة العربية. وقد أثبت ذلك في محاضر «أم القرى».

* * *

موت الكواكبي
ضريحه ومراثيه
(١٦)

في ساعة متأخرة من مساء الخميس الخامس من ربيع الأول سنة عشرين وثلاثماية وألف للهجرة، الثاني عشر من حزيران سنة اثنتين وتسعماية وألف للميلاد، كان جدي رحمه الله مجتمعاً مع لفيف من أصدقائه العلماء وكبار الأدباء في مقهى «استنبول» بجوار «العتبة». وبعد شربه فنجان القهوة شعر بألم فاعتذر به لمغادرتهم وانصرف مع إبنه والألم يعتصر أحشاءه. وقام صديقهما الحلبي السيد «عبد القادر الدبّاغ» (والد المؤرخة الحلبية «عائشة الدبّاغ») وأوصلهما إلى بيتهما. وما كاد يدخل البيت، بعد انصراف الدبّاغ، حتى أصابته نوبة صاعقة، فطلب من إبنه «الكاظم» أن يأتيه بطبيب. فهرع هذا إلى بيت السيد «الدبّاغ» الذي لم يكد يغلق باب بيته عليه، حتى ناشده: إلحقني يا عمّاه، فوالدي لست أدري ما أصابه».

وهرع «الدبّاغ» إلى صديقه فوجده يتلوّى من الألم ويقول له: **«لقد سموني يا عبد القادر»**.

ولفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه فور هذه الكلمات بُعَيْدَ منتصف الليل.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل صباح الجمعة، رن جرس الهاتف في مكتب «إبراهيم سليم النجار» بجريدة «المقطّم» الذي كان قد غادر المقهى مع ثلة الرفاق و «الكواكبي»، وأعلمه مُحَدِّثه بوفاة «الكواكبي».

ومع نور الصباح كان كبار رجال مصر قد تلقوا النعي، ومنهم الخديوي الذي أعلمه به ـ على ما قيل ـ الشاعر «أحمد شوقي» فأمر طبيبه الخاص بالالتحاق ببيت «الكواكبي» وفحصه. فهرع إليه وعاد إلى الخديوي يؤكد وفاته، فأمر بتشييع جنازته على نفقته الخاصة بجنازة رسمية شارك فيها ممثل عنه وكبار رجالات مصر، ودفن في سفح

«جبل المقطّم». وعلى القبر رثاه علماء وأدباء وشعراء، منهم «الشيخ رشيد رضا» صاحب «المنار» والأديب «مصطفى صادق الرافعي» والشاعر «حافظ إبراهيم» الذي سبك له البيتين التاليين:

هنا رجلُ الدنيا، هنا مهبطُ التقى   هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلّموا   عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي

وقد كتب المجاهد «محمد علي الطاهر» في جريدته «الشورى» (٤ نيسان ١٩٢٩):

«اقترح ـ منذ عامين ـ «الدكتور منصور فهمي» الأستاذ بالجامعة المصرية على جمعية «الرابطة الشرقية» أن تُعنى بإقامة قبر للمرحوم «السيد عبد الرحمن الكواكبي» تمجيداً لذلك الشرقي العظيم الذي كان من أول الذين عملوا للرابطة الشرقية والوحدة العربية إلى أن مات في مصر نائي الدار والوطن. وقد اهتمت الرابطة بهذا الاقتراح وألّفت لجنة للبحث عن قبر الفقيد لإقامة الضريح اللائق بـ «الكواكبي». وكان من حظ صاحب هذه الجريدة مشاركة اللجنة بصفة غير رسمية. وأخذ الجميع يسألون وينقّبون، لأن المرحوم مات منذ ثلاثين سنة تقريباً. وقد زاد في صعوبة المسألة أن معظم الذين اشتركوا في دفنه قد انتقلوا إلى رحمة الله، والأحياء منهم نزحوا عن مصر فلم يبقَ إلاّ بضعة منهم، ولكنهم نسوا المكان وضاعت من ذاكرتهم معالم القبر. ومضى على البحث عامان وانطوى المشروع تقريباً. وقد خطر لنا أن نسأل صديقاً لل «كواكبي» وهو تاجر في حلب اسمه «السيد عبد القادر الدبّاغ» عرفناه في مجلس من مجالس أستاذنا «الثعالبي» وكنا قد فهمنا منه عَرَضاً أنه كان يلازم المرحوم «الكواكبي» ملازمة شديدة لصداقة قوية كانت بينهما. ولكن السيد الدباغ غادر مصر، فكتبنا إلى حلب نسأل عنه، فأجابنا «الأستاذ سامي أفندي الكيّالي» صاحب مجلة «الحديث» أن المذكور نزح عن حلب وسكن في «الإسكندرية». وبينما كنا على نيّة البحث عنه في الإسكندرية إذا به ـ لحسن الحظ ـ يزورنا في إدارة «الشورى» فسألناه عن قبر المرحوم فأطرق متنهّداً ثم قال: نعم أعرف قبره وقد أشتركت بدفنه ولم أنقطع عن زيارته كلما جئت مصر. وقد أخبرنا الرابطة الشرقية بما تقدم فانتدبت صاحب الإقتراح وعضو مجلس الإدارة الدكتور «منصور فهمي» وذهبنا معه ومع «السيد عبد القادر دباغ» فسار بنا إلى جبانة «باب الوزير» وتغلغل إلى أقصاها، ثم وقف أمام قبر عادي على وشك الانهيار وقال: «ها هو». فتقدمنا من القبر الذي ضمَّ رفات الرجل الذي ملأ الدنيا حيّاً ثم لم يملأ بعد الموت إلاّ

بضعة أشبار من الأرض، خاشعين. وبعد تلاوة الفاتحة درنا حول القبر فقرأنا على أحد الشاهدين ما يأتي:

«هذا قبر المرحوم الشهيد العلامة الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبي ابن الشيخ أحمد الكواكبي الحلبي. توفي ٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هجرية». وقرأنا على الشاهد الآخر بيتين من الشعر، أخبرنا السيد عبد القادر الدبّاغ أنهما لحافظ بك إبراهيم. ولا نطيل في وصف حالة القبر ولكننا نقول: إنه لولا اهتمام الرابطة الشرقية باقتراح الدكتور منصور فهمي لأندثر القبر وضاع كل أمل في العثور عليه، لأنه يقع في سفح تل من التراب إنهارت مقدمته. وهناك حفرة أو هاوية لا تلبث بفعل المطر أن تتسع رويداً وتبتلعه. وقد سأل «الأستاذ منصور» رفيقنا «السيد دباغ» عن كيفية وفاة المرحوم فقال: [إنني كنت في تلك الليلة وفريق من الفضلاء نسهر معه كعادتنا في قهوة «استنبول» التي لا تزال موجودة إلى الآن بجوار «العتبة الخضراء» أذكر منهم «عبد العزيز الثعالبي» عند زيارته الأولى لمصر والأستاذ «محمد رشيد رضا» و «محمد علي بك نصوحي» الأجزجي (الصيدلي) والمرحوم «محمد بك دياب» المفتش بالمعارف وغيرهم، إلى آخر القصة التي تصوّر دهشة الناس عند انتشار نبأ الوفاة كما رواها السيد الدباغ... إن الدفن كان قد تمّ على نفقة الخديوي وإن السيد «رشيد رضا» صاحب جريدة «المنار» كان ممن رثوه ساعة الدفن... واهتم المرحوم «الشيخ علي يوسف» صاحب جريدة «المؤيد» ببناء ذلك القبر»].

وتختم «الشورى» مقالها بالمطالبة بإحياء ذكرى «الكواكبي» والتعاون على إقامة ضريح يتناسب مع مقام ذلك الفقيد الكبير.

وقد نقلت «الرابطة الشرقية» بعد ذلك رفاته إلى مكان قريب يعرف بـ «مقابر التنظيم» الذي أشرفت عليه وزارة الأوقاف إلى جوار قبور عددٍ من العظماء وأقامت له ضريحاً لا يزال معروفاً يزار إلى الآن في أول زاوية «قرافة باب الوزير» وقد نقشت على لوحته الجانبية بيتيّ «حافظ إبراهيم».

أما قصيدة «مصطفى صادق بك الرافعي» في رثائه فهي التالية:

أحقاً رأيتَ الموتَ دامي المخالب ... وفي كل ناد عصبة حول نادب

وتحت ضلوع القوم جمراً مؤججاً ... تسعّرَ ما بين الحشا والترائب

وفي كل جفن عَبْرَةٌ حين أرسلت ... رأوا كيف تَهمي مُثقَلاتُ السحائب
أبى الموت إلاّ وثبة تصدع الدجى ... وكم ليلة قد باتها غير واثب
فما انفلق الإصباح حتى رأيتَه ... وقد نشبتْ أظفارُه بالكواكب
وكم في حشا الأيام من مدلهمّة ... قد ازدحمت فيها بنات المصائب
هوى القمر الوهّاج فأخْبطْ معي الثرى ... إذا لاح ضوء النجم بين الغياهب
ووطّن على خوض المنيّات أنفُساً ... تساوقها الأجيال سوق النجائب
فهن العواري إسترجعَ الموتُ بعضها ... وقصدُ البواقي ما جرى للذواهب
أبعد حكيم الشرق تُذخرُ عبرةٌ ... وما هو من بعد الرحيل بآيب
حثوا فوق خديه التراب وأرسلوا ... عليه سحابات الدموع السواكب
ولو رفعوا فوق السماكين قبره ... لما بلغوا من حقه بعض واجب
لتبكي عليه الصحف في كل معرك ... إذا ما انتضى أقلامه كل كاتب
فقد كان إنّ هزّ اليراعَ رأيتَه ... يصول بأمضى من فرند القواضب
ولم يكُ هيَّاباً إذا حمي الوغى ... ورفرفت الأعلام فوق الكتائب
وكانت سجاياه كما شاءها الهدى ... وشاءت لأهليها كرام المناقب
ولا بد أن تعزى الكواكب للعلا ... وقد نسَبَتْه نفسُه للكواكب
سلوا حامليه هل رأوا حول نعشه ... ملائكة من حارب خلف حارب
وهل حملوا التقوى إلى حفرة الثرى ... وساروا بذاك الطود فوق المناكب
وهل أغمدوا في قبره صارماً ... إذا تجرّد راع الشرقُ أهلَ المغارب
فكم هزّه الإسلام في وجه حادث ... فهزّ ثقيل الحد عَضبَ المضارب
أرى حسراتٍ في النفوس تهافتت ... لها قطع الأحشاء من كل جانب
وما بعجيب أنّ ذا الدهرَ قُلَّبٌ ... إذا كان في أهليه كلُ العجائب

* * *

وفي عدد جريدة «المنار» تحت عنوان «مصاب عظيم بوفاةِ عالم حكيم» قال «محمد رشيد رضا»: «.. في يوم الجمعة يوم ٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي وعالم عامل من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري ألا وهو السائح الشهير والراحل الخبير «السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبي» الحلبي مؤلف كتاب «طبائع الإستبداد» وصاحب سجل جمعية «أم القرى» الملقب فيه بـ «السيد الفراتي» اختطفت يدُ المنية منّا بغتة هذا الفاضل الكريم

والوالي الحميم. . . . . وإنني أدع الرثاء والتأبين لأفاضل الشعراء المجيدين، وأذكر في «المنار» ما يليق بموضعه من خلاصة سيرة هذا الرجل ليعلم القُراء منها كيف يُنْبِتُ الشرقُ الرجالَ العظام وكيف تضيعهم الأمم والحكام ولتكون ذكرى لمن يذّكر وعظة لمن يعتبر. . . أرأيت رجلاً كريم الأصل كبيرالعقل تربّى أحسن تربية وتعلّم أحسن تعليم ودخل في الأعمال المختلفة وتصدى للمشروعات المتعددة وكتب في أدق المسائل أحسن الكتابة وساح في البلاد واختبر أحوال الأمم حتى بلغ أشده واستوى، كيف يكون حاله وما هي درجة استعداده؟ هذا هو صديقنا الذي فقدناه بالأمس فكأنما فقدنا به الشمس ومثل تلك الآمال الكبيرة لا تبلغ إلاَّ بمساعدة الحكومة أو سعة المال أو الجمعيات، وقد كان له أمل في مصر وأميرها أراه الإختبار خلافه. . . .».

هذا ما تمكّنا من العثور عليه في المراثي التي قيلت في وفاة «الكواكبي» ولا نزال نبحث عن سواها، كرثاء «عبد المسيح الأنطاكي» (نديم الكواكبي) وسواه، سواء في مصر أم في سائر الأقطار الشرقية.

* * *

أسرة «الكواكبي» بعد وفاته
الظلم و الفقر
(١٧)

أسرته بعد وفاته
الظلم والفقر

توفي جدي بينما كانت جدتي تُهيّئ نفسها وأولادها الصغار للحاق به، منتظرة وصول التلغراف (البرقية) المتفق على نصها منه بهذا الخُصوص، معتمدة على ما أودعه من تكاليف سفرهم لدى السيد «عبد الحليم جودة». وكان ولده البكر «الكاظم» في السادسة والعشرين معه في مصر. والولد الثاني «أسعد» والثالث «رشيد» على أهبة التخرج من كلية الطب العسكري بـ «أستنبول». وأما الرابع «أحمد نعمان» فكان في السادسة عشرة من عمره. والخامس وهو والدي «فاضل» فكان في السابعة. أما البنات فأكبرهن «عفيفة» في التاسعة عشرة. وصغراهن «نظيرة» في العاشرة.

وصلت برقية النعي من إبنه «الكاظم» إلى العم «الشيخ مسعود الكواكبي» الذي تحيّر في كيفية إيصال النبأ إلى أرملة أخيه التي كانت لا تتمالك نفسها من الفرح ولا تخفي السرور لحظة واحدة كلما دخل أخو زوجها البيت، فلعله حاملٌ نصّ البرقية السريّ بالإيذان بالرحيل، لتلحق بحبيبها ورب أسرتها الغائب عن الديار. ولكنه استدعى إبنتها «عفيفة» وأنتأى بها خارجاً وأسرّ لها نبأ وفاة والدها بمعزل عن أمها، حتى إذا تشجعت واستوفت البكاء والنحيب لدقائق، انطلقت معه إلى أمها عساها تبلغها النبأ بهدوء. ولكنها ـ كما شرحت لي ـ لم تتمالك نفسها ولم تتمكن من حبس انفجار حنجرتها وهي تسقط على حضن أمها وتكاد تغشى من البكاء دون أن تفوه بكلمة. فصاحت الأم مرعوبة: «ماذا أصاب فاضلاً، قولي. . . ».

وبعد عذاب متبادل بين الأم وإبنتها عرفت الأم الحقيقة، ودخل عليها «مسعود» والنساء و «عبد الحليم جودة»، وعلا البكاء والنحيب في الدار والحي، وسألتهم الزوجة

المفجوعة عن جثمان حبيبها وعن إبنها «الكاظم» فأعلموها الحقيقة فرفضت التصديق.

وفي فجر اليوم التالي خرجت من بيتها ودخلت الجامع الذي تضم ساحته قبور أفراد الأسرة، وراحت تفحص الأرض لعلّها تجد المكان الذي واروا فيه زوجها، فلم تجد أثراً لجدثه، فتحوّلت إلى مقبرة «الصالحين» البعيدة، رغم نصيحة إبنتها التي أصرّت على مرافقتها، فهي لم تصدق أنهم لم يحضروه إلى حلب، وراحت تنوح وتنادي: «يا أهل القبور، دلوني على قبر أبي كاظم». حتى أن عمتي علّقت على ذلك بأن بيّنت لي أنها ـ وبدافع لم تعقله ـ راحت تفتش معها دون إدراك. حتى أعياها التجوال والتفتيش دون غايتها. ثم عاودت في اليوم التالي، وهكذا أياماً عدة لم يكن في استطاعة الأهل خلالها من إقناعها بعدم الجدوى. حتى تيقّنت بعد أمد بعيد من أنّ الجثمان لم يأتِ من مصر. وانقضى عام على مرضها المضني. وتلقى ولداها نبأ النعي وهما في الغربة باستنبول.

وبعد أشهر معدودات فقط من وفاة والدهما، شعرا بالتضييق عليهما في استنبول وبمحاولات اضطهادهما لسببين: لكونهما عربيين، أولاً، ولكونهما ولديّ «عبد الرحمن الكواكبي». فكتبا بذلك إلى عمهما «الشيخ مسعود» الذي خشي على حياتهما ومستقبلهما، وهو الذي كانت قد وصلته في هذه المناسبة رسالة تعزية بوفاة أخيه من «أبي الهدى الصيّادي»، يطلب إليه فيهاأن يأمر ولديّ أخيه بمقابلته في استنبول، فكتب إليهما في ذلك، ولكنهما رفضا العرض، متنبئين بأن مصيرهما، بعد التخرج، سيكون بيد الظلم والظالمين الأتراك الذين يوفّرون أبناء ملتهم ويقذفون بالضباط العرب إلى المعارك في مختلف الأصقاع. وقد حصل ذلك فعلاً، إذ تخرّجا طبيبين عسكريين، فأنفذوا الأكبر «أسعد» إلى حرب اليمن والثاني «رشيد» إلى حرب «الروملي» (في القفقاس). واستمرا في حروب متتالية حتى انتهى الأول إلى معسكرات الأسر البريطانية في الحرب العالمية الأولى، وانحشر الثاني «رشيد» في حرب طرابلس الغرب».

أما عمهما «مسعود» فلقد أقصاه «جمال باشا السفاح» عن نقابة الأشراف وباشر باضطهاده. وحلّت بالأسرة ضائقة مالية. وكان العم قد بعث بالابن الرابع «أحمد نعمان» لدراسة الصيدلة في دمشق، فتخرج سنة ١٣٣٣هـ فأنفذوه مجنداً إجبارياً إلى «بير سبع» على مشارف صحراء سيناء.

واضطرت الأسرة إلى التخلص من الأخوين الصغيرين: «نظيرة» و «فاضل» بأن زوجت الفتاة من رجل محترم صاحب مكتبة هو «الشيخ عبد الودود الكيالي» ووظّفت والدي «فاضلاً» في إدارة سكة الحديد وهو يافع، بينما كان العم قد انتقل إلى دمشق ليشغل وظيفته القضائية في محكمة التمييز مع زوجته وأولاده.

وقاست الأسرة الفقر والجوع بعد أن عاد الابن الأكبر من مصر خاسراً والده وماله، مما اضطر عمتي للعمل في الخياطة لكي لا تحتاج الأسرة إلى خفض اليد. ولا أجد حرجاً في ذكر القصة التالية:

فنظراً إلى اهتمامي بالآثار التراثية، أسرية وغير أسرية، فقد طلبتُ من عمتي أن تهديني طاحونة الحبوب المكونة من حجرين بازلتيين يدور أحدهما فوق الآخر حول محور، مما كانت جميع الأسر الحلبية تستعمله حتى أواسط هذا القرن العشرين. **فأعلمتني أنها أهدتها إلى الحدائقي القاطن بجوارها نظراً إلى فقره. فذهبت إليه وأكرمته واستعدت منه هدية عمتي وبادلته عليها بما أفرحه. وعدتُ بالطاحونة مخبراً عمتي، فتعجبت وقالت لي ـ دون أن تعرف سبب تصرفي ـ: «إنك تريد أن تحتفظ بذكرى عزيزة علينا بقدر ما هي مؤلمة جداً وحزينة». فتعجبت بدوري وسألتها التفسير فقالت: «إن هذه الطاحونة كنا نطحن بها الشعير أيام فقرنا بعد وفاة جدك وجدتك لنأكله يوم عضّنا الجوع والفقر، دون أن نخبر إنساناً بما نحن عليه، حتى عاد أصغر أعمامك بإجازة إلى حلب، وشاهد ما نحن عليه، وأخوه الأكبر مضطهد لا يجد عملاً لائقاً، فكتب إلى أخيه في الجبهة، فكتب هذا إلى أخيه الثالث. فما كان منهما، وهما من الضباط، إلاّ أن تخليا عن استحقاقهما من التموين الخاص بالضباط وعن تعويض الخادم وطلبا تحويل ذلك إلى أهلهما في حلب. وكان ذلك بعد وقت طويل، وعدنا إلى أكل خبز الحنطة والجبنة وأرسلنا إلى أبيك جبناً وبيضاً وهو في محطة «كوكب» لقطار الشرق قرب حماه، فلم يصدّق ما يأكل»!**

(وبهذه المناسبة لا أزال أذكر حديث أبي لي بأنه ذهب إلى «حماه» ليأخذ سلة «الجبنة» لأنهم لم يجدوه في محطة «كوكب»، فلما حصل عليها، وبينما هو في طريقه إلى محطة القطار، دخل في حي فقير جداً وسمع أناساً يعوون من ألم الجوع ويتقلّبون على أرض الشارع، فرمى لهم بنصف ما كان يحمل فزحفوا إلى الجبنة يأكلون، وأسرع

هو باكياً. وبالفعل فلقد روى الكبار لنا أن كثيراً من الناس ماتوا جوعاً، وأن حوادث عدة جرت في أكل لحم البشر في أصقاع مختلفة من مدن سورية وجبل العلويين).

وانتهت الحرب العالمية الأولى وكان الابن الأكبر «الطبيب أسعد» قد فُكَّ من أسره لدى الإنكليز ليلتحق بالجيش العربي لدى الملك فيصل والتحق بـ «يوسف العظمة» حتى وقعة ميسلون. وانتهت الحرب العربية ـ الفرنسية ورجع الضباط إلى بيوتهم. وتمكّن والدي من دراسة الزراعة والتوظّف. وشغل عمي «أسعد» مديرية صحة حلب، وشغل الآخر «رشيد» وظيفة رئيس مستشفى فيها، ثم تمكن عمي الأصغر «أحمد نعمان» من فتح صيدلية. وأما «الكاظم» البكر فقد بقي دون عمل.

وعلى الرغم من أن أفراد الأسرة أصبحوا من ذوي الرزق المحدود (الجاري!) إلاّ أنهم لم يتمكّنوا من سداد القرض الذي كان على جدي «عبد الرحمن» للسيد «جرجي خياط» مقابل رهن أراضي «بستان الكتّاب» (حيث بناء المجلس البلدي العتيد يجري حالياً) رغم أن هذا الدائن ـ والحق يقال ـ كان منصفاً، فلقد عرض فك الرهن رغم مرور الزمن لأبعد من ثلاثين سنة (ذلك لأن الأسرة لم تعد تملك ما يساوي قيمة تلك الأراضي ولا ما يكفي لمعيشة ثرية حتى الآن).

وقد خلّف جدّي ذكوراً وإناثاً توفيت أخيرتهم قبل بضع سنوات. كما خلّف أخوه «الشيخ مسعود الكواكبي» في دمشق الطبيب «جميل الكواكبي» والأستاذ العالم «محمد صلاح الدين الكواكبي» وبناتٍ وذكراً هو المهندس «نزيه الكواكبي».

وأما أحفاد «عبد الرحمن» فهم: أخي «عبد الرحمن» وأنا «سعد زغلول» و «إياد» و «هيثم» (أولاد فاضل) و «مرتضى» و «لؤي» (ولدا أحمد نعمان) و «حاذق» و «نبيل» (ولدا رشيد). وهم جميعاً على قيد الحياة والحمد لله. وأما أولاد الأحفاد فواحد وعشرون. بذلك يكون عدد أسرة «عبد الرحمن الكواكبي» اليوم إثني عشر ذكراً وتسع إناث، أولاداً وأحفاداً. وقد منّ الله تعالى علينا بقلة العدد وبالاستمرار، وبالعلم وعيش الكفاف، فسرنا في طريق الأجداد الذي لا نخشى به الذل ولا السيطرة، موفوري الكرامة حتى الآن.

* * *

خاتمة

(١٨)

لئن كانت أسرة «الكواكبي» قد نالت ظلماً بعد وفاته، إلاّ أن الإنصاف لم يَفِهِ حقّه هو بالذات. وإنما تتالت الإساءة إلى ذكراه، لا من قبل الصهاينة أو ذوي الغرض أو أعداء العروبة فحسب، وإنما من أبناء وطنه بالذات. حتى كان زمن الوحدة بين مصر وسورية، إذ تساءل الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» في يوم من الأيام، في جمع من علماء مصر، عن أول رائد للقومية العربية والوحدة العربية، فأجمعوا له بأنه «عبد الرحمن الكواكبي». فأمر بأن يقام «مهرجان الكواكبي» في سائر البلاد المصرية والسورية، وأن يصدر طابع باسمه في هذه المناسبة. وكان ذلك، وأقيم المهرجان في كل من حلب ودمشق والقاهرة. ولما وصل الدور إلى المسؤولين في سورية ليضطلعوا بأمر إصدار الطابع البريدي، تألّفت لجنة خاصة ثقافية متخصصة بالتاريخ طبعت صورته المعروفة بالعمامة البيضاء. ولكن المساكين، حينما وصلوا إلى أمر تحديد زمن وفاته ظنوا أن مناسبة المهرجان هي مرور خمسين سنة على وفاته، فطرحوا العدد خمسين من السنة التي هم فيها (١٩٥٩) ـ كما يفعل بائعو المفرّق ـ فكان الجواب هو (١٩٠٩) فكتبوا على الطابع تاريخ الوفاة على أنه سنة ١٩٠٩! ولم يكلف أحدهم نفسه العناء ليفتح كتاباً أو يسأل أهله عن تاريخ وفاته! وهكذا أعادوه إلى الحياة بعد موته سبع سنين!!

ثم وصل أمر الإهمال بهم إلى درجة أوكلوا فيها لآذن المطبعة كتابة اسم الكواكبي بالأحرف اللاتينية فكتبها بلفظ يغاير اللغة العربية (Kawakbi) عوضاً عن (kawakibi) التي تلفظ بها الكاف مكسورة لا ساكنة، علماً بأن جميع كتب المستشرقين في العالم ومن كتبوا عنه وعن أسرته لم يخطئوا الكتابة باللاتينية كما أخطأ بنو قومه فكتبوا اللفظ

وكأنه بعيد عن اللغة العربية!

إن ذلك أبعد ما يكون عن تصرف الرجال المسؤولين في الأمم المتحضرة التي تحترم تاريخها وعظماءها. ولقد سمعت نكتة مفادها أن الخطأ كان متعمداً لكي يسحب الطابع ويرتفع ثمنه أسوة بالإصدارات الطابعية المغلوطة! فهنيئاً لهواة جمع الطوابع من أفراد تلك اللجنة الثقافية.

ولقد أسدل الستار على هذا الخطأ إذ لم تشأ الوزارة المسؤولة بعدئذٍ أن تعمد إلى التصحيح بإصدار طابع آخر خشية من حصول فضيحة كبرى، كما ذكر لي وزير المواصلات ناقلاً هذه الحجة عن أفراد اللجنة المختصة الذين أنّبهم على تلك الإساءة!

ولا أعلم ما إذا كان في دنيا العرب من سيصدر طابعاً صحيح التاريخ يوم ذكرى وفاته المئوية في ١٣ حزيران سنة ٢٠٠٢م أي بعد بضع سنوات، مع بيان تاريخ ولادته في ٩ تموز ١٨٥٥ أم تكون دنياهم قد نسيت تاريخهم وعقّت رجالها وراحت تؤرخ لشذاذ الآفاق ومن رحّب بهم وتطبّع معهم، والأمر يومئذٍ لله..

* * *

استدراك

(١٩)

فوجئت ـ والسيرة قيد الطبع لدى الناشر ـ بعثوري على أوراق كتبها عمي المرحوم الطبيب أسعد الكواكبي وفيها ثبت لأمور هامّة، رأيت أن أُلحقها بكتاب السيرة ولو في باب الوثائق. وتتضمن:

١ ـ إشارة إلى أن تاريخ مولد والده عبدالرحمن هو فعلاً ٢٣ شوال ١٢٧١هـ ـ ٩ تموز/ يوليه ١٨٥٥م.

٢ ـ إنه نشر جريدة اسمها «العرب» في القاهرة، في رحلته الأخيرة، إلا أنها لم يصدر منها إلا بضعة أعداد. ولم يشر إلى سبب انقطاعها: هل هو وفاته أم سبب آخر. ولقد عرضت هذا الكشف على الأديب «جان داية» صاحب كتاب «صحافة الكواكبي»، الذي كان له الفضل في الكشف عن جريدتي «الكواكبي»: «الشهباء» و«اعتدال»، فاهتم به وهو في طريق البحث عن هذه الجريدة.

٣ ـ إشارة إلى أن والده («عبدالرحمن») قد التقى في إحدى سياحاته بجمال الدين الأفغاني. فتوقفت طويلاً عند هذه الإشارة لأن أحداً لم يسمع أو يقرأ نبأ في هذا الخصوص. فرجعت إلى مراجعي لأرى ما إذا كان من الممكن فعلاً حصول ذلك اللقاء، وتبينت لي صحة الإشارة لأن «الكواكبي» سافر إلى «استنبول» سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٥م، ما تحدثت عنه في الباب الرابع من «السيرة».

والمعروف أن جمال الدين الأفغاني كان في «الآستانة» من سنة ١٨٩٢ م حتى وفاته سنة ١٨٩٧م، رهين الإقامة الجبرية والتضييق عليه في قصر ضيافة وضع فيه تحت المراقبة، ما كاد يحصل للـ «الكواكبي» نفسه لولا أن أطلق لساقيه رياح العودة.

وعلى هذا، فإن بالإمكان قبول الإشارة إلى التقاء الإثنين في «الآستانة» ذلك الإلتقاء الذي كان لا بد من أن يسفر عن تحذير «الأفغاني» للـ «الكواكبي» من مغبة حجره في إقامة جبرية هو أيضاً، في الدار التي نقل إليها بأمر من السلطان تحت اسم الضيافة، كما حصل للـ «أفغاني». وأمر الضيق الذي كان يحيط بالأفغاني، مثبت برسالته إلى «السير فيليب كوري» قنصل انكلترا في «الآستانة».

ولعل الأيام ستكشف لنا جديداً حول هذا النبأ وهذا الاجتماع القصير المحتمل.

٤ ـ أثبت عمي في أوراقه نصوص المراثي التي صدرت عقب وفاة والده في جرائد ومجلات مصر. وكنت أبحث عنها فسعدت لعثوري عليها وأثبتها في جملة الوثائق الملحقة بهذه السيرة.

٥ ـ ومما تضمّنته أوراق عمي أيضاً إشارة إلى أنه (أي عمي) اجتمع مع «نجيب النقيب» في «مكة» وكان هذا في التسعين من عمره ويقوم بنظارة وقف التكية الخديوية هناك.

ولا بد من أن ذلك الاجتماع بينه وبين أستاذ والده (الذي كان مشرفاً على تعليمه حينما كان طفلاً في «أنطاكية») قد حصل سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العالمية الأولى) حينما كان عمي رئيساً لأطباء المستشفى السيار العثماني العسكري للجيش الرابع متجهاً إلى حرب اليمن إذ انشغل بوظيفة طبية عسكرية في «مكة». ولا بد من أن يكون الحديث دار بينهما حول والده «عبدالرحمن»، ولا بد من أن يكون «نجيب النقيب» (الذي صار معلماً للخديوي عباس) قد تواجد مع تلميذه «الكواكبي» لدى الخديوي عباس، أو على الأقل في القاهرة.

وهذا ما يضع إشارات استفهام كثيرة عن سبب عدم وجود ذكر لـ «نجيب النقيب» هذا بمناسبة نشاط «الكواكبي» في «القاهرة» أو بمناسبة وفاته.

فهل لم يكن هذا المعلم في القاهرة أثناء وفاة «الكواكبي»؟

كما يتبادر إلى فكرنا التساؤل عما إذا لم يكن لـ «نجيب النقيب» دور في إنشاء صلات بين «الخديوي عباس» و«الكواكبي» بوقتئذٍ؟

أرجح أن يكون «النقيب» قائماً بوظيفة في «مكة» طيلة تلك الفترة الزمنية، وإلا

لسمعنا الكثير حول هؤلاء الثلاثة إذا كان التواجد المشترك في «القاهرة» حاصلا فعلاً. ولكان الخديوي عباس لم يتأخر لحظة عن جمع «الكواكبي» باستاذهما المشترك في مناسبة على الأقل.

ولا نعلم ما إذا كان لـ «نجيب النقيب» أولاد كي نسألهم تفصيلاً عن نهاية حياته. وندع ذلك إلى مستقبل الأيام!.

كل من عليها فان

[مجلة نور الإسلام عدد ٣ (الزقازيق) ١٥ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ/ ٢١ حزيران ١٩٠٢ م]

[إن الله لا يرفع العلم انتزاعاً ولكن يرفعه بموت العلماء]

فجعت الأقدار أمة العرفان ومعشر الفضل وجمهور العلماء بل مجموع الأمة الإسلامية بوفاة إمام الجهابذة وقدوة الأساتذة الفيلسوف الحكيم وأوحد العلماء المرشدين رب الفضائل والفواضل وتاج افتخار الأواخر والأوائل الفيلسوف ساكن الجنان ونزيل دار الرحمة والرضوان المرحوم:

السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي

وكانت وفاته عليه سحائب الرحمة يوم الجمعة ٦ ربيع الحاضر؛ فكان لنعيه المصاب الأليم والحزن العميم الذي تكاد السموات تنفطرن منه وتنشق الأرض، وكيف لا يعم الأسف جميع الشرق وأبنائه حزناً وتلهفاً على ذاك الكوكب المزد الذي كانت به سماء العرفان مشرقة منيرة وكانت بحور الارشاد مستفيضة برقائق إرشاداته وآفاق الهدى مضيئة بأنوار حقائقه ومحاسن تبيانه التي كانت به تستمد الألباب هداها والأرواح ارتياحها وانتعاشها.

نشأ رحمه الله في مهد الفضيلة والوقار واقتفى في أدوار حياته الشريفة المباركة أرفع وجهة قويمة يحرص عليها مخلص في خدمة أمته ووطنه وتعزيز الجامعة الإسلامية وتنمية الوسائل المؤدية لإرتقاء النشأة العصرية على أقوم دعائم الحكمة والسداد الكافلين لاستعادة ما أحنت عليه الأيام من مآثر العزائم ومفاخر الجد والإقدام التي امتازت بها مناقب الأمم الإسلامية في تاريخ سطوتها وفتوحاتها الزاهرة.

فلم يدع فرصة للسياحة وجوب الآفاق والتجول في كثير من البلاد الشرقية وغيرها

إلا بذل في انتهازها جهد المستطيع لبث مبادىء التنوير وإيقاظ الأذهان لإصلاح الحال وخير المآل؛ حتى أجمعت القلوب على محبته وذاع ذكره وفضله في الآفاق وغدا الكل يشير إليه بالبنان اقتباساً من أنوار عرفانه واغترافاً من بخور فضله وله في خلال ذلك مناقب تاريخية ومقاصد عظمى تبتهج نفوس الموحدين بإدراكها والتمسك بمباديها المنيفة الطاهرة الشريفة التي سننشر فصولاً منها بالتتابع في مجلتنا ضمن ترجمة وتاريخ حياته الطيبة لأن ما كان بيننا وبين الفقيد رحمه الله من وثيق الصداقة وروابط الود يجعلنا على وقوف تام مما يوجب علينا نشره في هذه المجلة تخليداً لبعض مآثره ليقتدي به فيها أولو الفضل وذوو الغيرة والحمية الذين يجمل بهم وقد عرفوا أن فضل الرجال بالأعمال؛ أن يقتفوا منهج اجتهاده وأن لا يعولوا في تكاسلهم وخمولهم على قول القاصرين: [هيهات أن يدرك الضالع شأو الضليع].

ولقد ظهر في عالم المطبوعات المصرية بعض من نفثات أقلامه التي كانت تأخذ مبانيها ومعانيها بمجامع القلوب، وتغذي أرواح الباحثين بأجل مشتهى؛ مما جعل أكابر الفحول يقرون بأنهم عالة على موائد فضله.

ولن يغرب عن ألباب القراء كتابه الجليل الذي عنوانه طبائع الاستبداد والمؤلف الثمين المعنون بأم القرى، وباقي الفصول الضافية والمباحث المتدفقة بالحقائق التي كانت تنشرها الصحف السيارة حيناً بعد حين في اقتضاءات المباحث ودقائق المسائل التي كانت تنطق بأجلى بيان ومعربة بأفصح دلالة عن كونه فيلسوف عصره ونابغة دهره والحكيم في قومه وأمته والمخلص في تمني الخير لشعوب أوطانه وملته:

فلأبكينك ما حييت وإذا مت   فلتبكينك أعظمي في قبرها

وسنزين نطاق المجلة في الأعداد التالية بما وعدنا بنشره قياماً ببعض حقوق أخوتنا الصادقة لهذا الفقيد البار الذي فقدت العلوم والمعارف بموته كوكباً منيراً، وفقدت الشهامة والمروءة والفضيلة بوفاته من كان لها معززاً ومؤيداً ونصيراً، وتندب الشريعة بغروب كوكبه إماماً كان يُهتدى به في معضلات المباحث ويُسترشد برأيه في كل استفادة علمية.

ولأجل ذلك نعزي في موته كل ناطق بالضّاد ونستمطر لروضة ضمت جسم الفضيلة وروح التقى من الله سبحانه عظيم الرحمة والرضوان.

وفاة عالم عامل

[عن جريدة الأهرام، ٧ربيع الأول/ ١٣ حزيران ١٩٠٢م]

ذهب إلى ربه أمس عالم شرقي عامل ـ والعاملون في الشرق قليلون ـ نعني به المرحوم المأسوف عليه السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي نزيل القاهرة منذ ثلاث سنوات.

توفي السيد عبد الرحمن فجأة بداء القلب! وشيعت جنازته إلى قرافة باب الوزير حيث دفن غريباً عن وطنه وأهله لا يغمض جفنيه غير ولده الذي أتى في هذا العام من حلب لرؤيته ولا يبكيه غير الأدباء والفضلاء الذين عرفوا قدره وسبروا غور فكره البعيد القرار. واليوم تبكيه الأقلام وترثيه؛ لأن الرجل كان ذا نزعة كبيرة إلى ترقي الشرق، وذا آراءٍ عالية في النهوض من هاوية الأنحطاط، وذا فكرة نقادة في كل أمر أعمل فيه فكرته؛ حتى أن فكره كان كالقرضة بالخشب لا يهدأ ولا يسكن عن الإشتغال إلى أن هد جسده فمات وماتت بموته مشاريع كبيرة كان ينويها وقد كتب فيها وأهمها تسهيل اللغة العربية على متناوليها فلقد كان الفقيد جوّالةً في الآفاق العربية والأقطار الشرقية يعرف جميع أمم الشرق وأخلاقهم وعوائدهم ولا تفوته حركة من تاريخ ممالكها وإماراتها وكان كثير الإعجاب بتقدم الترك وشديد الأسف لتأخر العرب، وكان معتقده أن تأخر العرب ناتج عن جهل لغتهم لأن اللغة التي تكتب لهم هي لغة لا يفهمها عالمهم ولا يدركها جاهلهم وكان رأيه أن تحذف من اللغة الألفاظ القديمة والحركات والجموع المتباينة، حتى أنه شرع بكتابة تأليف على هذا النحو. وكان له في التدريس والتعليم آراءٌ مستمدة من الاختبار، وكان كثير الإعجاب بأمته وأبناء وطنه على اختلاف مذاهبهم. ولقد لقي ـ رحمه الله ـ في هذه الديار من رعاية سمو الأمير ما خفّف عنه هجر وطنه وسهّل عليه

تتمة عمله؛ ولكن المنية عاجلته فسلبت من الشرق رجلاً كبيراً. فليس لنا إلا أن نستمطر طيب الرحمة على جدثه وبرد العزاء على قلوب أنجاله وآله.

وإذا كان الفقيد قد مضى، فإن له آثاراً مخلدة تنفع الشرق والشرقيين وكتابات لا تزال تنشر ويستفيد منها جميع المستفيدين.

المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي

[عن جريدة المقطم، ٨ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ/ ١٤ حزيران ١٩٠٢ م]

كان أمس على الشرق العربي يوماً اشتدت فيه الحسرات وزرفت من الأماقي العبرات. قضى فيه عالم من أعقل علمائه ومحنك من أذكى أبنائه ومنكوب كان يشكو وطأة الاستبداد وكئيب استصرخ قومه فكان كالنافخ في الرماد. ونعني به فقيد القلم والسياسة الأستاذ السيد عبدالرحمن الكواكبي من الأسرات العريقة بالحسب والنسب في مدينة حلب ومن أحسن الذين نبغوا في بلاد طال عهدها بالعبودية ونشأوا أحراراً لا يصبرون على الضيم ولا يقعدون عن تكسير القيود التي ترسف أمتهم فيها. فلما رأته حكومة بلاده ذا عرق نابض وجسم حساس يكره الظلم والظالمين ويخرق حجب الأوهام ويرفع غشاوة الجهل عن البصائر انبرت له هي وأعوانها من أبناء البلاد بالأذى والضيم الذي تعافه نفوس الذين ربوا على الرق فضلاً عن الذين أشربت قلوبهم حب الاستقلال والحرية.

ولو أردنا تعداد ما لقيه الفقيد من الأذى والاضطهاد لاستغرق كلامنا أعداداً عدة من المقطم الأغر فقد حبس بلا ذنب مراراً واتُّهم بدسائس سياسية اختلقها عليه أحد ولاة مدينته لأنه كان ينصحه بالرجوع عن الظلم.

ولما سيق إلى القضاء أمام محكمة تردد في الأحكام صدى ما يشاءه الطغاة البغاة من الحكام فحكمت عليه بالإعدام ولكن قيض الله له من الأصدقاء من يملأُ البلاد نحيباً وعويلاً ويزعج الدوائر السياسية بالشكاوى المتوالية فحولت قضيته إلى بيروت، وهناك ظهرت أكذوبة الوالي واشتهرت فحكمت المحكمة ببراءته ولم تعاقب الحكومة الوالي بغير العزل.

ولما أعيتهم الحيلة في اقتناصه بالشباك القضائية أغروا بعض الأشقياء بقتله. فكمن له ليلاً وطعنه في صدره طعنة كادت تقضي عليه لولا لطف الله به. ثم ضبطت الحكومة كل أراضيه إلا قليلاً وأضافتها إلى الأراضي السنية فسلبته كل ثروته وحطت كرامته في عيون قومه فرحل عن بلاده والتجأ إلى مصر بلاد الأمن والعدل والحرية، وألّف فيها كتابين جليلين في بابهما دلاّ على مداركه السامية واختباره الواسع وانه العربي العارف بأدواء الأمة ودوائها وهما كتاب «طبائع الاستبداد» و«ام القرى» وقد كان يعدُّ غيرهما للطبع ولكن عاجلته المنية فجأة أول البارحة فراح شهيد الحرية في الخمسين من عمره ودفن أمس في احتفال مهيب على نفقة الحضرة الفخيمة الخديوية أجزل الله لها ثواب الدنيا مع الآخرة. وكان المرحوم فاضلاً في علمه راجحاً بعقله معتدلاً في رأيه، جلوداً صبوراً، خبيراً بأحوال الدولة العثمانية ورجالها والأتراك وتاريخهم والشرق وأسقامه، وقد قضى الثلاث السنين الأخيرة سائحاً في بلاد العرب وشرق إفريقية يستطلع أحوال أهلها وحكوماتها، وكانت أخص آماله أن يرى للأمة الإسلامية حكومة دستورية لا تحكم البلاد والعباد بالأهواء والأغراض، فلم يحقق الدهر له أملاً لما هو معلوم من أن صيحة الأفراد لا تلقى مجيباً إلا إذا كان الاستعداد للجواب تاماً في المجموع. رحم الله الفقيد رحمة واسعة

إنا لله وإنا إليه راجعون

[عن جريدة المؤيد، ٧ ربيع الأول١٣٢٠ هـ/ ١٣ حزيران ١٩٠٢ م]

كان بالأمس بين ظهرانينا رجل من أكبر رجال العصر في الشرق فكراً وعلماً بأحوال المسلمين وفهماً لِكُنْهِ أمراضهم الاجتماعية وقدرةً على تصويرها بالقلم وتمثيلها للقراء أوضح وأقرب تمثيل فعاجلته المنون الليلة الماضية فجأة وكان موته فاجعة عظمى على الإسلام والمسلمين.

ولعل الكثيرين من قراء المؤيد أو القليلين منهم وهم الخاصة الذين يعتنون بالمباحث الإسلامية الدقيقة عرفوا أن من نعنيه بذلك وننعيه بهذه السطور هو صاحب تلك المقالات العالية في مباحث «الإستبداد»، وقد تضمنت أسمى ما يكتب كاتب وأبلغ ما يخط بليغ وأقصى ما يصل إليه فكر فيلسوف في بيان طبائع الإستبداد. هو صاحب تلك الجولات الشاسعة في السياحات التي جابها في ممالك الشرق والإسلام ولا يزال صداها يرن في الأذهان والآذان. هو غريب الديار المرحوم:

السيد عبد الرحمن افندي الكواكبي

الحلبي مولداً ومنشأً وتربية والسائح الشرقي الجوابة في الممالك الإسلامية منذ ثلاث سنوات. هو صاحب كتاب «أم القرى» الذي جمع فيه وشخص أمراض المسلمين في كل أرجاء المسكونة. ولولا غلوّ به في انتقاد حكومة دولتنا العلية لقلنا أنه أكبر حسنات هذا العصر من كل الوجوه ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقول هو ـ في بيان أبواب ادواء المسلمين العامة وتشخيص ما عليه كل فريق منهم ـ الآية الكبرى على مبلغ ما يصل إليه العقل الكبير لذي همة كبيرة من بني الإنسان.

كان الرجل لغاية الأمس على تمام الصحة والعافية، ثم نبض بذراعه في الظهر عرق أو سكن نابض فتألم نحو ساعة وصل فيها الألم إلى القلب ثم زال بعلاج خفيف استعمله، وبعد نصف الليلة الماضية عاوده الألم في الذراع ثم اتصل بالقلب أيضاً فعالجه أكثر حتى زال قليلاً وبعد هنيهة عاجله الألم بشدة وتأثر القلب بسكتة كانت القاضية في منتصف الساعة الثالثة وما أصبح الصباح حتى نعاه أصدقاؤه لبعضهم وكانت في نعيه خسارة على الإسلام والمسلمين.

وقبل ظهر هذا اليوم شيعت جنازة الفقيد إلى قرافة باب الوزير بعدما صلى عليه في مسجد السيدة فاطمة النبوية. ورجع المشيعون يعزي بعضهم بعضاً. فرحمه الله رحمة واسعة وعزى كل من عرف خلاله الفاضلة ونفسه الأبية العالية وعلمه وفضله وفضيلته خير العزاء آمين.

السيد عبدالرحمن الكواكبي

[الهلال السنة ١٠ الجزء ١٩ و٢٠، ٦ ربيع الثاني ١٣٢٠هـ/ ١٥ تموز ١٩٠٢م]

العظمة والشهرة صديقتان يغلب أن تتصاحبا فلا تكون إحداهما بدون الأخرى. ولكنهما كثيراً ما تفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة. فترى بين أهل الشهرة الواسعة من إذا لقيتهم وسبرت أغوارهم، رأيتهم كالطبل يدوي صوته الى بعيد وجوفه فارغ. وإنهم انما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل إلى نشر محامدهم في الصحف ليقرأها الناس ويتحدثوا بها، وقد ينفقون المال ويتحدّوا أوعر أسباب السعي في هذا السبيل. وترى بينهم من لا محمدة له فينتحل محامد غيره أو تكون له حبة منها فيجعلها قبة. فإذا نشر ذلك عنه في صحيفة أو نشرة أو كتاب حمله وطاف به في الأهل والأصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقى من آيات الإعجاب وخصوصاً في هذه البلاد. بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غروراً إذ لا يسمع من الناس إلا إطراءً وإعجاباً ولو كانت حالته تدعو إلى التقريع والتعنيف ـ يعدون ذلك من آداب الحديث. فما كل شهير عظيم ولا كل عظيم شهير. فكم بين ظهرانينا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الأسباب لأتوا بالأمور العظام. وقد تظهر مواهبهم من خلال أعمالهم وإن ضاقت دائرة العمل. ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف اسماءهم إلا القليلون، فإذا أصابهم سوء أذاع مريدوهم أخبارهم وتحدثوا بأفضالهم. ومن هذا القبيل ما اتفق بمصر في أثناء الشهر الماضي بوفاة المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي. فقد جاء مصر منذ عامين وأقام في قلب العاصمة. ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره أحد ولا عرفه إلا الأصدقاء والأخصاء. وهناك أناس يقصرون عن إدراك بعض منزلته علماً وفضلاً ولكنهم لا تطأ أقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف أخبارهم بما

ينشرونه فيها من نفثات أقلامهم أو ثمار قرائحهم ـ وقد لا تكون تلك الثمار شهية ـ وإنما يعمدون إلى نشرها رغبة في الشهرة. . فالكواكبي رحمه الله لم يكن من أولئك ولكن همه كان منصرفاً إلى خدمة الوطن وذلك بالمبادىء الصحيحة في التأليف والتلقين بعد أن قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب. وقاسى أموراً صعاباً من وشايات ذوي الأغراض، فلم يلق تربة تصلح لغرس مباديه، فجاء مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الأجل فمضى ومضت معه أمانيه وهي شبيهة بأماني المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني، وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله.

آل الكواكبي أسرة قديمة في حلب هاجر إليها أجدادهم منذ أربعة قرون، ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والآستانة. يرجعون بأنسابهم إلى السيد إبراهيم الصفوي أحد أمراء أردبيل العظام. ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية في حلب. ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الإدارة. ومنهم فقيد الأمس السيد عبدالرحمن، قد ولد في حلب سنة ١٢٦٥هـ وأبوه الشيخ أحمد الكواكبي أحد مدرسي الجامع الأموي الكبير.

تلقى السيد عبدالرحمن مبادىء العلم في بعض المدارس الأهلية ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية واتقن العربية والتركية وبعض الفارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة. وكان ميالاً من حداثته إلى صناعة القلم، فاشتغل في تحرير جريدة (فرات) التي كانت تصدر في حلب باسم الحكومة وهو في السابعة والعشرين من عمره، حررها خمس سنوات وأنشأ في أثناء ذلك جريدة سماها (الشهباء)، واشتغل بخدمة الحكومة فتقلّب في عدة مناصب علمية وإدارية وحقوقية. وأهل النقد يذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها لأن اقتدار الرجل يظهر في الصغائر كما يظهر في الكبائر. وكان حب الاصلاح وحرية القول والفكر باديتين في كل عمل من أعماله. فلم يرق ذلك لبعض أرباب المناصب العليا فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه. فلم يقلل ذلك شيئاً من علو همته فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر منذ سنتين ثم خرج منها سائحاً فطاف زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربيها ثم رجع إلى مصر.

ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبقه أحد إليها ويندر أن

يستطيعها أحدٌ غيره. وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب فأقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين يوماً فقطع صحراء الدهناء في اليمن. ولا ندري ما استطلعه من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية. فعسى أن يكون ذلك في جملة مخلفاته، وتحول من هذه الرحلة إلى الهند فشرقي إفريقيا أيضاً وعاد إلى مصر وكان أجله ينتظره فيها.

كان الكواكبي واسع الصدر طويل الأناة معتدلاً في كل شيء. وكان عطوفاً على الضعفاء حتى سماه الحلبيون «أبا الضعفاء». وجاء في (الرائد المصري) أنه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث إلى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين.

وكان واسع الاطلاع في تاريخ الشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع في علم العمران. وألّف كتباً لم ينشر منها إلا كتاب «طبائع الاستبداد» وهو فريد في بابه قرظناه في غير هذا المكان. وكتاب «أم القرى». ومع تمسكه بالإسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها فقد كان بعيداً عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء؛ لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة. رحمه الله رحمة واسعة.

ومن يقرأ ترجمة الكواكبي والأفغاني وغيرهما من رجال هذه النهضة ويدرس أعمالهم والأحوال المحيطة بهم يعترف بفضلهم في نصرة الحقيقة وتأييد الحق والحرية، ولكنه يرى بعين عقله إنهم يحاولون عبثاً ويضيعون قواهم سدّى؛ لأنّ مجاري الطبيعة غالبة على مساعيهم، والقوة واقفة في سبيلهم، ولله في خلقه حكمة لا تدركها العقول.

السيد الكواكبي

[جريدة الرقيب، مصر، العدد ٢٢٨، حزيران ١٩٠٢]

إخترمت المنون في العاصمة عالماً فاضلاً من علماء المسلمين وعاقلاً من العقلاء الذين يندر وجودهم بين الشرقيين. وهو السيد عبدالرحمن كواكبي الحلبي موطناً.

ترك الفقيد وطنه حلب فاراً من وجه الاضطهاد على ما قيل وأقام في مصر بين علمائها وكبرائها الذين التفوا عليه التفاف الناس على نوابغ الرجال. وكان رحمه الله عالماً متضلعاً وكاتباً عربياً بليغاً ينقاد إليه زمام الكلام بسهولة. وله من المؤلفات كتابان الأول كتاب «طبائع الاستبداد» وقد نشر تباعاً في جريدة المؤيد الغراء ثم جمع على حدة؛ ولما كانت جريدة المؤيد تنشره فصولاً كان الكتّاب يتساءلون من هذا الكاتب الجديد الجامع بين علوم المسلمين وعلوم الإفرنج هذا الجمع. وكيف تسنّى لكاتب مجهول أن ينشر أول كتاب له فيظهر بهذا المظهر من القوة والمتانة والاختبار كأنه كاتب مرّت عليه الأعوام.

نقول وكأن الكتّاب الذين كانوا يتساءلون هكذا يحسون أن زعماء الأقلام في هذا الزمان هم الظاهرون الآن للعيان وأن بلدان الأمم الشرقية كالعراق والشام لا تضم بين أجنحتها أحداً من الكتّاب المجهولين والعلماء المنقطعين إلى الدرس والبحث.

وقد ظهرت الحقيقة مع السيد الكواكبي بخلاف ذلك. فإن رجلاً مثله ترك وطنه وجاء إلى مركز النهضة الأدبية لم يلبث أن حلّ في هذه النهضة محل النقطة من الدائرة وصار المشار إليه بالبنان فيها. فنستنتج من ذلك أحد أمرين: إما أن هذه النهضة ضعيفة جداً حتى أن كل دارس مطلع ممتاز بشيء من الذكاء والعلم إذا انضم إليها أصبح بمكان الصحيح منها وسبق كثيرين من رجالها. وإما أن البلدان العربية والأقطار الشامية

والمصرية النائية تخفي كثيرين من أهل العلم والاطلاع الذين ينصبّون إلى الدرس في غرفهم المظلمة المجهولة حتى إذا تسنى لهم الظهور ظهروا وأفادوا وإلا ماتوا مجهولين واختفت بصدورهم كنوز النشاط والمعرفة التي جمعوها في عدة سنين.

وقد كتب السيد الكواكبي كتاباً آخر وهو كتاب «أم القرى» التي تنشره مجلة المنار الغراء. وكان في نيته تأليف عدة كتب في عدة مواضيع ولكن المنون عاجلته وحرمت اللغة العربية منه.

ومن مزايا هذا السيد أنه كان متساهلاً في الدين أي أنه يعتبر الأديان كلها ولا يحقر دين غيره ليكرّم دينه، وذلك لمعرفته أن الله تعالى لم يشرّع الأديان إلا للحب وجمع القلوب وترقية شؤون البشر لا للتفريق والبغض. وكان في كتاباته مغامز كثيرة ضد الدولة العثمانية لما لقيه من الاضطهاد في حلب كما قيل. ولذلك ذكر في كتابه طبائع الاستبداد سطوراً على سبيل التلميح كأنها صواعق منقضة، من ذلك قوله في غلاف هذا الكتاب «كلمات حق وصيحة في واد. إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد».

ولما شاع خبر وفاته عمّ الحزن عليه جميع الفضلاء والأدباء الذين كانوا يعرفون فضله. ورثته الجرائد أجمل رثاء وشبهه بعضها بالسيد جمال الدين الأفغاني وسمّاه الآخر فقيد الشرق والإسلام. والحق إن صاحب الترجمة كان يستحق كل ذلك. رحمه الله رحمة واسعة عداد حسناته وعزّى فيه الأدب والأدباء.

وقد كتبت إلينا جمعية الكتّاب في مصر بشأن هذا الفقيد الكريم ما نصه:

جمعية الكتّاب المصرية: مصر في ١٨ يونيو سنة ١٩٠٢

حضرة مدير جريدة الرقيب الغراء

كان العلاّمة المرحوم السيد عبدالرحمن الكواكبي عضواً عاملاً من أعضاء جمعية الكتّاب المصرية فلما انتشر خبر وفاته أسف الأعضاء جميعهم أسفاً شديداً وودوا لو أنهم علموا بالأمر في حينه ليسيروا وراء نعش الفقيد الكريم. وقد اجتمعت لجنة الجمعية أمس اجتماعاً خصوصياً قرّرت فيه بإجماع الآراء أن تبدي اشتراك الجمعية مع آل الفقيد في الأسف والأسى وأن يكتب السكرتير كتاباً بذلك إلى نجله الأديب حضرة كاظم أفندي الكواكبي، والجمعية تعدُّ فَقْدَ هذا العلاّمة الكبير خسارة عليها وعلى العلم

والأدب في الشرق وهي تطلب لآله الكرام جميل الصبر وترجو أن يقوم في الشرق كثيرون ينسجون على منواله رحمه الله أوسع الرحمات.

فأرجوكم أن تشيروا إلى ذلك في جريدتكم الغراء وأن تقبلوا تحيتي واحترامي.

اسكندر شاهين

سكرتير جمعية الكتّاب

شعلة منطفئة

[عن قصاصة جريدة، يعتقد أنها لإبراهيم سليم النجار]

في الأرض مثلما في السماء نجوم يريكها البعد صغيرة فإذا اقتربت منها هالك حجمها ورأيتها كوكباً سياراً ينير السابل. وقد فقد الشرق عالماً من علمائه كان يكبره القرب نار العقول كما أنارت نجوم السماء السبل، فكان كثير الحرارة، كثير النور. وربما كانت هذه الحرارة والنور سبب تسميته بالكواكبي. وكسر بالأمس قلم كان قطعة من سيف عليّ، أو حسام محمد الفاتح. فتح هذان المدن، وفتح ذاك العقول فكان الثلاثة من أصحاب الفتوح؛ على أن الأخير أكثر خلوداً وأبقى ذكراً وأعم نفعاً في الوجود. فالسلام على قلم كُسر والرحمة لرجل كان شعلة فانطفأت ونجماً فهوى. توفى رجل سماه أبواه عبد الرحمن الكواكبي، ودعاه أصدقاؤه العالم الفيلسوف، وعرفه قراؤه بالرحالة الكبير. قدم من حلب مع أصحاب الهجرة فنزل ضيفاً على شاطىء النيل؛ ـ وبالله كم اغتال النيل مثل هذه الجواهر! ـ فلمع مثل الشعلة والتفت من حوله حلقة من أهل الفضل كان عقدها فكان لأصحابها صديقاً يسترشدون بنوره وعالماً يعملون برأيه.

جالسته بالأمس رجلاً نورانياً كاد يشتعل، وعلمت اليوم أن ذاك الوعاء الذي كان مركباً فوق جسمه قد انفجر، وأن ذاك القلب الذي كان ممتلئاً وطنية وغيرة؛ رق إلى أن ذاب، فبردت اليد التي كتبت «أم القرى»، وخمد النفس الذي قال في كتاب طبائع الاستبداد: (هذه كلمات حق وصرخة في واد؛ إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد)، وذهب الرجل الذي كان يضع تاريخ ثورات العالم في كتاب يكون للأمم المستعبدة مثل الباب تدخل منه إلى بيت الحرية المنير.

فنم الآن مستريحاً من عناء الوجود؛ لأنك كنت تحمل كثيراً من أثقاله على كتفيك، واعلم أن الذي استطاع أن يسكت أفواه المحاكم لن يستطيع أن يسكت أفواه القبور!! . .

السيد عبدالرحمن الكواكبي

[مجلة المقتطف، الجزء السابع من المجلد السابع والعشرين، ١ تموز ١٩٠٢ ـ ٢٥ ربيع الأول ١٣٢٠، الصحائف ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤].

الرجال ثلاثة: **شريرٌ**: ضرُّهُ أكثر من نفعه فهو عضو فاسد في جسم العمران لا يؤسف على انفصاله منه. **وخاملٌ**: لا يرجى خيرهُ ولا يخشى ضرُّهُ يحيا لنفسه حياة حيوانية أو نباتية يصحُّ أن يقال فيه إن عاش أو مات على حدٍّ سوى. **وفاضل**: نفعهُ أكثر من ضره أو هو خير بلا شر ونفع بلا ضر. وهذا الفريق ليس قليلاً ولكنه متفاوت الدرجات. والذين بلغوا من الفضل والكمال مبلغاً كبيراً حتى صاروا نفعاً محضاً لأبناء نوعهم قليل عددهم لكنهم ملح الأرض ويظهر لنا أننا فقدنا واحداً منهم في خلال هذا الشهر؛ رجلاً سيماءُ الفضل في وجهه ودلائل سعة العلم ونبالة الغاية في حديثه لم تتح لنا معاشرته إلا برهة وجيزة؛ لكن الفضل لا يخفى والقرائح لا تستتر وقد شق علينا فقده لأننا نعدُّ خسارة البلاد الشرقية به عظيمة، وطلبنا من أحد مريديه أن يتحف المقتطف ببعض ما يعلمه من أمره عسى أن تنبه قراءته بعض النفوس الزكية تتناول العمل الذي تركه وتنسج على منواله. فكتب إلينا الفصل التالي وكأنه نطق بلساننا في وصفه وزاد أموراً لا نعرفها من تاريخه قال:

«قال أحد أساطين العلماء المعاصرين وقد جرى في حضرته ذكر النهضة الإسلامية الحاضرة: أرى في هذه الشجرة الجرداء بعض أوراق خضر وما أدري هل هي بقايا القوة القديمة أو هي دلالة على حياة جديدة.

هذا ما قاله العالم المشار إليه وسواءٌ صحَّ حكمه على هذه الأوراق أو لم يصحَّ؛ ففقيد هذا الشهر السيد عبدالرحمن الكواكبي هو ولا شك أحد تلك الأوراق بل تلك الأغصان الخضراء التي كان يرجى منها أن تمتد وتلتفَّ لولا أن صُوّحت قبل أوانها.

صاحب الترجمة كان كبيراً في عقله، كبيراً في علمه. ولد في حلب من أسرة عريقة في العلم مشهورة بالسيادة من سلالة السيد إبراهيم الصفوي الذي هاجر من أردبيل إلى حلب وكان من أهل الإمارة وزعماء الناس.. ولما كان في السادسة من عمره أخذته خالته من والده إلى بلدها أنطاكية وكفلته نحو ثماني سنين فأحسنت كفالته وكانت من النابغات في الدهاء وحسن التربية والعقل فأخذ عنها الفقيد ما ظهرت عليه إماراته بعدُ بأبهى المظاهر. ولما رجع إلى حلب يافعاً سلمهُ والدهُ إلى أساتذة عصره فدرس علوم الأدب والشريعة وبرز فيها على أقرانه وأجازوه بما لقفهُ عنهم؛ إلاّ أنه لم يكتفِ بتلك العلوم وسمت به الهمة إلى مطالعة ما يتعلق بعلم الاجتماع من تاريخ وفلسفة ثم درس العلم الطبيعي والرياضي على أساتذة خاصة فنال من كل ذلك حظاً وافراً.

ولم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى أصبح فريد عصره وما زال الزمان يحنكه وعشرة الرجال تنفعه حتى حرّر جريدة «الفرات»، وأصدر في أثناء ذلك جريدة «الشهباء» أقفلت بعد حين، ثم وسدت إليه وظائف عديدة في خدمة الحكومة فقام بأعبائها كلها قيام الرجل البصير الذي لا يرغب إلاّ في إدخال الإصلاح حيث حلّ، وله في ذلك آثار يعرفها أبناء وطنه كإصلاحاته في المحكمة الشرعية والمجلس البلدي وغرفة التجارة والزراعة والصناعة وإدارة حصر الدخان وغيرها من الوظائف الكثيرة الكبيرة.

بيد أنه كان من طبع الفقيد أن يقول الحق ولو على نفسه. ومن كان هذا حالهُ يقاسي الأمرّين ولا يهدأ له بال، فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجور والعسف فحنقوا عليه من جراء ذلك وتواطأ بعض العمال مع الأعيان عليه وساموهُ من ضروب التنكيل ألواناً، فصبر على ما أصابه مما يصيب في العادة المنوّرين العقلاء في البلاد الشرقية.

حتى إذا ضاق صدره من النكبات خرج من بلده فجاء مصر ثم ساح سياحتين عظيمتين إلى بلاد العرب وشرق أفريقية وبعض بلاد الهند أتى منهما بفوائد جليلة ليته توفق في تدوينها.

وقد نشر في مصر كتابين مبتكرين وهما «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» وكلاهما يدلان على فضل الرجل وعقله؛ شخّص فيهما أمراض الشرق تشخيص حكيم بصير بمزاج المريض وأعراض أسقامه ووصف له ما ارتآه من الأدوية الناجعة فأجاد وأفاد.

أما صفات الفقيد فكانت من أحسن ما ينبغي أن يكون عليه رجال النهضات. فما

عُرِف بمنكر ولا توانى في أمر بدأ فيه ولا تضجرَ ولا تخامل. وكان رحب الصدر خلاّباً للألباب إذا ضمّك وإيّاه نادٍ لا تريد فراقه من بعد. فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم فهو سياسي محنك مع الساسة وعمراني إجتماعي مع علماء العمران وعالم ديني مع علماء الدين. وتاجر مع التجار وزارع مع الزراع وصانع مع الصناع وعامل مع العمال وكبير مع الكبراء بحيث كان الناظر إليه لأول وهلة يقرأ في جبهته امارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر.

وقد صادفنا الحظ فاجتمعنا به مراراً رأيناه فيها من العظماء الذين لا يتيسر لبلادنا أن ينبغ أمثالهم فيها كل حين وشهدنا منه رجلاً واسع المادة بعيد غور العقل يتكلم عن روية ولا ينطق عن هوى، عليه سيماء الكآبة مما مُني به. وأكّد لنا أحد المتعلقين به أنه كان لا يجاريه مجارٍ في الوقوف على أحوال الشرق واماراته وحكامه قديمها وحديثها وكان أعرف العارفين بتاريخ العثمانيين وتراجم رجالهم المعاصرين والغابرين.

ولما كان في حلب حاول أموراً كثيرة لم يُجب طلبهُ فيها. منها: طلب امتياز بإنشاء مرفأ في السويدية ميناءِ انطاكية وخط حديدي من السويدية إلى حلب، وجر مياه نهر الساجور قرب مدينة عينتاب إلى حلب فتغمر بذلك أراضٍ كانت قاحلة جرداء، وجر عين البالعة من ارمناز إلى ادلب ليحي القضاءان وكان أحدهما غامراً بالمياه والآخر لا مياه فيه. وإنارة حلب وبيره جك ومرعش وآدنه بالكهربائية بواسطة قوة انحدار الماء في نهر العاصي قرب دركوش في محل اسمه المضيق في جسر الشغور. ونال امتياز معدن ارغني من أعمال ولاية حلب، استخرج فلزه ثلاث سنوات ونحو ذلك من الآثار التي تدل على كبر همته وعلو نفسه.

وبالجملة فالفقيد يعد من كبار رجال النهضة الحديثة في هذه الديار. إلا أن المحيط لم يساعده والأجل لم يمهلْه حتى يتمم مقاصده السياسية والدينية على أن النغمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد ولم يعرف عقلهُ ولا فضلهُ. رحمه اللّه رحمة واسعة وعزّى فيه الفضيلة والعمل».

الوثائق

في رأس صفحة من دفتر حسابات يومية بين خادم الأسرة المكلف بشراء لوازمها وبين الشيخ أحمد والد عبد الرحمن الكواكبي، كتب الطفل عبد الرحمن في هذه الزاوية عتاباً لأبيه ليقرأه عند مراجعة الدفتر جاء فيه: (عبد الرحمن في رمضان يكون سهران طوال الليل ويسهر إلى أن يبقى إلى الفجر مقدار عشر دقائق وينام وقتئذ وذلك بسبب تهاون أبيه عنه) فذيل والده عتابه بما يرضيه قائلاً: (لم يقع ذلك بدون عذر قط ولو فرض فلا إثم قبل دخول الوقت عليكم بالحكم).

١٤ محرم ١٢٨٤



رسالة بالعامية من عبد الرحمن الكواكبي في حلب، إلى ولده أسعد في استانبول وكان قد بعثه إليها لدراسة الطب.

ولدنا الأكرم حرسه الله تعالى

في البوستة الماضية ما أرسلنا لكم مكتوب لأجل ترتيب مكاتيبنا كل خمسة عشر يوم واحد. وصلنا منكم مكتوبين، ضمن الأولى منهما مكتوب منكم لكاظم[1] تذكرون فيه أنكم استأذنتم منا بخصوص حضوركم لحلب مدة العطلة، والحال في مكتوبكم الأول لنا لم تبحثوا عن ذلك، إنما ذكرتم في المكتوب الذي قبله ما يفيد ترددكم في الحضور أم عدمه، ونحن جاوبناكم بتفويض المسألة لرأيكم، والآن نعيد ذلك أيضاً لرأيكم إن أحببتم تحضروا لا بأس، وإن أردتم تبقوا هناك مع من يبقى لا بأس. وأما كون المعلمين تفرقوا وأكثرهم سافروا إلى جهة معسكر الأسونيا، والدروس معطلة، فهذه العطلة طبيعية. إنما إذا بقيتم هناك يمكنكم أن تمضوا أوقاتكم بمطالعة كتب برنجي سنة[2] وحفظ دروسها، والمدة كافية وافية للاتقان والاستعداد لطلب الامتحان حسبما كنتم متصورين وعازمين عليه. ولكم أمل أن يجيبوكم لطلب الامتحان. وعلى فرض أنه ما أجابوكم لذلك فتكونوا تعلمتم دروس السنة الأولى. ثم في أثنائها مع تكرار دروسها يمكنكم تطالعوا دروس ايكنجي سنة[3]. وبهذه الصورة تكسبون في الامتحانات دائماً الأولية. وفي ذلك مزية تساوي هذه اللكعة[4] وتعطيكم فراغ لاتقان الفرنساوي أم العربي أم أحد الفنون الطبية التي تحبون أن تكسبوا فيها اختصاصاً.

مثلاً تحبون أن تتوسعوا في اتقان فن الجراحة أو أمراض العين أو الأمراض الدماغية، بحيث تستحضرون من الخارج بعض الكتب الخاصة بهذا النوع الذي تميلون لأن تتميزوا به كما يفعل الأطباء الأوروبيون فيكسبون بها شهرة الانفراد واختصاص، ويصيروا مرجع للجميع من هذا النوع مثل جميل باشا الجراح عندكم، ومثل بعض المعلمين من المكتب الذين تخصصوا بتدريس الفن الذي تميزوا فيه على غيرهم. وهكذا تميز مهم جداً يساوي ألف سنة.

---

(١) كاظم أكبر أولاده.

(٢) السنة الدراسية الأولى.

(٣) السنة الدراسية الثانية.

(٤) أي عدم التمتع بالعطلة.

وإذا عرف التلميذ يسهل عليه أن يطلب عند أخذه الديبلوما[1] أن يرسلوه إلى أوروبا لأجل إكمال اتقانه هذا الفن الخاص على نفقة الحكومة، أو على نفقة ذاته.

وفي أوروبا لكل فن ونوع مدرسة مخصصة ومعلمين ممتازين وجرائد وكتب خاصة، والمريض، لا سيما الأغنياء والأكابر يتحرون لكل مرض الحكيم المشهور بحذاقته في هذا المرض ولا يعتمدون على الأطباء العموميين.

والمفهوم أن سنين الدرس في المكتب الطبي هي أكثر من اللازم، بحيث يمكن للتلميذ المجد الذي يحرص على عدم إضاعة الوقت أن يتعلم مع دروسه القانونية علوم أخرى، مثلاً يمكنه أن ينتسب لفن مخصوص كما ذكرنا، ويمكنه أيضاً أن يتقن فن الإنشاء والكتابة ويتقن الفرنساوي، ثم بعد الفرنساوي يمكنه أن يتعلق بتعلم الإنكليزي بسهولة، وتعلم الإنكليزي أمر ذو أهمية عظيمة من جهة اقتباس المعارف ومن جهة السياسة أيضاً.

والخلاصة أن الإنسان هو الذي يتعلم والمكتب والمعلمين ما هم إلاَّ وسيلة للتفهم والتربص، فاستعدادكم الششخصي ومكتبتكم وسعة وقتكم يمكنوكم من تحصيل كل ما ترغبون تحصيله. إنما يلزمكم تخصيص الوجهة والجد، وأن لا تقتلوا الوقت في التردد، وأن لا تضيعوا شيئاً ابتدأتم فيه قبل اتقانه بالملل منه، والانتقال إلى غيره، بل تلازموه حتى تتقنوه. فإن مؤلف رومان[2] متقن للكذب أنجح وأفضل من مؤلف في عشرين علم تأليفات عادية.

وعندي أن الأوفق لك أن تجعل نصب عينيك وتوجه تصميمك وعزمك على اتباع الخطة الآتية وهي:

١ ـ اتقان دروسك القانونية.

٢ ـ جعل تفكهه[3] من مطالعة الكتب العربية، كتاب بعد كتاب، مطالعة فهم وتدقيق.

---

(١) الشهادة.

(٢) رواية.

(٣) تسليتك.

مثلاً كتاب فقه، ثم كتاب تفسير، ثم كتاب حديث، ثم كتاب أدبيات ونحو ذلك. فبهذه الصورة تحصل على معلومات كافية في لغتك ودينك وهذه مزية تمتاز بها على سائر أقرانك وهي ذات قيمة مهمة بالنسبة إلى طبيب مسلم عربي.

٣ ـ تخصص لك وقتاً، ولو مقدار نصف ساعة في اليوم لاتقان الفرنساوي، ثم بعد تحصيل درجة الكفاية للفهم تشترك في بعض الجرائد العلمية الفرنساوي فتكون لك عوناً في فنك.

٤ ـ بعد اتقان الفرنساوي لدرجة تبدأ بتعلم الإنكليزي في النصف ساعة التي كانت مخصصة للفرنساوي.

٥ ـ تتخذ لك دفتر مسودات تحرر فيه بعض كتابات في نصف ساعة تخصصها كذلك، وتكون هذه الكتابات في مواضيع شتى، تارة بالتركي وتارة بالعربي، ولما يصير فيك إمكان فتارة بالفرنساوي أيضاً، فبهذه العملية تكتسب اتقان الإنشاء في اللغات الثلاث، كما تستفيد الرسوخ في المواضيع التي تكتبها إنما ينبغي أن لا يكون من جملة ما تكتب مواضيع سياسية.

وبهذا المسلك تتمرن على التأليف الذي هو أشرف وأنفع صنعة، وقد طولنا هذا البحث والذي دعاني إليه إنك تتنبه منه لترتيب مسلكك فلا تضيع استعدادك ووقتك كما جرى معي وأصبحت نادماً حيث لا ينفع الندم[١].

وأرجو المولى تعالى أن يوفقك ويرشك لما فيه خيرك في الدنيا وفي الآخرة. وأختم نصيحتي لك بأن لا تترك جانب الله فتواظب على صلواتك «ولا تلتفت لحالة جماعة الطبية» واعتقاداتهم الطبيعية، فإن أسعد الناس حتى في العيشة الدنيوية هم المتدينون وأعرق الزنادقة في الكفر يحسدن المتدينين حقيقة، ويحبونهم ويعتمدون عليهم. لأن المتهاون في دينه لا مسلك له قطعياً فلا أحد يثق فيه وهم يعلمون ذلك من أنفسهم.

أخوكم كاظم ووالدتكم توجهوا إلى حمام الشيخ عيسى[٢] ٢١ ذي الحجة ومعهم أمون الجلبية لأجل الخدمة، ومعهم رفقاء كثيرين والأمل بالله تعالى أن تستفيد والدتكم من الحمام تحسين صحتها العمومية حيث ليس والحند لله سبب موجب غير ما تهدوه.

---

(١) يشير بذلك إلى جهله باللغات الأوروبية.

(٢) ينابيع معدنية بالقرب من حلب.

من ضعفها العمومي.

أنا ما زلت بدون مصلحة في حلب ومسألة الريجي لم تنته[1] فربما بعد ٣٠ إلى ٤٠ يوماً أحضر للاستانة والله يحفظكم.

٢٦ ذي الحجة سنة ٣١٤

والدكم

عبد الرحمن

حاشية: بلغوا تحياتنا لعمكم الحاج أحمد أفندي وكاتبه جرجي أفندي إذا واجهتم جميل أفندي بلغوه سلامنا وقولوا له أرسلنا له مكتوبين الواحد بخصوص قوناق[2] قدري بك القدسي والثاني مكتوب بشائر. والأول مضى على إرساله وقت طويل ما أخذت جوابه فبقي فكرنا من جهة وصوله أو عدم وصوله.

---

(١) يشير بذلك إلى توليه إدارة حصر الدخان.

(٢) دار.

ولدنا الاكرم حرسه الله تعالى

في المدة الماضية ما ارسلنا لكم مكتوب لاجل ترتيب مكاتيبنا كل خمسة بحث يعلم واحد. وصلنا منكم مكتوبين في الاول منهما مكتوب منكم للكاظم تذكرون فيه انكم استاذنتم منا بخصوص حضوركم لحابب مدة العطلة والحال في مكتوبكم الاول لنا لم تبحثوا عن ذلك انما ذكرتم في المكتوب الذي قبله ما يفيد ترددكم في الحضور ام عدمه ونحن جاوبناكم بتفويض المادة لرايكم والان نعيد ذلك بين رايكم ان احببتم تحضروا الى الناس وان اردتم تبقوا هناك مع مديرتكم لا باس واما كون المعلمين تفرقوا واكثرهم ساخرج الى جهة مصايف الاسوينيا والدروس معطلة فهذه العطلة طبيعية انما اذا بقيتم هناك يمكنكم ان تصرفوا اوقاتكم بمطالعة كتب بزنجيا بسنة وحفظ دروسها والمعلم كافيه وافيه للاتقان والاستعداد لطالب الامتحان حيث كنتم مصدرين وعازمين عليه ولكم امل الذي يجيبوكم لطالب الامتحان وعلى فحصه ان ما اجابوكم لذلك فنكون نو تعلمتم دروس السنة الاولى تم في اثنائها مع تكرار دروسها يمكنكم تطالعوا دروس الينجي سنة وبهذه الصورة تكسبوا في الامتحانات دائما الاولية وفي ذلك حزبه قساوية هذه اللاكبر وتعطيكم فخ لاتقان الفرنساوية ام العربي ام احد الفنون الطيبة التي تحبوا ان تكسبوا فيها اختصاص مثلا تحبوا ان تدرسوا في اتقان فنه الجراحه او امراض العين او

لل

الامراض الدماغية بحيث تستحضر من الخارج بعض الكتب الخاصة بهذا الفرع
الذي تميلوا لان تتميزوا به كما يفعل الاطباء الاوروبا وبذلك فتكسبوا بها شهرة
الانفراد والاختصاص وتصيروا مرجع للجميع فان هذا الفرع مثل جميل يا باشا الجراحة
عندكم ومثل بعض المعلمين في المكتب الذين تخصصوا بتدريس الفن الذي تميزوا
فيه على غيرهم وهكذا تميز ان جانب جدا يساوي لكل سنة واذا عرف به
التلامذة فيسهل عليه ان يطلب عند اخذه الدبلوما ان يرسلوه الى اوروبا لاجل
الكمال اتقانه هذا الفن الخاص على نفقة الحكومة او على نفقة ذاته وفي اوروبا
لكل فن وفرع مدارس مخصصة ومعلمين متمايزين وجرائد وكتب خاصة وللاطبا
لاسيما الاغنياء والاكابر يتوجهون للاطباء الحكماء المشهورين بحذاقتهم في هذا الفن
ولا يعتمدون على الاطباء العموميين والمعلوم ان سنين الدرس في المكتب
الطبي هي اكثر من اللازم بحيث يمكن للتلميذ المجد الذي يحرص على عدم اضاعة
الوقت ان يتعلم مع دروس المكتب فنونا وعلوما اخرى مثلا يمكنه ان ينتسب لفن
مخصوص كما ذكرنا ويمكنه ايضا ان يتقن فن الانشا والكتابة ويتقن الفرنساوي
ثم بعد الفرنساوي يمكنه ان يتقدم بتعلم الانكليزية بسهولة وتعلم الانكليزية
من ذوي اهمية عظيمة من جهة اقتباس المعارف الانكليزية ومن جهة السياسة ايضا
والخلاصة ان الانسان هو الذي يتعلم والمكتب والمعلمين ما هم الا وسائل
للتعليم والترجيح فاستعدادكم الشخصي ومكتبكم وسعة وقتكم يمكنكم من
تحصيل كل ما ترغبون تحصيله انما يلزمكم تخصيص الوقت والجد وان لا
تضيعوا الوقت في التردد وان لا تضيعوا شيئا ابدا تم فيه قبل اتقانه

بالملل منه ولا تنتقل الى غيره بل تلازمه حتى تقضوه فانه مؤلف روعي فيه

متقن للكتب النحوية وافضل من مؤلف فى حشيه كلما تأليفات عادية

ويحذر ان الاوضعه لك ان تجعل نصب عينيك وتوجه تصميمك وعزيمتك

على اتباع الخطة الاتية وهى (١) اتقانه دروسك الثانوية (٢) جعل

تفكيرك فى مطالعة الكتب العربية كتابا بعد كتاب مطالعة فهم وتدقيق مثلا

كتاب فقه ثم كتاب تفسير ثم كتاب حديث ثم كتاب ادبيات ونحو ذلك فبهذا

الطريق تحصل على معلومات كافية فى لغتك ودينك وهذه مزية تمتاز

بها على سائر اقرانك وهى ذاتها قيمة عظيمة بالنسبة الى طبيب مسلم عربى

(٣) تخصص لك وقتا ولو مقدار نصف ساعة فى اليوم لاتقان الفرنساوية

ثم بعد تحصيل درجة الكفاية للفهم تشترك فى بعض الجرائد العلمية الفرنساوية

فتكون لك عونا فى فنك (٤) بعد اتقان الفرنساوية لدرجة تبدأ تتعلم

الانكليزية فى النصف ساعة التى كانت مخصصة للفرنساوية (٥) تتخذ لك

دفتر مسودات تحرر فيه بعض كتابات فى نصف ساعة تخصصها كذلك

وتكون هذه الكتابات فى مواضيع شتى تارة بالتركية وتارة بالعربية

ولا يصعب عليك ان تكاتب تارة بالفرنساوية ايضا فبهذه العملية تكتسب

اتقان اللغات الثلاث كما تستفيد الرسوخ فى المواضيع

التى تكتبها انما ينبغى ان لا تكون مرحلة ما تكتب مواضيع سياسية

وبهذا المسلك تتعود على التأليف الذى هو اشرف وانفع صنعة

وقد طولنا هذا البحث والذى دعانا اليه انك تستفيد منه لترتيب

ملككم فلا تضيعوا استعدادكم وأوقاتكم لآخرتكم معي واصحبتنا دماً فيه
حيث لا ينفع الندم وارجو المولى تعالى أن يوفقكم ويرشدكم لما فيه خيركم
في الدنيا وفي الآخرة واختم نصيحتي لكم بأنه لا تتركوا جانب الله فتقطعوا
عن الصلوات ولا تلتفتوا لحالة حياة الطبيعة واعتقادات الطبيعيين فإنه أسعد
الناس في حياة المعيشة الدنيوية هم المتدينون وأهل الدنيا وقد في الكفر
يحسدون المتدينين حقيقة ويحبونهم ويعتمدون عليهم لأنه المتهاونون في دينهم
لا مسلك لهم قطعيا فلا أحد يثق فيهم وهم يعلمون ذلك من أنفسهم
وعندكم لاحظوا ووالدتكم توجهوا إلى جهة الشيخ عيسى [29 ذي الحجة ومعهم أمورهم
الجلبية لأجل الخدمة ومعهم رفقاء كثيرين والأمل بالله تعالى أن تستفيد
والدتكم من الجهة تحسين صحتها العمومية حيث ليس والحمد لله سبب
موجب غير ما تعهدونه من ضعفها العمومي . أنا جاز [illegible] بعد له
مصلحة في حلب ومسألة الرزق لم تنته فربما بعد شيء قليل أرجع
للآستانة والله تعالى يحفظكم

26 ذي الحجة

والدكم

بالعربيات نعلم اجاج احمد افندي وكاتبه

جرجي افندي

أرد وأعلم جميل افندي بلطف بإرسالها وفرنو دار السلام

والدنيوية الراحة بخطوطي فرناحه فرنو بك المغتسل الآن

بالنعيم وإرسال الورود معهن على الولاد وحفظ طول

لا أعرفه جيداً . فحص ظهر [illegible]

آخر صحيح وصول

پولیس احمد صبری

بکنده ده ایتالیا قونسلاتوسی عقبنده فاملیاسیله برابر بولونمی حالده بیطاقم مجهول

احوال کسانه طرفلرندن حالنده قاتل بتدریج تحصیل تبدیل جامه ایله متجاسرلرینه

تحرکسیله مشتبهلرین کیم ایسه ارریست ایتدیکلری مزدعه نوامرکز پولیسی

ترجیس ... تماسیچلو ورقه محمد افندی فؤادی بو موجب

ترجیسلکه حرفنده ۱۳۱۹ سنه‌سنده

اخطار تجاسرلرینه تجسس حسنده گوندر تبدیل جامه ایدرکه جلالم واقف محلاته

کیدیم او ایراره کست وکذا انجکده ایکه جیب زماده محلسنده ودکرمنجی

احصافنده محمدیه صفالریله بکنده حالیله محلسنده پس کلدیکم مرقوملر اولنقم اولمغه

مناسبتیله بزده ... کتدیکمی حدودلرنده حالده مذکوره دائر تحقیقاته کیتدیکمی

کندوسی سویلدکده شو جملهلر افاده‌سن بکا سویلدی وقوعات کوبده مرقوملر دکلسه‌ایتی

اولمغه مناسبتیله بابنه تسریعیله فروختی اولادی ... ادیلوب یعنی جیلیه یاره‌سن

اولمغه کیدر ایکه کوال عبدالرحمن افندی اداره سبیله ... تمام موقعیده پس

کلدیکت اوجیبیت جملهسه یابنه موقعلی عبدالرحمن افندی نفصاً یا انقت

بیدیکت ... حمده ... شولرده تجسسه دیجه کیدیه کیدیکی جامه ... دیوسویلدی

جبهجبوقد برطرفه عبدالصمد افندی رحمی ساولشوب حانه کیدیکی جملهسنده

رفیقلری اداره ایدیکلرینه نظراً اسکرده افندی یوغر محلسنده عبدالله نام قسم پاره

جان ذاتده غاتریله یانده تصادف ایتدیم اوکجهلرده مدابیرم اولیوب

ویلدیس دعا اوجاقلر جوجوقلری ایله تورشیب راجیان ارزنی بیلدیکم ایچون
وکلدوس دعا اوجاقلر جوجوقلری ایله تجار خانه غاردیان محفوظ مبادرت
اولدیغنی بواپش کندیسنده مشهور رسم تجار خانه غاردیان محفوظ
علی ایله اولدیغنی اولدیغنی ویکوند جیلدیم محلسنده کیجه‌ی یانه ایکیه [illegible]
انسی کوکا هلیلم محله مختاری ابوجیدوع ایله شولرلرنی سولسه فکره اماده ایدر
انلره عده بر مشدید الهمه جوجوقدل محافظه‌سی [illegible] اتسکدر ویدیکده موقراینه
مختاره فضا یا سیاسی ایش اسکیتی دیه ایکی سولدی حوضوحلسنده علی یه حسیه
لازقانی دفن بابچی الیب ادرارله [illegible] بویدیغی وطوبلاشدیغنی یدیکم آکنونه
اطیره ده باپه قسریه محله جوارنه مرقوم علی تا کوندیب بورالرده جکز بتونیله
قدمی بولیاشی تدر ویدیکده بوالیشه ذاکربکا بر معلومات الورمی دیه سولدیکده
ایا رلینه کواکن زاده عبدالله افندیده حمدیدی معلومات تفصیلاسیه [illegible]
کندیدر رجا ایدیم عده‌لر عده‌لر اوخده‌سنه حیاطنده قاشدقدری کندی تحلیده
ایکه عبدالرحمه افندیله اتاره اتمکده اولدقلری اشقصه نولدیغنی سویلم ده بیده ده زیله
ادلی دقی برتبه جیلدیم بسعت اوچ تحیسا ایکی تکسه زردانه
تحابه نسینه [illegible] ادنله خانه تسندیکی
ایریکلدم یزه کتبه‌یکی مهور رسم عثمانه مشاوی اشتباسی ایرلیجی
سویدیکده بوایشی تحقیقه ایتله ارزیه تشبثاتی کندی سویدیکده معلوماتی بوقدر
کیدیب دوله بیلدیب تیکار مشورت ایدیب ایکیه افندیسنده برقاچ جیاپلوده جیلدیم

تو شمشك اوتوريني كوره بن كندوسي ايله دوام ايتمه‌مز قبل [illegible] عبد الله
افندي كوروب تا سبقلينه [illegible] بنده شكايته ايديرنه بابلم
ديه كمدم عبد الله افندي [illegible] نام كمسنه ايله [illegible]
انمه اولديغي سويلدي واجتماعه محلنده [illegible] سكسوني نام كمسنه [illegible]
معاملاته اولديغي وعند الايجاب كلوب ابلاغ ايده جكني سويلديكن بركز [illegible]
طشره كتديكنه اطلاع ايله رساله ده ذكر اولنان محذورات افاده ايدرز ديش قدر
[illegible] وارنه حوب ايدرلر ادرزه [illegible] سايكلو [illegible]
احوال حقنده [illegible] تحقيق ايتدم هروقت مناسبته واقف
نسته [illegible] بيننده جيجو قدر سياسي [illegible] ديدم حكمته عائده
بعدين [illegible] سويلديكم الطف معلوماتي ويردم
ويه نده [illegible] معلوماتي اولديغي سياسته [illegible] باشقه
[illegible] قدر اسمندي بلجوارم جيبك يوزنده خاشي [illegible]
[illegible] عبد الله [illegible] سواله اسمري [illegible] وقلعة عائده بيلديغم
[illegible] تشويقات [illegible] مكتسبلر [illegible]

[illegible]

تقرير البوليس أحمد صبري
المرفوع لمفوض البوليس عطا بك
في شأن عبد الرحمن الكواكبي

بناء على تعليمات مفوضية الشرطة المركزية المؤرخ في ١٩ نيسان ١٣٠٨ بالتحري عن الأشخاص الذين تجاسروا وقاموا قبل بضعة أيام برشق عربة قنصل إيتالية بالحجارة بينما كان مع زوجته، وذلك مع التخفي وتغيير لباسي ثم توقيف القائمين على هذه الأعمال والمسببين والدافعين عليها، وبناء على هذه التعليمات قمت بهذا بعد تغيير لباسي بالتجول في مختلف أحياء حلب، فالتقيت في محلة «الجلوم» بالمدعو «محمد بن الحاج بكري» من أهالي محلة «جب قرمان» الذي هو من صنف «الطحانين»، وبناء على معرفتي له سألني عن وجهتي فقلت له إنني أقوم بالتحقيق فقال لي: يوم وقوع الحادث وبما أنني طحان فقد ذهبت إلى «باب قنسرين» لمقابلة أولاد «سيجري» لمحاسبتهم بثمن الطحين الذي بعته لهم ولأخذ الأجرة منهم، فالتقيت في الطريق في موقع «السبيل الأشقر» بعبد الرحمن أفندي المذكور فحضر في ذلك الوقت ثلاثة أو أربعة شباب وقالوا لعبد الرحمن أفندي المشار إليه: لقد قمنا برشق الحجارة على العربات كما قلت لنا. فقال لهم: إذهبوا إذهبوا ولا تقفوا هنا. فذهب الشباب كل في جهة وعبد الرحمن أفندي في جهة أخرى. وفي اليوم التالي التقيت بالمدعو «عبد الغني» بالقرب من دار «جلبي زاده» في محلة «ألتونبوغا» الذي أعرفه وأعرف أنه يتحادث مع الشباب الذين هم أصدقاؤه وسألته عن الحادث وعن الذين يقذفون الحجارة على العربات فقال: إنه بينما كان مع «عليّ» الذي هو أخو «محمود» حارس المتجر يتحادثان في محلة «الجلوم» جاء عبد

الرحمن أفندي الكواكبي وتكلم مع المدعو «أبو جدوع» مختار محل «الجلوم» وقال له: «إن المحافظة على الشباب الذين يقذفون العربات بالحجارة يقع على عاتقك أنت والآن اذهبوا إلى أشغالكم». وبعد بضعة أيام ذهبت إلى محلة «الضوضو» وهناك رأيت «علي بن حسين اللاذقاني» الذي يعمل في الكرم وأعلم أنه يتجول في تلك المناطق وله علم بما يجري ولما سألته قال: إن عبد الرحمن أفندي الكواكبي هو الذي يحرض الشباب وهذا ما تريد أنت التحقق منه. وأضاف أنه سمع ذلك وإن عبد الرحمن أفندي المشار إليه يحرض الشباب ويطلب منهم رشق العربات بالحجارة. وطلبت منه تفصيلات فقال إنه سمع ذلك. وبينما كنت في «زقاق النخلة» التقيت صدفة بالمدعو «محمد بم مصطفى أدلبي» في الساعة الثانية والنصف ليلاً تقريباً في محلة «الجلوم» وسألته إلى أين هو ذاهب في هذه الساعة ليلاً فقال إنه ذاهب إلى دار قريبه «عثمان حناوي» فطلبت منه أن يحقق في هذا الموضوع بالتفصيل، وأرسلته عدة مرات للتحقيق فقال: إن بعض الشباب من محلة «الجلوم» الذين اجتمعوا به قالوا له إن عبد الرحمن أفندي الكواكبي هو الذي طلب منهم رشق العربات بالحجارة فإذا اشتكوا عليهم فماذا يفعلون؟ فقال لهم عبد الرحمن أفندي جواباً على سؤالهم: ثابروا على أعمالكم. كما رأيت «محي الدين كسكسوني» فسألته فقال لي إنه يعلم ذلك وعند اللزوم سيحضر لإعطاء إفادته، إلا أنه لم يحضر. ثم علمت بعد مدة أنه ذهب إلى الخارج ولم يعد حتى الآن. هذه هي إفادة المخبرين المذكورين. وقد قدمت تقريراً يومياً (جورنال) بذلك في ٢٧ نيسان ١٣٠٨ بنتيجة تحقيقي في أحوال عبد الرحمن أفندي وهو يقوم بأعمال وأفعال غير نظامية ويدفع شباب الحارة إلى رشق الحجارة ويتستر عليهم ويتفوه ببعض الكلام ضد الحكومة ويذكر ما يقوله في جريدة. وإني بحسب الوظيفة قدمت هذا التقرير ذاكراً ما يقال وليس لي علم بما يزيد عن هذا، ولا أعلم أسماء الشباب، ففي مدينة حلب مئات الألوف من البشر منهم الحشاشون والسفهاء. وذلك كل ما أعرفه عن عبد الرحمن أفندي المومى إليه الذي يحرض الشباب ويتكلم ضد الحكومة ولا أعلم سوى ذلك.

أعرض ذلك

٢١ شوال ١٣١٠/ ٦ مايس ١٣٠٨

بوليس أحمد صبري

كوكلى نزوم عبد الرحمن افندى اكثرى احضار اختلاط ايدوب خفيجه كوريشيب

وزير خانى جوارنده برخانده كنديسنه مركز ايدوب اعوان والمواريله بولوشه

شخصًا تونشى كنديلرى رأى العين مشاهده اولدقلرى كبى كوكنده م حكومت سنه ايله

مقصده مشى اختلال ايدرجسنه بر جوقده افساد ايتدكلرى تدارك ايتدكلرى

وموقع اجراكارنه دلالت ايدرند اوكى انتخاب ايدوب اختلال سبيبى ويره جكلر

ديمسه اولدقلرنده اه وكيله شيخ نايجيلى ژوزيانده بيان ايتمش

اعوان والمواري جلب اوله قسمدن بر جوقده اعدام ايتديلر ونايب دوكانده

شيخ نايب ايله مشترك اختلال ايدرجسنه

كه الجمله تقديم ببيب ويره جكلر اختلال تدبير حاضر ايتدكلرى

تقديم ايدرلر

وزير خانى جوارنده اتخاذ ايتدكى خانه كندى بيانه بر جوقده اعوان والمواري

مجلوق كيدركيلر بوادمدن اعوان واطرافنى وكنديلرى

ديمسه اولدقلرنده وزيانده بيانه ايدرايدم نياد عليه بكبر اولدقلرى

الى عبد الرحمن افندى افساد ايتده بولنديغى بر جوقده خلقك لسانه ايشيتدم

وكيلدن ايشيتديكمى ربط ايده مديكم كبى بولنديغى افساداته

اولدقلرى اكلامه مديكم ايده مم نزيه ايتدم خلقك لسانه

ايشتديكم اوزرينه ايدردم ملاحظه ايله

بوشيب بولنديغى تحقيقه اولنمه حسب الوظيفه مذكور شيوعاتى

ايلته

٢١ ...

بنده معلومات

كتاب مفوض البوليس عطا بك إلى البوليس أحمد صبري بشأن تقريره في ٢٥ نيسان ١٣٠٨.

ذكرتم في التقرير المقدم من قبلكم بتاريخ ٢٥ نيسان ١٣٠٨ أن عبد الرحمن أفندي كواكبي زاده يختلط مع بعض الأجانب وأنه يتخذ لنفسه مركزاً بالقرب من خان الوزير ويجتمع هناك مع بعض الأشخاص من ذوي الأحوال والأطوار المجهولة ويتحادث معهم وأنكم شاهدتم ذلك رؤيا العين وأنه شائع ومتواتر بين الناس أن عبد الرحمن أفندي هذا يقوم بالفساد لدرجة أنه يخشى قيام ثورة تهدد أمن وسلامة الدولة العلية وأنه من المجهول لديكم أسماء وهويات هؤلاء الأشخاص الذين يقومون بذلك وأنه في حال عدم اتخاذ التدابير للحيلولة دون تحركات المذكور والفساد الذي ينشره يخشى من قيام ثورة. فإذا كانت هذه الحركات تصل إلى درجة قيام ثورة أوضحوا وفصلوا ذلك.

مفوض البوليس عطا بك

جواب البوليس أحمد صبري:

لو كانت أسماء وهويات الأشخاص مجهولي الأحوال والأطوار الذين يقوم عبد الرحمن أفندي كواكبي زاده المذكور بالاجتماع معهم في الدار التي اتخذها مركزاً له بالقرب من خان الوزير لكنت بينت ذلك وأوضحته في التقرير اليومي (جورنال) المقدم من قبلي. إلا أنني لا أعرفهم بل سمعت ذلك من أناس كثيرين. وإني لا أتذكر أسماء الأشخاص الذين سمعت منهم ذلك. كما أنني لا أعلم لأية درجة وصلت إفسادات المشار إليه عبد الرحمن أفندي كواكبي زاده. وقدمت تقريري للتحقيق لمعرفة ما إذا كان المذكور يقوم فعلاً بالفساد ولا يوجد لدي شيء آخر أضيفه.

٢١ شوال ١٣١٠ ـ ٦ مايس ١٣٠٨

بوليس أحمد صبري

حالا حلبده محبوس ساکن اولان عبدالحمید افندی اکرادك احوال حاضره‌سی دکلدر ایله اختلاط ایدوب جمعیت کوسترمکی

بالحقیقه یاپیله اولسه حضرتلری [illegible] شیخ تابعلری [illegible] افاضل اولنانه تدارک وزرا [illegible] ایله احوال خفیه

دخی تحقیق اولندقده اکثری اجنبی بیلا اثر اختلاط ایدوب خفیجه کورشوب دورنده جوارنده بولنانه رجال [illegible]

کندوسنه حرکت ایدوب احوال و اطوار ریه مجهول برجوقه شیخلر کلوب قونوشوب کیتدکلری رای العین مشاهده اولندیغی کبی

بو کونلرده حکومت سنیه [illegible] حاضره‌سی [illegible] برجوقه فساد اولنده بولندیغی مملکت ایچنده

تواترا سویلنور [illegible] اشبو حرکات نالایقه‌لری اوکی افراد خدانکرده ایدوده بیوك بر

اختلال سببیت [illegible] ادرنه نقلی [illegible] امکان ثمره اولمغله کیتمبلا قبل الوقوع [illegible] جلد

نفه نقدنه اولدیغی حریتلو [illegible] نقدیم قلنه [illegible] حسابه شی

بواطن شیخ
باب العرب

حبه جلفلر محله سی اهالیسندن عبدالرحمن افندی کولکنده اموال حاضره سنی دکیلدن ابلاغ اختلالده خفی کورشیدکی

بالحقیقه افاده اولنمش اولمغله [illegible] تاریخلو بیانلهنده تذکره لرینه موجبنجه اموال خفی وجهله تحقیقه اولندقده

برمدتدر بوزباشته [illegible] طاقم سیاکخص و خصیلتری [illegible] ایدوب حکومت علیه یه [illegible] اساس اختلال ایدر صورتده

[illegible] بر حکمی نشر ایده اندیر دیکر عموم اهالی بینی تواترا سویلدیکی کی کنده اشبا لرینه قوتسلاری مناسبیله

[illegible] رکیبا کرمکده کیدوب [illegible] قبوسی [illegible] اشنا سنده موجبالده عبدالرحمن

افندی نشر [illegible] ادلدیغی برطاقم [illegible] احوالی طرفندن [illegible] حقارتدن

بولندقلری اثنا [illegible] علی لورقانی [illegible] حسب ترجمانه محکمه محمد بک [illegible]

بکن [illegible] عبدالغنی [illegible] اولندقده رقوعاتی اشبو وقائع

افساد [illegible] سیاسی اولمانی اکثرا ایدوده اختلال ظهورا [illegible] اوشاند مخبر [illegible] افاده

زمنده ذکر ایدیلان تحقیقات تحقیقاتسنده الحلاشه اولنمغله ۲۷ [illegible]

[illegible]

ماه حال بیك یکرمی سکزنجی صالی کونی ساعت دقوزده بزم رزم حیدر حلیم حنفا محله‌سنده ساکن کوالکی زاده

عبدالرحمن افندی خانه‌سنه پولیس قومیسری توفیق بك ونده رم ملازمی علی رضا آغا و پولیس رضا افندی و محله مختاری

محمد نوری واوشاق افندی مومی الیه محمد دیمی کاظم بك بولنمدیغی حالده اوطه‌سنده خانه‌یه کیرلوب تحریات اجرا

بالاجرا خارجده امینده اوراقده بیچه برمسه بوابجه دفتر اوله‌رق حاضر بولنان اسلحه محمد دیمی کاظم افندی طرفندن

تحریر ایلنمیا حکومته کتورلمسی اولنمقده اشبو بر قطعه ضبط ورقه‌سی تنظیم وتقدیم قلندی [illegible]

پولیس قومیسری وکیلی محمد توفیق	ژاندارمه ملازمی علی رضا	پولیس محمد رضا	مختار محمد [illegible]	ژاندارمه [illegible] علی	امینی مومی الیه محمد دیمی کاظم	طلبکار محکمه‌سنده سید محمد حمدی

محکمهٔ تمییز

٢٥٠

حلب ولایتی استیناف محکمه‌سی مدعی عمومیلکنه

عزتلو

افندم

اوراق مرفوقه ترتیب و انفاذ قلنمشدر دعوا ساره ده طوبال جنایتدن متهم بولنان کوراکچی زاده عبدالرحمن افندی حقنده‌کی

دعوانک مرور زمان وقوعی استدعاسنه بیروت ولایتی استیناف محکمه‌سی جزا دائره‌سنه نقضاً دائر محکمه‌ڭز استدعا دائره

ویریلن ٢٧ محرم ٣٢١ تاریخلی اعلام ایله مفترقاً جنایت ارتکابنه دائر حسب هیئت اتهام سنده تنظیم اولنان مضبطه نامفقود

حاوی مدعی ایله وبر ویکی استدعانامه‌نک ردّی مقتضی بولنان ٤ محرم ٣٢١ تاریخلی محکمه‌ڭز ایرادیله اعلامیله

برلشه بریدن اجرای ایجابنه همت ویدیه استیناف مدعی عمومیلکنه کوندریلمه اولدیغنی نقض و حوادثه دائر بولنان اعلامله

برقطعه حوادث معلوماته اوقمه اوده نقانی ایالت قلعه‌سی اوقمه اکا کوره اقتضاسنک اجراسی بیانیله تذکره ترقیم قلنمشدر

١٧ صفر ٣٢١

عدلیه ناظری

وزير العدل

الخاتم

محكمة تمييز

باش مدعي عموميلكينه

حلب ولايتي استئنف محكمسي مدعيعموميلكينه

عزتلو أفندم

أوراق مضرة وانتشار ندن ومواد سائردن طلابي جنايتيله متهم بولنان كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي حقندكي دعوانك مرقومك ووقوع استدعاسنه مبني بيروت ولايتي استئناف محكمسي جزا دائرة سنه نقلنه دائر محكمة تمييز استدعاء دائره سندن ويريلان ٢٣ محرم ١٣١٠ تاريخلي إعلام إيله متفر عاتي جنايتله اتهامنه دائر حلب هيئت اتهاميه سندن تنظيم أولنان مضبطه نكمقبوضني حاوي مومى اليهك ويرديكي استدعانامه نك رديني متضمن بولنان ٤ محرم ١٣١٠ تاريخلي محكمه مشار اليها مدعي عموميلكنه كوندرلمش أولديغي كبي نقل دعوايه دائر بولنان اعلامك بر قطعة صورتي معلومات أولمق أوزره لقاء إرسال قلنمش اولمقله اكاكوره اقتضا سنك اجراسي سبا قندهه شقه. مخلص ترقيم قلندي أفندم.

عدلية ناظري

خاتم شخصي

وبظهر الورقة: بعد القيد يحفظ مع الإعلام. ولما كان عبد الرحمن أفندي المشارؤ إليه طلب بالبرقية من النيابة العامة المرسلة من بروت تم إعلام السجن والضابطة لإرسال المذكور محفوظاً.

ترجمة

النيابة العامة الرئيسية
لمحكمة التمييز

إلى النيابة العامة لدى محكمة الاستئناف في ولاية حلب

سيدي صاحب العزة

بناء على الاستدعاء المقدم من قبل عبد الرحمن أفندي الكواكبي المتهم بجناية ترتيب ونشر أوراق مضرة وغيرها بموجب الضبط المنظم من قبل الهيئة الإتهامية بحلب نقدم طيه صورة الإعلام الصادر من دائرة الاستدعاء لمحكمة التمييز بتاريخ ٢٢ محرم ١٣١٠ مع تفرعاته والقاضي بنقل الدعوى إلى محكمة استئناف الجزاء في ولاية بيروت وذلك جواباً للاستدعاء المشار إليه مع ربطه ببقية الأوراق لإجراء المقتضى كما يلزم. لذا تم تحرير هذه المذكرة.

في ٢ صفر ١٣١٠ و ١٢ آب ١٣٠٨

وزير العدلية

صح

ترجمة عربية مطابقة للأصل التركي المحرر بالأحرف العربية.

محاكمة الكواكبي الإستئنافية
أمام المحكمة الجنائية ببيروت

(نقلاً عن عبد المسيح الأنطاكي في العدد الخامس من جريدة القاهرة بتاريخ حزيران ـ يونيه ـ ١٩٠٣ المكتشفة بمساعي الكاتبة الإندنوسية نور ليلى عدنان في مكتبة قلعة المقطّم بالقاهرة).

«. . . ثم نُقِلَ الكواكبي من سجن حلب إلى بيروت بعد أن قُبِلَ طلبه بالمحاكمة هناك. ورفض تعيين محامٍ وإنما دافع عن نفسه باللغة التركية فكان مما قاله في هذه المرافعة ما ترجمته:

«وما قضيتي اليوم إلا مظلمة كبرى أراد بها الظالمون أن ينتقموا منّي باسم القانون. فإنكم قرأتم ـ يا قضاة العدل ـ في الساعة الأولى الأوراق التي أرسلت من عدلية حلب وبموجبها حكمت المحكمة عليّ بالإعدام. وأنا ـ كمظلوم بينه وبين الموت كلمة من فم القضاة الذين أنا ماثل أمامهم ـ لا يسعني إلا أن أفصح عن كل شيء وأقول كل شيء كاعتراف أمام الله وأمامكم بما ظهر واستتر من هذه القضية السوداء:

إن البلاء قد اكتنفني من قَبْل الآن، وكان مصدره السيد أبو الهدى أفندي الذي اغتصب نقابة أشراف حلب من أسرتي، ولأني أطالبه بحقوقي، ولم أسكت عنها، متظاهراً أكثر من مرة في مقاومتي ومعارضته أعمالي وأشغالي إلى أن أعياه الأمر فرماني بهذه التهلكة بواسطة عارف باشا الذي هو من جملة صنائعه. ولمّا لم يجد عليّ علّة لأنني قضيت زهرة العمر في خدمة دولتي وأمتي وسلطاني افترى عليّ افتراءً بهذه الورقة

الصغيرة التي قالوا إنهم وجدوها بين أوراق أولادي، وكلها ـ كما ترون ـ أوراق مكتبية لتعليم الأولاد الكتابة...» (ثم يقول:)

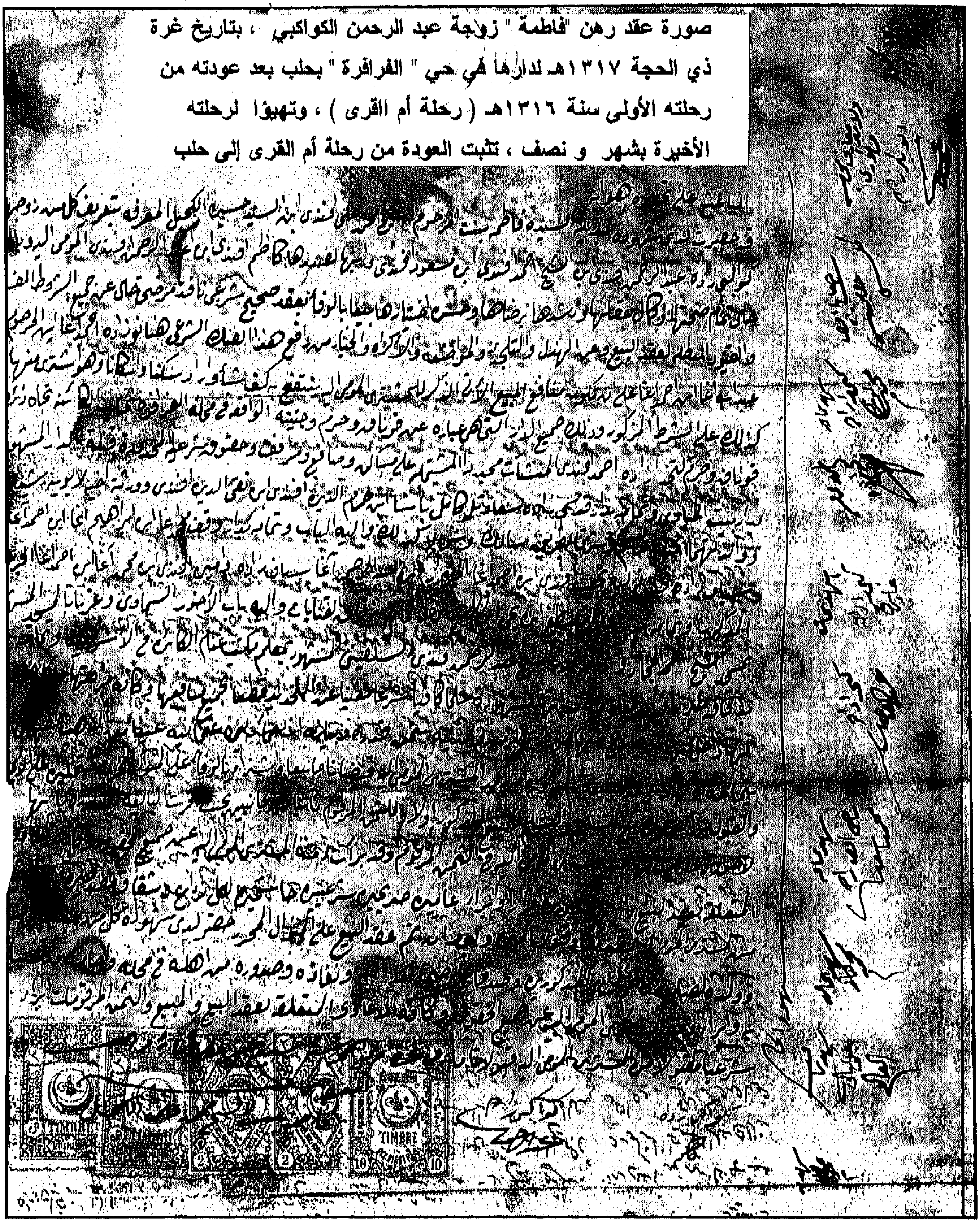
فلما سلّمنا بوجود ورقة كهذه فإني كنت بلا شك أخفيها مع ما أخفيته من الأوراق غيرها فضلاً عن أن وُرَيْقة كهذه سياسية نتيجتها الحكم بالإعدام يستحيل أن أتغافل عنها لتكون مع أولادي».

يتابع الأنطاكي:

«وبعد مرافعة طويلة يطلب إجراء المطابقة بين خطّ هذه الورقة وخطّه الحقيقي...

وأدت مرافعة الكواكبي إلى إقناع المحكمة فأُجّلت القضية حتى إحضار الشهود وفحص الخط في الورقة التي دسّوها للكواكبي. وقد حاول عارف باشا أن يفوّت على الكواكبي الفرصة، فسرّح جنود البوليس الذين كانوا مطلوبين للشهادة حتى لا يصلهم إخطار محكمة بيروت. فلمّا بلغ الكواكبي ذلك من أصدقائه طلب إليهم أن يغروا الجُنْدَ بالمال ويتحمّلوا نفقات سفرهم حتى يصلوا إلى بيروت.

وبعد أربعة أشهر عقدت المحكمة جلسة لسماع الشهود الذين اعترفوا بأنهم لم يجدوا أي ورق سياسي عند التفتيش. وفي الوقت نفسه جاء تقرير لجنة المعاينة بعدم وجود ما يخالف قوانين الدولة في أوراق الكواكبي، وإن الورقة التي زعموا أنها بخطه هي تقليد ولكن ليست بخطه حقيقة. وهكذا تمّ الحكم ببراءة الكواكبي وأُفرِجَ عنه بعد أن قضى ثمانية أشهر في سجن بيروت».



صورة عقد رهن "فاطمة" زوجة عبد الرحمن الكواكبي ، بتاريخ غرة ذي الحجة ١٣١٧هـ لدارها في حي " الفرافرة " بحلب بعد عودته من رحلته الأولى سنة ١٣١٦هـ (رحلة أم القرى) ، وتهيؤا لرحلته الأخيرة بشهر و نصف ، تثبت العودة من رحلة أم القرى إلى حلب

ام القرى

«اى ضبط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية»

« المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ »

« تاليف الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي »



هذا هو الاستاذ رب الفضل من * فقدت به الكتاب أعظم كاتب

أبدى لنا من معجزات بيانه * شمساً تلالت من يمين كواكبي

al-Kawākibī, ʿAbd al-Raḥmān

Tarjameh-yi Ṭabāʾiʿ al-istibdād

بسم الله تعالی   برای منیر خردمندان روشن ضمیر مخفی
ومستور نیست نسخهٔ شریفه (طبایع الاستبداد) که از کتب نفیسه
مفیده میباشد در آگاه ساختن ملت و برانگیختن ایشان از خواب
جهل و غفلت و استعداد ترقی و تربیت بهترین تالیفات قدیمه
و جدیده است بلکه توان گفت در این باب تاکنون باین متانی
تالیف نشده زیرا که آن اسم خویش را مخفی داشته ولی
مطالب آن دلالت دارد که زادهٔ فکرت فاضلی نامدار
و عالمی عالیمقدار میباشد الا اینکه چون بزبان عرب تألیف
شده افاضل فارسی زبان از فواید آن بی بهره بودند بنا علیهذا
این بنده بیمقدار عبد الحسین مترجم امتثالا لامر مطاع بترجمهٔ آن
بزبان فارسی اقدام نمود تا فایدهٔ آن عام گردیده خواص و عوام
از آن بهره برند والله الموفق والمعین فی شهر شعبان سنه ۱۳۲۵

حق طبع محفوظ است

بسم الله تعالى

لا يخفى على الرأي المنير للعقلاء ذوي الضمير الحي بأن الطبعة الموقرة من «طبائع الاستبداد» هي من الكتب النفيسة والمفيدة في مجال توعية الشعب وإيقاظه من نوم الجهل والغفلة وخلق استعداد الرقي والتربية وبذلك فهو من أفضل المؤلفات القديمة والحديثة، بل ويمكن القول في هذا المجال إنه لم يؤلف كتاب مثله حتى الآن. ومع أن المؤلف قد أخفى اسمه إلا أن المواضيع تدل على كونها وليدة فكر ناضج شهير وعالم قدير. وبما أنه مؤلف باللغة العربية والفضلاء الفرس محرومون من الاستفادة من مواضيعه، لذا، فأنا العبد الفقير عبد الحسين المترجم، واستجابة للأوامر الصادرة، قمت بترجمته إلى اللغة الفارسية لتعميم الفائدة للعوام والخواص والله الموفق والمعين. في شهر شعبان سنة ١٣٢٥.

حقوق الطبع محفوظة

خاتم وتوقيع

الخاتم: مكتبة علمية إسلامية

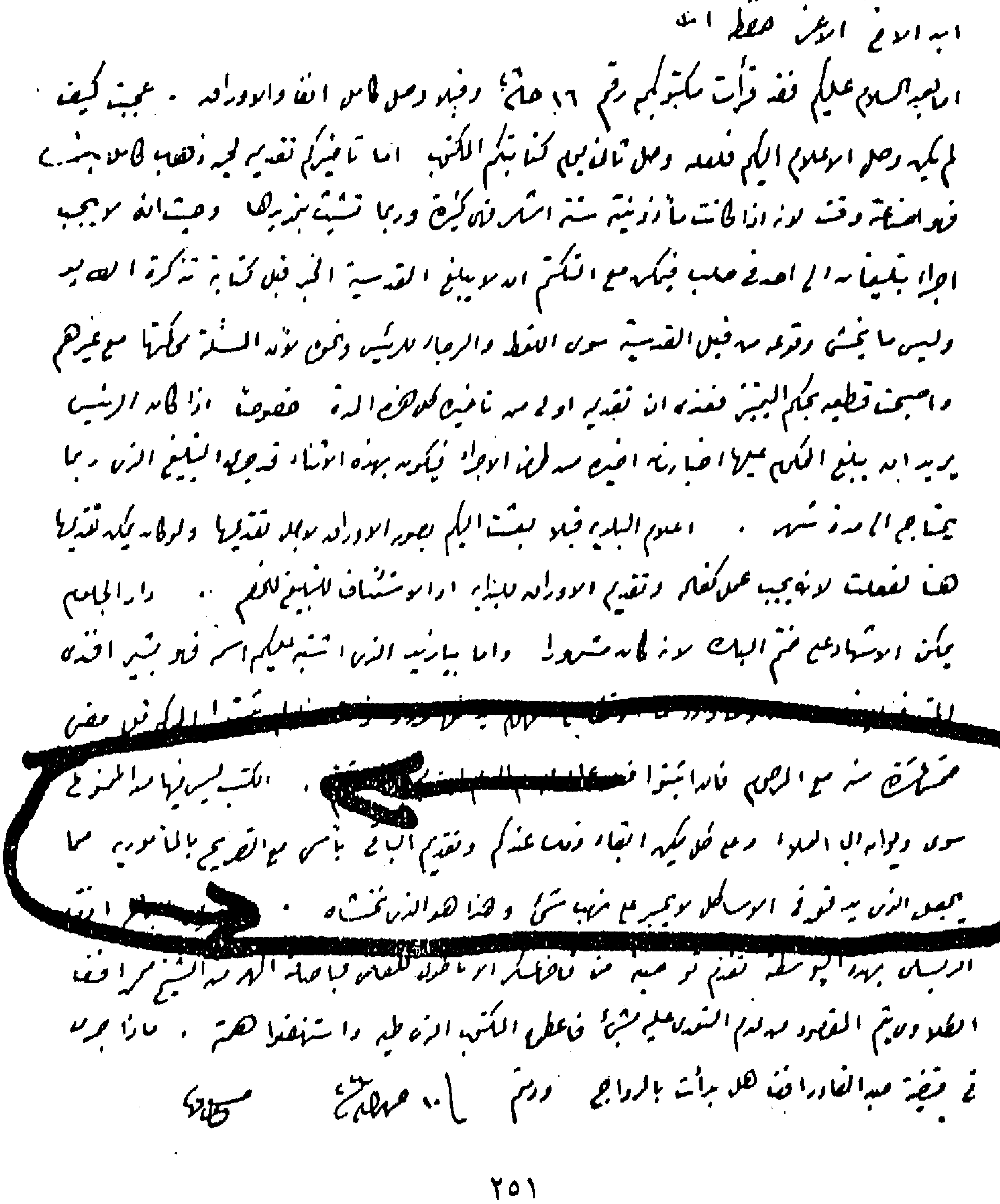
طهران ـ سيد حسين ١٣٢٧

منطقة جلوخان شارع شمس العمارة

ترجمة لمقدمة الطبعة الفارسية لكتاب «طبائع الاستبداد» الذي وصل إلى إيران بكيفية مجهولة بعد صدور الطبعة الأولى

صورة رسالة بعث بها «الشيخ مسعود الكواكبي» أخو «عبد الرحمن الكواكبي» إلى ابن أخيه الطبيب «أسعد» في قضية خاصة، يطلب إليه فيها إرسال كتب له إلى الآستانة، مشيراً إلى أن: «الكتب ليس فيها من الممنوع سوى ديوان أبي العلاء... وتقديم الباقي بإسمي مع التصريح بالمأمورية (أي أن المرسل إليه عضو «مجلس المبعوثان»!) مما يجعل الذي يدقق في الأساكل لا يجرؤ على نهب شيء، وهذا هو ما نخشاه...».

نصّ تاريخي يثبت تعصّب الترك ضد العرب وآدابهم واستبداد العصر الحميدي وعدم نجاة كبار القوم من هذا الاستبداد حتى لو كان أحدهم عضواً في مجلس المبعوثان، أو كما حصل لنافع باشا الجابري الذي انتقد ميزانية السلطنة فألغى السلطان المجلس برمته من أجل ذلك!



ابن الاخ الاعز حفظه الله

...

الكتب ليس فيها من الممنوع سوى ديوان ابي العلاء ... وتقديم الباقي باسمي مع التصريح بالمأمورية مما يجعل الذي يدقق في الاساكل لا يجسر على نهب شيء وهذا هو الذي نخشاه

...

سنه ل Le ......

وصول نومروسی N° d'arrivé ٥٦٨

دقیقه ساعت h. m. du

ارسال Réexpédié

مأمورك امضاسی Signature de l'employé

نومرو ١

TÉLÉGRAMME

مخابرات تلغرافیه‌دن طولایی دولتجه هیچ بر مسئولیت قبول اولنماز

L'État n'accepte aucune responsabilité à raison du service de la télégraphie.

سنه ل Le ......

واسطه سیله Transmis par

دقیقه ساعت h. m. du

بدء مخابره Commencé à

ختام مخابره Fini à

مأمورك امضاسی Signature de l'employé

De ...... Pour ...... الى ...... من سويديه

محلي نومروسي N° du dépôt	عدد كلمات Nombre de mots	غروب Group	محلي تاريخي Date du dépôt	ساعت Heures	دقيقه Minutes	روز وياشب Matin ou soir	طريق Voies	اشارات مخصوصه Indications non taxées
٥٦٥	١٨٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]	

الى نيابة شرعيه [illegible]

[illegible] بعباره تركيه لاقتضاء عدالتكم عما كانه

كما سابقه اعاحمه [illegible] جميل باشا منه على اقتطاف الطمع

بوقت ما حصل لنا مقدوتيه منه جانب [illegible] بارام سنه فلهذا اعنتم

نجيب كمال عائلتنا الى اقامته كاه منه [illegible] طاحونه مشتركه وكان اتصل حكم

ادجيه محي السيد افضه بوضع يده على [illegible] وطننا المسعودي عنه جميعنا

الفرصه [illegible] مصاريف [illegible] بالادارة مع كوننا

غيابي لاجل [illegible] الاعضا [illegible] ونظرا اذا كان المدعى

والآن نظرا لمصاحبه [illegible] ووجود [illegible] علينا ؟

املاك نقدمهم اضعاف مايدعي [illegible] المعروضه لاسيما كوننا من

اصحاب املاك فلا يجوز [illegible] الراد [illegible] فبغير تحقيقنا

علي اصحاب [illegible] [illegible] بعباره مقامكم الشريف

اشراف مشايخ ابنا العرب [illegible] والاهانه مستحسنين

وحبسنا وضياع حقوقنا فاذا لم [illegible] ناموسنا بالحبس [illegible] واعادته المحاكم

[illegible] [illegible] والظلم [illegible] القوانين بعدم [illegible]

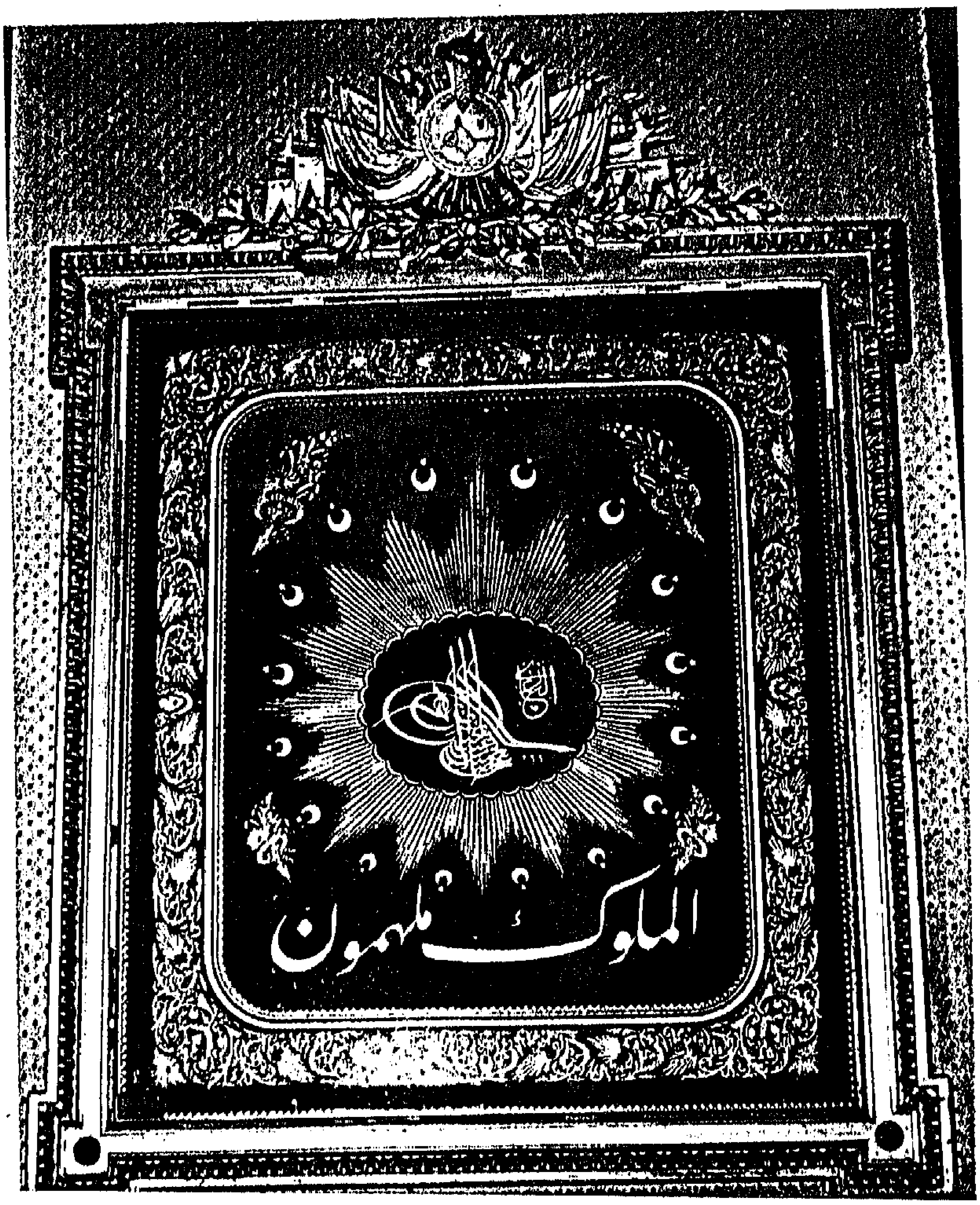
اصدار عدالتكم بخروج [illegible] منه على [illegible] وحاضرين الى المحاكم

[illegible] غيابي كان [illegible] استحصاليه والامر لكم افندم

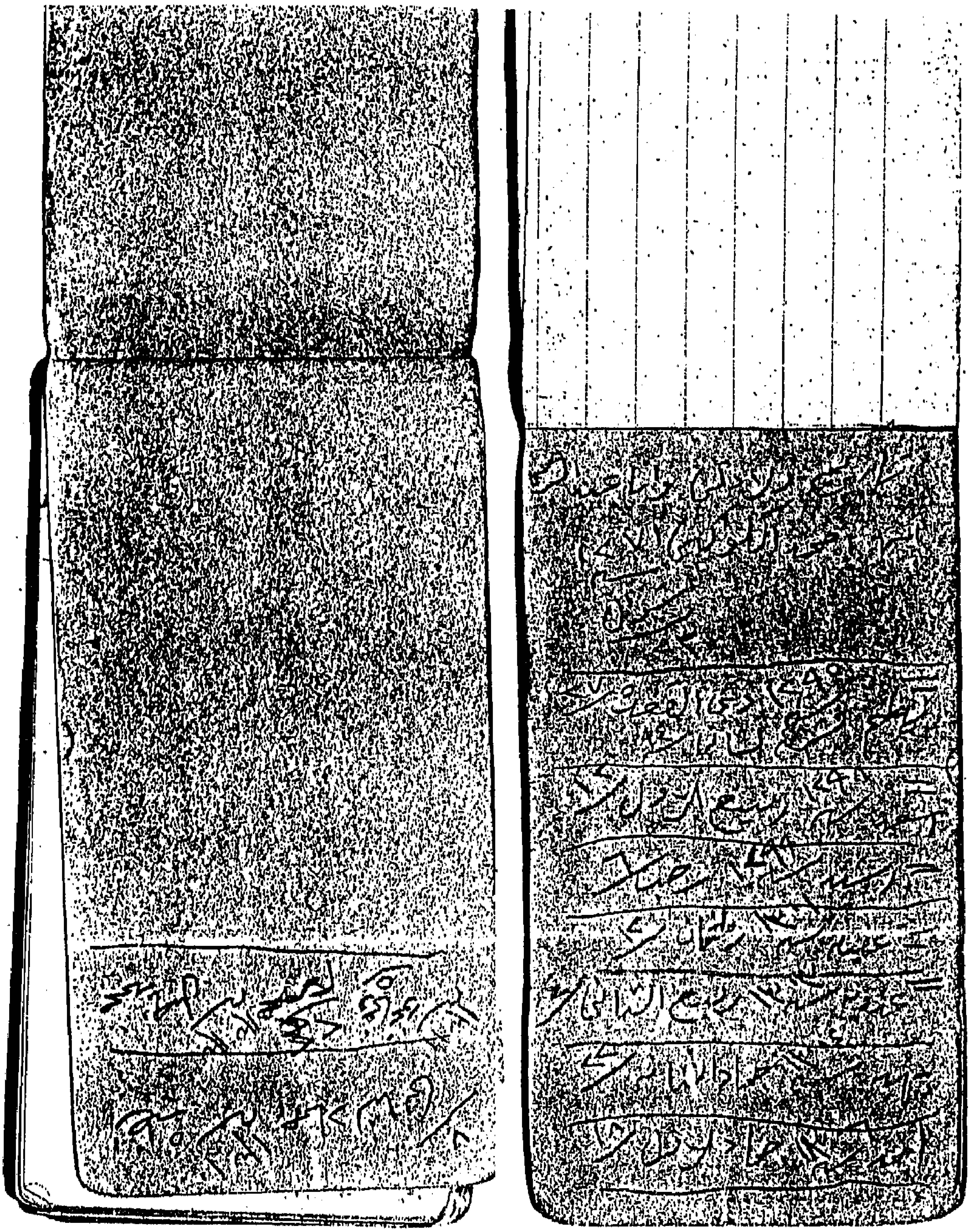
[illegible] احمد كبير [illegible] ال

[illegible] عبد [illegible] [illegible] [illegible]

خلاص


الملوك ملهمون

تاريخ ولادة الكواكبي في ٢٣ شوال ١٢٧١ هـ بخط يده على ورقة من دفتر صغير.



عبد الرحمن الكواكبي

أديب إسحق ـ بيروت ـ جريدة التقدم في ٥ تموز ١٨٨١ (أي ٧ شعبان ١٢٩٨ هـ)

توجه من مدة حضرة قدسي زاده نجيب أفندي مأمور الإجراء إلى دار السعادة بالرخصة وناب عنه بهذه الخطة المهمة جناب الفتى الوطني النبيه الفاضل كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي فنهض بأعبائها خير نهوض وأثبت ما عهدنا به من بداهة الخاطر وسعة العلم بالقوانين. وكان هذا الفتى الفاضل قد انتخب عضواً دايماً لمحكمة التجارة فزعم بعض القهقريين أنه لا يصلح لذلك من حيث أنه فتى لم يتجاوز ستاً وعشرين من السنين وفاتهم أن القوانين لا تقضى بكون عضو التجارة شيخاً ضعيفاً بل تقتضي أن يكون فاضلاً نزيهاً عالماً بواجباته وحقوقه. ولله در من قال:

كم من كبير قليل العقل ذي بله   وكم صغير كثير العلم منتخب
ليس الكبير الذي قد شاب مفرقه   بل الكبير الذي قد شاخ في الأدب

فعسى أن يقبل أولو الأمر على رفع منازل النبهاء من الفتيان فإنهم إن لم يكن من مزيتهم غير قوة الشباب والبعد عن فساد التقليد فحسبهم ذلك فضلاً.

هذا النص يدلنا ـ فضلاً عن تاريخ استلامه لهاتين الوظيفتين ـ على أن تاريخ ولادة «الكواكبي» هو فعلاً ٢٣ شوال ١٢٧١ (أي ٩ تموز ١٨٥٥م)، فهو لم يكد يتم السادسة والعشرين من عمره وقتئذ كما يقول «أديب إسحق» مما يثبت أن تاريخ الوثيقة الرسمية لسيرته الذاتية الصادرة عن الوالي «عثمان باشا» التي يذكر فيها أن ولادته كانت سنة ١٢٦٥ هـ (أي ١١ أيلول ١٨٤٨ م) كانت خطأ. والتفسير لذلك أن تكبير سنه جاء سنة ١٣٠٤ هـ أي سنة ١٨٨٧ أيام ولاية «عثمان نوري باشا»، أي بعد صدور جريدة التقدم بست سنوات في وقت كان فيه «أديب إسحق» موجوداً يوم ولادة «الكواكبي». وهذا التوضيح والثبت يكفيان لإزالة أي التباس ومنع كل خلاف حول تحديد تاريخ ولادته.

صفحة من دفتر مذكرات لعمي «الكاظم» تتعلق بشؤون رحلته مع والده عبد الرحمن إلى مصر بعد وفاة والده مع تفصيل لتاريخ إبتداء سفرهما من سورية إلى مصر ١٦ محرم ١٣١٨ هـ الأربعاء والدراهم التي اصطحباها للطريق (خرجية) ٤٩ ليرة إنكليزية و ٢٨ ليرة فرنساوية.

قيمة كتب

لنا امانة عند مطانس تكسيري ٢٨ اخذهم محمد جوده من مكتبة الغرز وزع بتاريخ ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٢٠ وذلك بموجب مكتوب منه محفوظ

لنا قيمة كتب عشرة ليرات انكليزي عند الشيخ رشيد افندي رضا بموجب تلغراف من المذكور الى محمد جوده

ابتداء سفرنا لمصر مع المرحوم كان في ١٦ محرم سنة ١٣١٨ ليلة الاربعاء والدراهم التي كانت معنا برسم خرجية ليرات انكليزي ٤٩ فرنساوية ٢٨

وفاة المرحوم في ٦ ربيع [illegible] سنة ١٣٢٠

ملاحظات ومفكرات

لنا ثمانية وعشرون ٢٨ قطعة كتاب طبائع الاستبداد التي جرى تكليف محمد جوده باخذهم من مكتبة الغرز وزع بالاسكندرية واخذهم وابقاهم في محل مطانس امانة وعرفنا عن ذلك بموجب مكتوب لنا محفوظ والمؤرخ في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٢٠ ثم بعد المطالبة بهم من مطانس انكرهم علينا

لنا قيمة عشرة ليرات انكليزي هي مبلغ ٩٧٥ قرش صاغ مصري على سعر الليرة ٩٧ بذمة الشيخ رشيد افندي رضا ابقيناه معه لاجل اعمال تركيب القبر للمرحوم التي تمت بعد سفرنا ووكلنا بها الشيخ رشيد افندي المذكور وقد علمنا من مكتوب جوده ان الشيخ دفع منها ثلاثة ليرات ونصف الليرة


U.A.R. الجمهورية العربية المتحدة
15p
١٥ق
POSTAGE
عبد الرحمن الكواكبي – الذكرى الخمسون لوفاته ١٩٠٩-١٩٥٩
A.R. KAWAKBI - 1909 - 1959

الجمهورية العربية المتحدة

الاصدار العادي



U. A. R.

REGULAR ISSUE

First day of issue



ختم اليوم الاول

في الصفحة التالية:

صورة قبر الكواكبي سنة ١٩٤٦ في «قرافة باب الوزير» بالقاهرة وقد كُتِبَ على اللوحة الصغرى الأمامية: «هذا قبر المرحوم الشهيد العلاّمة الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبي إبن الشيخ أحمد أفندي الكواكبي المتوفى في ٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ والمنقول من جبّانة باب الوزير إلى مقابر التنظيم في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٩ الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٥٨».

وبجانب اللوحة لوحة صغرى إلى يسارها كتب فيها:

«نقلت مصلحة التنظيم رفات «سيدي محمد الخواص» يوم الثلاثاء ١١ رمضان سنة ١٣٥٧ هـ الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٤ من جادة الخوّاص بشارع الأ. .بال قسم باب الشعرية».

والجدير بالذكر أن المصادفة جمعت بين رفاة الكواكبي ورفاة الصوفي الشهير الخوّاص الذي هو من أحد أجداده.



قبر الكواكبي سنة ١٩٤٩

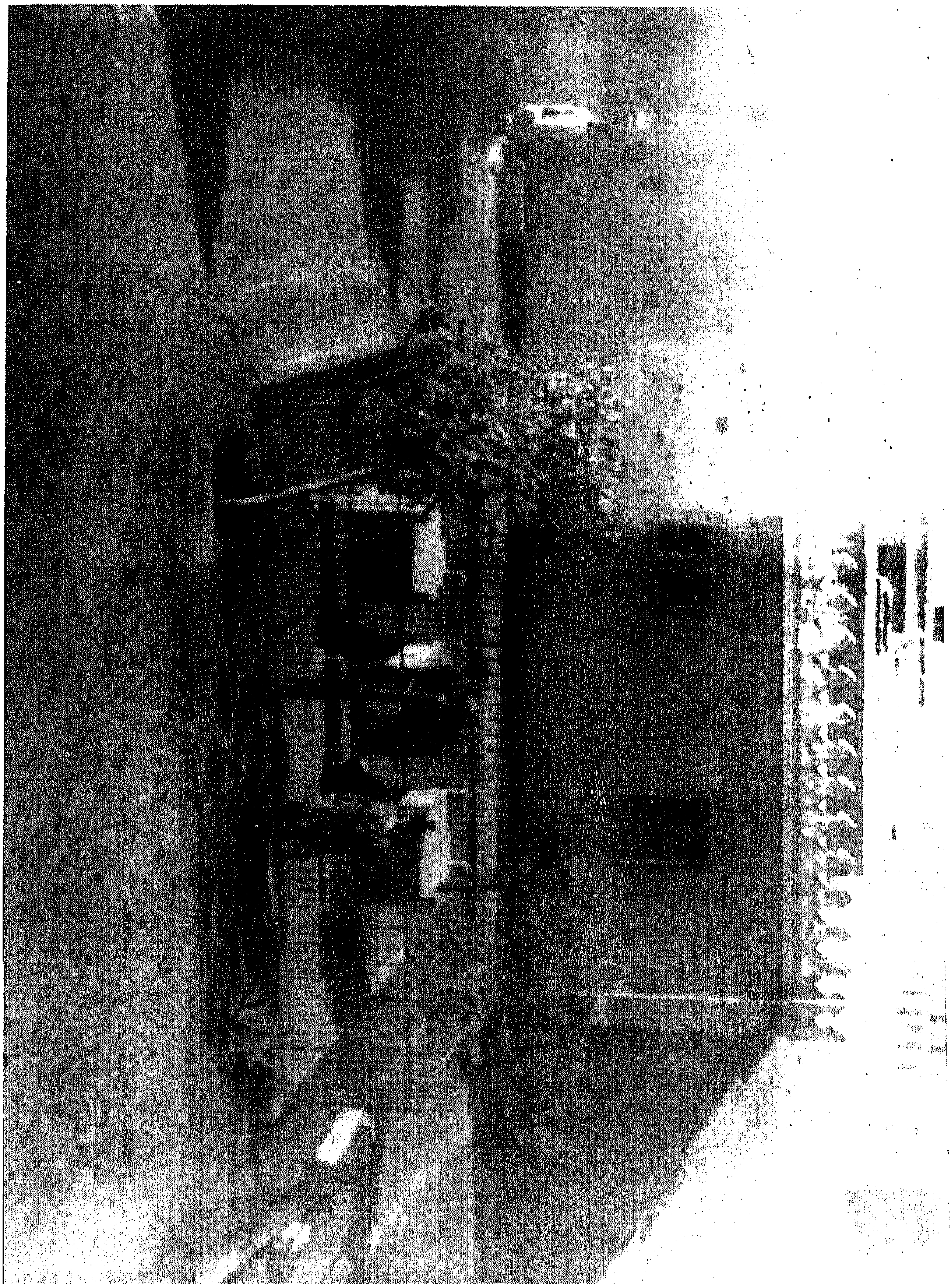


رثاء شاعر النيل «حافظ إبراهيم» لـ «كواكبي» على ضريحه:

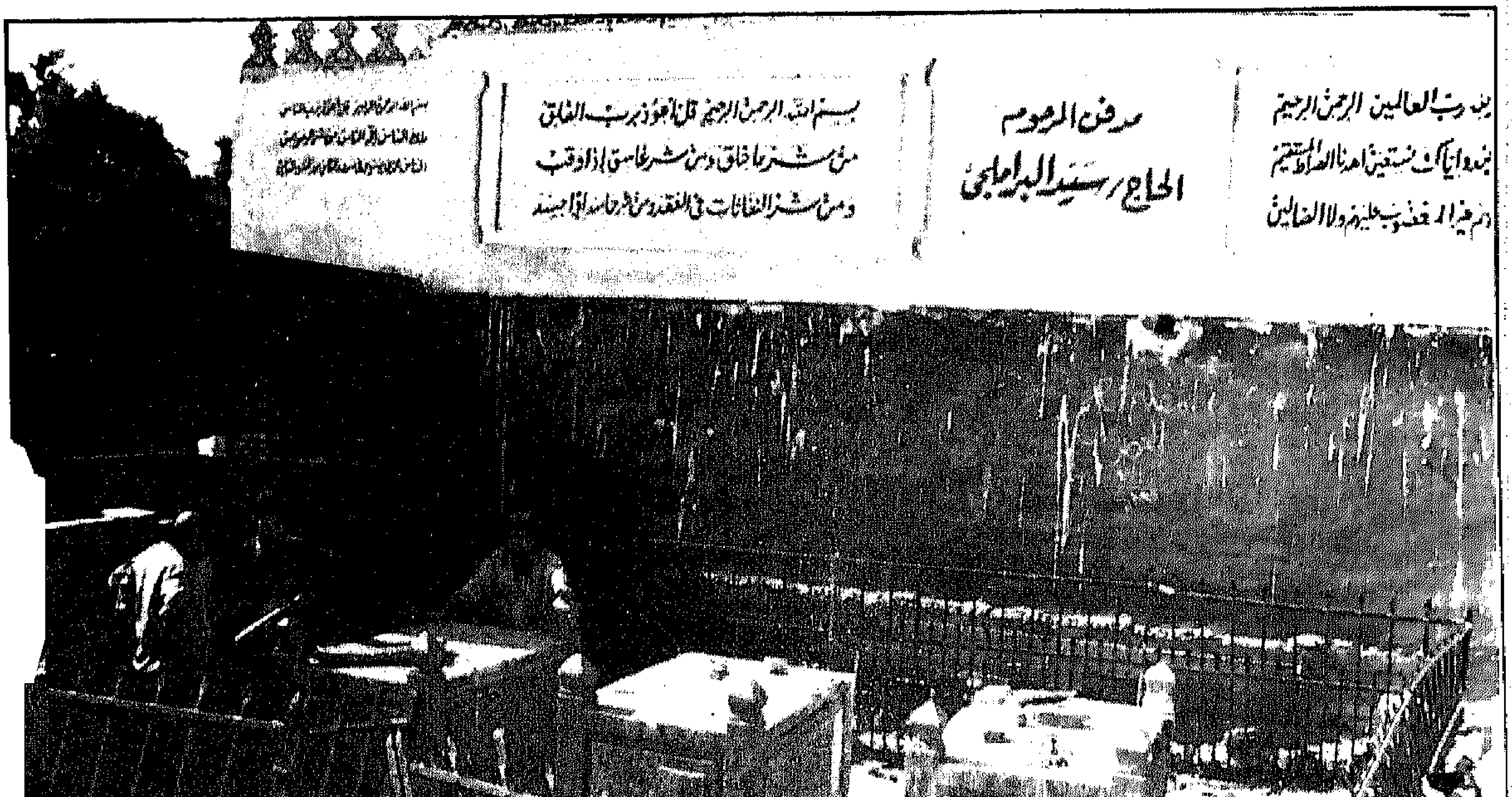
هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرؤا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

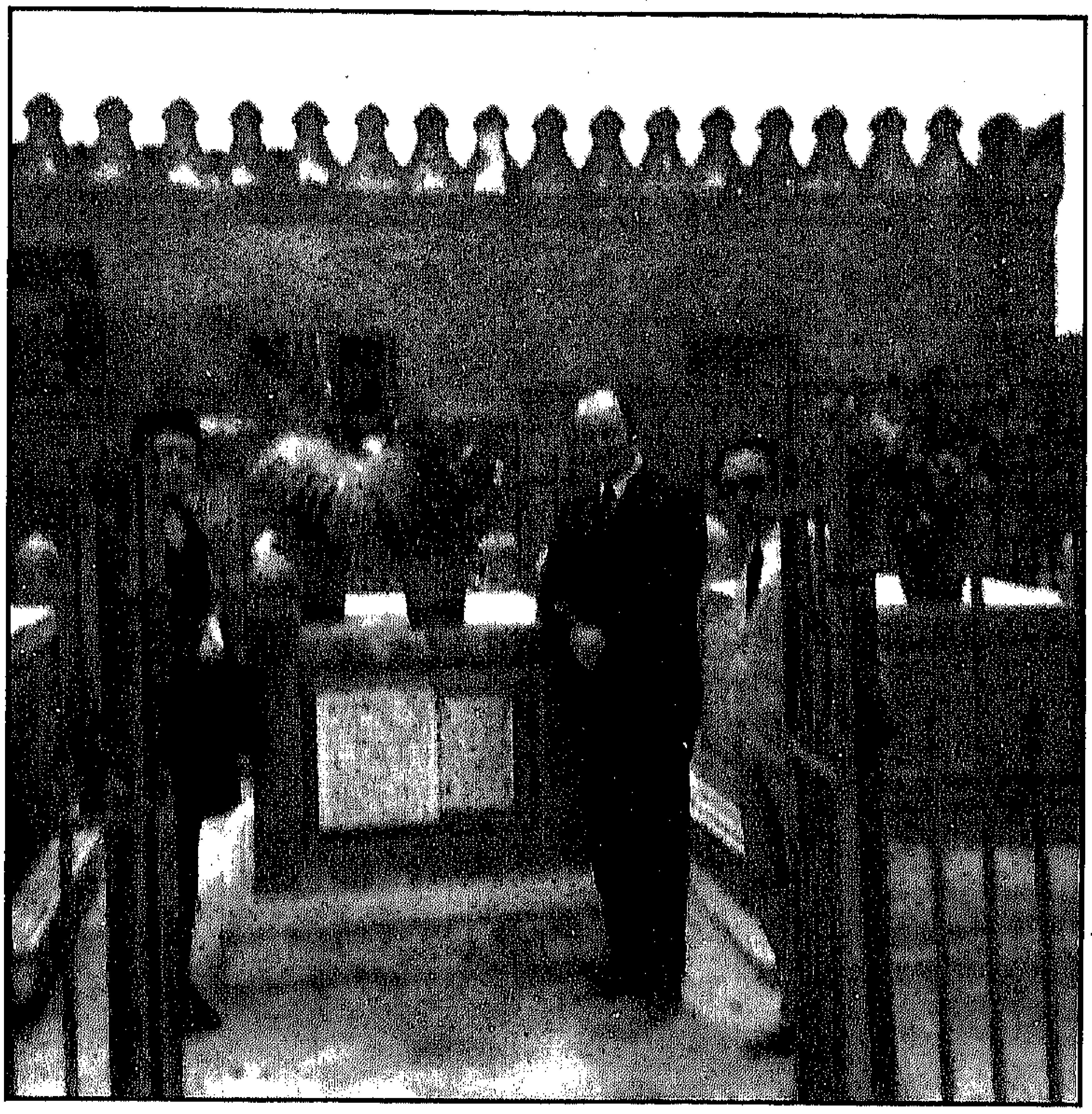
صورة عمي الطبيب أسعد الكواكبي على ضريح جدي عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٩٤٦ ـ والصورة من تسجيلي حينما جئت لأتعرف على الضريح بدلالته. وقد هُدِمَ القبرُ بشكل يكاد يكون كاملاً مع القبور المجاورة ومع السياج سنة ١٩٩٧ ـ كما يتبين من الصورة الحديثة التالية ـ تهيئة للاستيلاء على أرضه مع أن المكان تابع لمصلحة التنظيم ملكاً للأوقاف الإسلامية بالقاهرة.

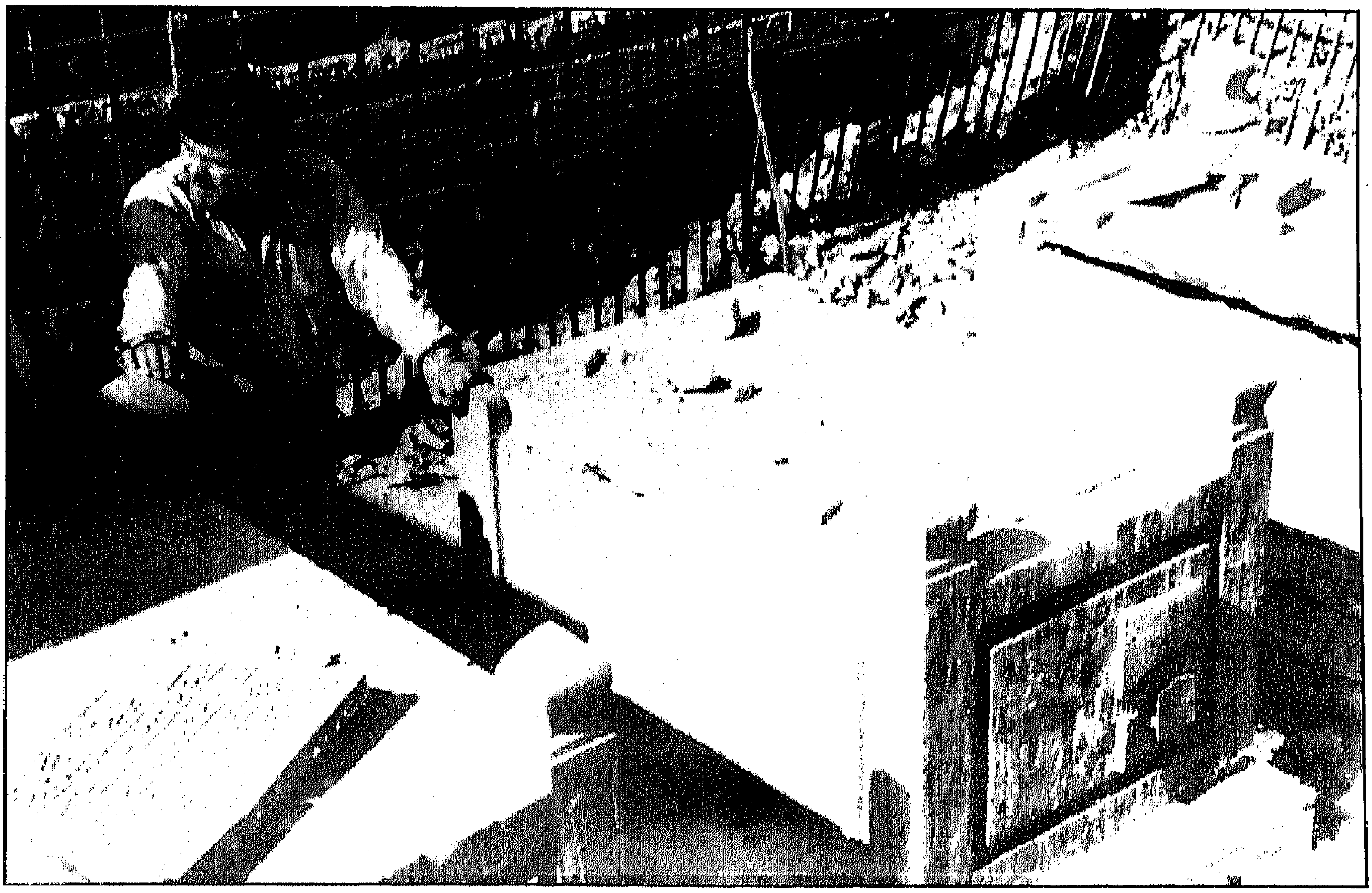






في الأعلى صورتي وزوجتي والأستاذ محمد فارس على ضريح جدي عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٩٧٤ والصورة السفلى للضريح وعليه وفد المؤسسة العامة للسينما السورية التي ألغت تصوير المشاهد في مصر من الفيلم الذي يحضّر عن الكواكبي، بسبب محاولة درس الضريح نهائياً من قبل لصوص المقابر سنة ١٩٩٧.





de l'avertissement, 123-5; Ṭabarī Zotenberg, i, 117 ff.; Djāḥiẓ, Tarbīʿ, 77 and index. (Ed.)

AL-KAWĀKIBĪ, ʿAbd al-Raḥmān b. Aḥmad b. Masʿūd, a pioneer in the theory of Panarabism, was born in (?) 1849 into a family of notables long settled in Aleppo, and died in Cairo in 1902. Orphaned at an early age, he was brought up by an aunt in Antioch, where he became a pupil of his mother's maternal uncle, said to have been sometime tutor to Prince ʿAbbās Ḥilmī (1874-1944) [q.v.]. He also attended al-madrasa al-kawākibiyya in Aleppo. He perfected Turkish and Persian as well as Arabic, and acquired some knowledge of secular subjects but not of a European language. He led an active literary and political life, editing the official Aleppo paper Furāt in its Arabic and Turkish sections from 1875-1880 (?). In collaboration with Hāshim al-ʿAṭṭār, he brought out in 1878 the first private Arabic weekly in Aleppo, al-Shahbāʾ, which lasted for only 15 issues. This, as well as a second paper, al-Iʿtidāl, were closed by order of the wālī in 1879. He was involved in the municipality and in other commercial and political ventures, particularly in the Régie des Tabacs. After quarrelling with the wālī, he was tried and found guilty, but appealed in Beirut and was acquitted. His property was confiscated, however, and he was forced to emigrate to Cairo in 1898 or 1899. From Egypt he toured various Muslim countries and went as far as Karāčī; his sudden death stopped another planned tour into the heart of Arabia. In Cairo he is said to have received the monthly salary of 50 guineas from the Khedive ʿAbbās Ḥilmī in order to win for him the suffrages of the shaykhs of Aden and the Nine Protectorates for the caliphate which he wished to assume.

ما كتبته سيلفيا حاييم في دائرة المعارف الإسلامية عن الكواكبي

Al-Kawākibī published two books, drafted while he was still in Syria, both of which have been convincingly shown to derive from Western models. He used two pseudonyms: al-Sayyid al-Furātī and al-Rahhāla K. *Umm al-Kurā*, which echoes the views expressed by W. S. Blunt in *The Future of Islam* (1882), was written in the guise of the proceedings of a secret society and was first published under a pseudonym in 1899, almost certainly clandestinely, the place of publication being given as Port Said. It was not until Rashīd Riḍā [*q.v.*] serialised it in *al-Manār* [*q.v.*], April 1902-February 1903, that the book became widely known. The book makes the first sure and permanent transition in Arabic from Panislamism to Panarabism. It discusses the caliphate and argues that the problems of Islam would be solved by transferring the caliphate from the house of ʿUthmān to Kuraysh. An Arab caliph would be installed in Mecca and would exercise, with the concurrence of a special council of consultation (*shūra*), political authority over the Ḥidjāz only. This caliphate would be devoid of all other political and military powers; its spiritual nature, as well as the special position of the Arabs within Islam, are greatly stressed. *Ṭabāʾiʿ al-istibdād wa-maṣāriʿ al-istiʿbād* first appeared as a series of anonymous

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM,

ما كتبته سيلفيا حاييم في دائرة المعارف الإسلامية عن الكواكبي

-٢-

articles in *al-Mu'ayyad* of ʿAlī Yūsuf in 1900. It is to a large extent a faithful rendering in Arabic of *Della Tirannide* (1800) by Vittorio Alfieri. Notes for other publications were destroyed or lost.

Bibliography: *Al-Manār*, v (1320/1902-3) 237-40 and 276-82; Muḥammad Rāghib al-Ṭabbākh; *Iʿlām al-nubalā' bi ta'rīkh Ḥalab al-Shahbā'*, vii, Aleppo 1926, 507-24; Sylvia Kedourie (née Haim): *The ideas of a precursor, ʿAbd al-Raḥmān al-Kawākibi (1849-1902), in relation to the trend of Muslim-Arab political thought*, Ph. D. thesis 1953; Sylvia G. Haim, *Alfieri and al-Kawākibi*, in *Oriente Moderno*, xxxiv (1954), 331-4; Ettore Rossi, *Una traduzione turca dell'opera "Della Tirannide" di V. Alfieri probalmente conosciuta da al-Kawākibi*, in *ibid.*, xxxiv (1954), 335-7; Sylvia G. Haim, *Blunt and al-Kawākibi*, in *ibid.*, xxxv (1955), 132-43; Sāmi al-Dahhān, *ʿAbd al-Raḥmān al-Kawākibī*, Cairo n.d.; N. Tapiéro, *Les idées réformistes d'al-Kawākibī 1265-1320/1849-1902*, Paris 1956; *al-Aʿmāl al-Kāmila li-ʿAbd al-Raḥmān al-Kawākibī maʿa dirāsa ʿan ḥayātihi wa-āthārihi*, ed. Muḥ. ʿUmāra, Cairo 1970; Elie Kedourie, *The Politics of Political Literature: Kawakibi, Azoury and Jung*, in *Middle Eastern Studies*, viii/2 (1972), 227-40.

(SYLVIA G. HAIM)

fort whi and Čel ... eyā dist san resi ash Čel five reli ... Kav (ma of the the pasl gov (see i-ii, tur and or a and

2nd edn., vol. 4, pp.775/6

ما كتبته سيلفيا حاييم في دائرة المعارف الإسلامية عن الكواكبي.



تأمل نهذا شكله متسولا
وفي يده الكشكول والدف في الاخرى

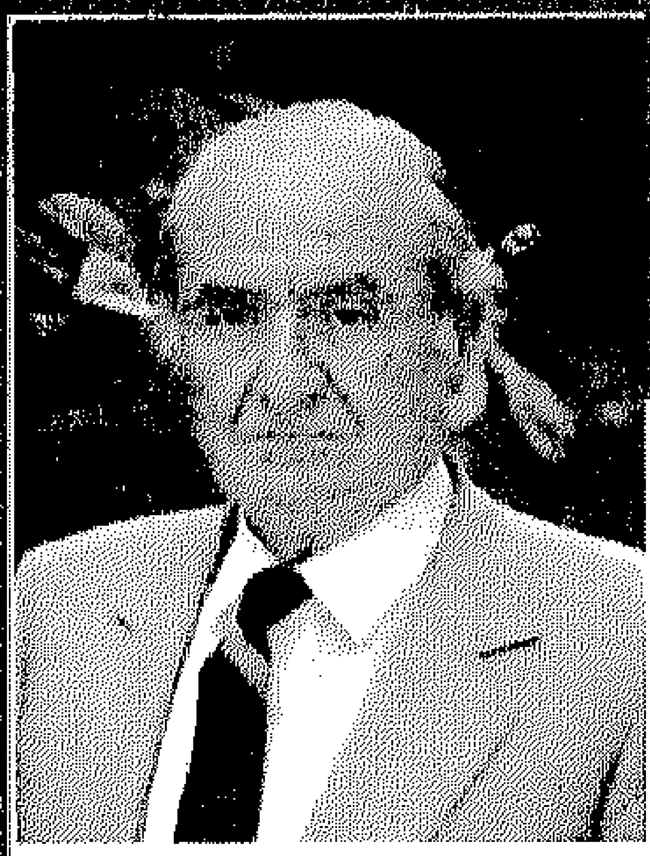
صورة "أبي الهدى الصيادي" من كتاب "المسامير" لعبدالله النديم

فهرست الوثائق

عبد الرحمن الكواكبي السيرة الذاتية

هو عبد الرحمن أفندي ووالده الشيخ أحمد أفندي من آل الكواكبي ومن المُدَرِّسين في الجامع الأموي الكبير والمدرسة الكواكبية. وآخر وظيفة كان فيها عضوية مجلس إدارة ولاية حلب. وبيتهم من بيوتات المجد والشرف (خاندان) المشهورة في الآستانة العَلِيَّة وحلب.

من وثيقة "عثمان نوري باشا"



القاضي سعد زغلول الكواكبي السيرة الذاتية

*** الولادة ٢٦/ ٠١/ ١٩٢٤**

*** الوظائف التي شغلها والأعمال غير الرسمية:**

- دائرة الأشغال العامة بحلب (١٩٤٤ - ١٩٤٦)
- مدرّس في مدارس حلب الثانوية (١٩٤٧ - ١٩٥١)
- قاض في وزارة العدل (١٩٥٢ - ١٩٨٤)
- محام
- الأمين العام المنتخب للإتحاد العام للجمعيات الآثارية العربية
- عضو الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب
- عضو الجمعية الجغرافية السورية
- عضو جمعية (العاديات) بحلب ١٩٥٦، ورئيس مجلس إدارتها (١٩٧٣ - ١٩٨٧)

*** المؤلفات:**

- مقامات الكواكبي
- جولات آثارية في سورية
- إحياء العديم من التراث القديم (٢ جزء)
- حجاب النور: قصص وذكريات
- رواية "هاني الصغير بائع الشيكلتس"
- رواية "تاج الحرة: جابرة الطرود فتاة بني مرداس"
- السيرة الذاتية ل "عبد الرحمن الكواكبي"